ستيفان زيفايج

قلوبٌ تحترق



بيروت - لبنان



مقـدمة المؤلف

ليس هناك ما هو أبعد من الحقيقة ، من الظن السائد بأن خيال الروائي دائب النشاط في رأسه ، وان قدرته على الخلق والابتكار لها رصيد من القصص لا ينفد ومعين من الحوادث لا ينضب .. فالواقع ان كاتب القصة ليس في حاجة الى ان يبحث موضوعا لها بقدر حاجته الى ان يدع الشخصيات والوقائع تبحث عنه ، كما تفعل دائما ما دامت له ملكة الملاحظة والاصغاء ! . فهي تسعى اليه من تلقاء نفسها باعتباره وسيلتها الى الذيوع والانتشار .. وهكذا يحدث ان يفضي الكثيرون بقصصهم طائعين الى الشخص الذي طالما حاول ان يتعقب مصائر البشر !

والقصة التالية قد رويت لي بأكملها تقريبا في القالب الذي اقدمها به هنا . ففي ذات ليلة ـ خلال فترة اقامتي الاخيرة بمدينة « فينا » ـ شعرت بالتعب ، في اعقاب يوم حافل بالعمل ، فمضيت الى مطعم في ضواحي المدينة خيل الي انه فقد منذ امد جدته وشهرته وقل الاقبال عليه . لكني لم أكد اخطو الى داخله حتى تبينت على الفور خطأ هذا الظن ، فقد خف الى تحيتي شخص ممن اعرفهم وعلى وجهه كل علائم السرور والبهجة ، ثم دعاني الى الجلوس معه ، ولكني لم استجب لتحيته ودعوته بمثل حماسته ! . ولست ازعم انه كان مخلوقا بغيضا يضيق المرء بصحبته ، فالواقع انه كان من ذوي النفوس المحبة للانس والمخالطة ، أو ـ بعبارة اخرى ـ من اولئك الذين « يجمعون » الاصدقاء الجدد بمثل المثابرة والحماسة اللتين يجمع بهما الاطفال طوابع البريد ، ويفخرون بكل نموذج جديد يضيفونه الى مجموعاتهم ، ولا سيما اذا كان نموذجا نادرا او مشهورا .. !

والذين يعرفون شخصا من هذا الطراز يلمسون طيبة قلبه وحرصه على ادخال السرور على نفوس افراد « مجموعته » . ومن ثم يقدرون مدى « القسوة » التي ينطوي عليها عدم الاستجابة لحفاوته وترحيبه . وهكذا استسلمت لقدري وجلست الى جوار صاحبي .. وانقضى نحو ربع ساعة في ثرثرة تافهة ثم دخل المطعم رجل طويل القامة يصدم الناظر اليه مبلغ التناقض بين الشاب النضير الذي يلوح على طلعته وبشرته ، والشيب المبكر الذي الم بعارضيه ! وكان في مشيته طابع ينم على انه « ضابط سابق » ..

ولم يكد جاري يلمحه حتى هب يحييه في لهفة باشارة من يده ، فرد له الرجل التحية في فتور وعدم اهتمام ، ثم جلس الى مائدة غير بعيدة .. ومال جليسي على أنني هامسا : « أتعرف من يكون ؟ » فأجبته في اقتضاب كي أتجنب اسهابه في الايضاح : كلا ! .. ثم انهمكت في تشريح قطعة اللحم التي امامي ، لكن « بلادتي » هذه ضاعفت من حماسة صاحبي « صياد الشخصيات » فوضع يده على فمه وهمس بصوت خافت : « كيف ؟ ـ.. انه « هوفميلر » موظف القوميسارية ذاك الذي فاز بوسام (ماريا تريزا) لحسن بلائه في الحرب »

واذ رأى محدثي ان هذه المعلومات لم تثر انفعالي كما قدر ، اندفع يصف لي جانبا من الافعال الباهرة التي اداها الكابتن هوفميلر في الحرب ، والتي لا ارى معنى لتصديع رأس القارىء بتفصيلاتها . فلم يسعني الا ان التفت في حركة غير ارادية الى نلك « البطل » المقصود بالحديث ، واذا به قد ارتسمت على وجهه نظرة سخط صارمة ، ثم ادار مقعده بحيث اعطانا ظهره في حركة عدائية ، فشعرت بشيء من الخزي ، وما لبثت قليلا حتى استأننت محدثي الثرثار في الانصراف .. وفيما انا اغادر المطعم لمحته ينتقل الى مائدة بطله المرموق ، كي يرسم له ولا شك صورة لامعة عني مثلما رسم لي عنه !

وكان يمكن ان انسى كل شيء عن هذا اللقاء العابر بالضابط السابق لولا ان شاءت المصادفة ان وجدت نفسي واياه وجها لوجه في حفلة صغيرة حضرتها في الليلة التالية ! . وكان وهو في ثياب السهرة اكثر اناقة ووجاهة منه في سترته العادية التي كان يرتديها في الليلة السابقة !

ووجد كلانا بعض الصعوبة في قمع ابتسامة خفيفة سعت الى شفاهنا في وقت واحد .. تلك الابتسامة ذات المعنى التي يتبادلها في مكان عامر بالناس شخصان يتقاسمان سرا خفيا ! .. لقد عرفني هو كما عرفته لكن كلا منا تجنب التحدث مع الاخر ولو حاولنا نلك لتعذر علينا في تلك الساعة فان نقاشا حاميا كان محتدما حولنا .. ويستطيع القارىء ان يستنتج موضوع نلك النقاش ،لو علم ان تاريخ هذه الحادثة يرجع الى سنة ١٩٣٧ ، اذ كان كل حديث يجري في اي قطر من اقطار اوربا الحائرة لا يكاد يخرج عن موضوع واحد هو الحرب العالمية الجديدة وهل نشوبها محتمل او غير محتمل ؟ !

وبدأ مضيفنا المناقشة ـ وهو محام معتز برأيه ـ فسخر من فكرة احتمال نشوب الحرب في جيل لم ينس ابناؤه أهوال الحروب السابقة .. وضايقتني هذه المغالاة في استبعاد خطر

الحرب ، فأعلنت رأيي المضاد في حزم وقوة قائلا : « انه لا ينبغي ترك الرغبة تتحكم في الفكرة ، والامنية تغير الامر الواقع . ولاشك انه في اللحظة التي يذاع فيها نبأ التعبئة العامة ، لن يجرؤ معارض على رفع صوته ، ولا يعود لحياة الانسان ـ المخلوق من التراب ـ اية قيمة او وزن في اعتبار الحكام والساسة ! »

وانحاز الحاضرون جميعا الى الرأي الاول ، المضاد لرأيي ، انصياعا لتأثير غريزة خداع النفس التي تجعل البشر يحاولون ان ينفوا من اذهانهم المخاطر التي يحسون وجودها في اعماقهم ، فضلا عن ان تحذيرا كالذي جاهرت به ضد التفاؤل الرخيص السائد كان خليقا الا يلقى ترحيبا في وقت كان فيه عشاء شهي فاخرا معدا في انتظارنا في الحجرة المجاورة !

وكان عجبا لي ان فوجئت في تلك اللحظة بتدخل الضابط السابق في النقاش مؤيدا رأيي بقوله : ان ارادة الشعوب لن يكون لها وزن في ترجيح كفة الاشتباك في حرب او الاحجام عنها ، وان النصيب الاكبر من القتال في الحرب القادمة سوف يكون نصيب الالات ، ولن يكون الانسان اكثر من جزء من اجزاء تلك الالات .. ومتى نشبت الحرب فسوف يندفع الى القتال عشرات ، ومئات الالوف من الرجال ، اما هربا من انفسهم وظروفهم السيئة ، واما خوفا من معارضة التيار الجارف والتصدي له ! »

ثم اضاف الكابتن هوفميلر الى ذلك قوله : « ان اللون الوحيد من الشجاعة الذي صادفني في الحرب هو شجاعة الجماعات تلك الشجاعة التي تنبع من شعور الشخص بأنه واحد من قطيع جرار ، وهي شجاعة تتألف من عناصر عجيبة مختلطة ..منها : الغرور والاستهتار والضجر ، ومنها قبل ذلك كله ، الخوف من التخلف عن موكب المحاربين ، والخوف من سخرية الناس ، او الخوف من اتخاذ موقف مخالف لموقف المجموع وحماسة الزملاء والاخوان ! .. ولم ادرك الا فيما بعد عقب تسريحي من الجيش وعودتي الى الحياة المدنية ، ان الكثير من الذين اشتهروا بأنهم من اشجع المحاربين في الميدان كانت بطولتهم موضع شك .. ولست استثني منهم نفسي ! »

واعجبتني طريقته في الكلام ، وكدت اتقدم لاحييه ولكن مضيفنا دعانا الى قاعة الطعام ، حيث اجلسنا في مقعدين متباعدين .. وهكذا لم تتح لنا فرصة اللقاء الا بعد انفضاض الحفلة ، في حجرة المعاطف « الامانات » حيث ابتدرني قائلا وهو يبتسم : « اعتقد ان صديقنا المشترك قد تولى تقديمنا ـ بصفة غير مباشرة ـ احدنا الى الاخر .. »

فأجبته بعبارة مناسبة ، وانا ابتسم بدوري .. وعندئذ اردف قائلا :

ـ يخيل الى انه قد خلق مني (بطلا) .. فانه جد فخور بوسامي .. كما هو فخور بكتبك !

ثم خرجنا معا وفي اثناء سيرنا التفت الى فجأة قائلا :

ـ « صدقني ! . اني لا اغالي اذا قلت ان شيئا لم يثقل على صدري ويضايقني خلال

السنوات الاخيرة مثل وسام (ماريا تريزا) هذا الذي احمله ! .. صحيح اني فرحت به حين منحته ، من فرط ما سمعت عنه اثناء دراستي الحربية . مما يدخله في باب الاساطير .. وصحيح انه لا يمنح لاكثر من اثني عشر شخصا في كل حرب .. وانني يوم منحته كنت شابا في الثامنة والعشرين ، ووقفت مرموقا من الفرقة بأسرها وهو يلمع على صدري كالشمس الصغيرة ، وصاحب الجلالة الامبراطور يهز يدي مصافحا مهنئا .. لكن هذه الاوسمة الحربية

تنتهي نشوتها بانتهاء الحرب ، فقد بدا لي من السخف ـ بعد استقرار السلام ان اظل طيلة حياتي مكللا بالغار ، باعتباري بطلا ، لا لشيء الا لاني في مناسبة ما تصرفت تصرفا ينطوي على الشجاعة لمدة عشرين دقيقة ، وقد لا اكون فعلت اكثر مما فعل الاف غيري من المحاربين ، وانما كان من حسن حظي ان تنبه الرؤساء الى صنيعي ، كما كان من حسن حظي ان عدت من الحرب حيا .. ! ولكن لم ينقض على ذلك عام حتى كنت قد ضقت ذرعا بنظرات الفضول التي يرمق بها الناس للوسام المعلق على صدري ، ثم ينتقلون بها ـ امعانا في الاعجاب ـ الى وجهي ! .. وقد كان حنقي عليهم من اجل هذا احد الاسباب التي جعلتني اترك الجيش عند نهاية الحرب كي اعود الى الحياة المدنية »

وسكت قليلا ، ثم استأنف كلامه فقال : « اما السبب الرئيسي الذي دفعني الى اتخاذ تلك الخطوة فقد يكون اولى بتقديرك .. ذلك انني انا نفسي صرت انظر الى بطولتي المزعومة نظرة تشكك ، فقد كنت اعرف الناس بأن الرجل الذي ظفر بهذا الوسام ابعد ما يكون عن استحقاق لقب البطل ! .. بل لعله يستحق عكسه تماما . انني لم اكن غير واحد من اولئك الذين هرعوا الى الحرب كي ينجوا بأنفسهم من موقف تعس وهكذا بدت لي حياتي وسط « هالة من المجد »

حياة غير طبيعية ولا تكاد تطاق ، حتى لقد تنفست الصعداء حين اعفيت من ان اسير في الطريق حاملا دليل بطولتي محفورا على سترتي الرسمية ! .. لا يزال يضايقني الى اليوم ان ينبش الناس ماضي المجيد ، فيرمقونني بتلك النظرة المفعمة خشوعا واعجابا ، كما رمقتني حين اشار صديقك الي بالامس .. انك لا تستطيع تصور مبلغ الحنق الذي تملكني انذاك ، حتى لقد فكرت في ان اجبرك على ان تسمع من شفتي مدى العذاب الذي تكبدته وفداحة الضريبة التي دفعتها ثمنا لتلك البطولة المزعومة ! .. انها قصة غريبة للغاية ، تظهر كيف ان الشجاعة كثيرا ما

تكون ضعفا وجبنا ! .. وليس يضيرني ان اقصها عليك الان فان الجرح الذي يرجع تاريخه الى ربع قرن مضى لا يعود ملمسه حساسا .. فهل لديك الوقت ؟ .. وهل لا يضجرك الامر ؟ »

وقد كان لدي الوقت والصبر .. فمضينا نذرع الشوارع ، التي بدت مهجورة في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وصاحبي ماض في سرد قصته هذه .. ولست في حاجة الى القول بأنها استغرقت اكثر من حديث واحد .. كما تغنيني فطنة القارىء عن الاشارة الى انني لم ادخل

عليها غير بضع تغييرات تافهة اقتضتها ضرورة اخفاء شخصيات ابطالها ومعالم الامكنة التي جرت فيها وقائعه .. اما فيما عدا ذلك فلست انا ، بل بطل القصة الفعلي ، الذي يرويها فيما يلي :

ستيفان زفايج



تعارف

بدأ الامر كله بهفوة من جانبي ، سقطة خرقاء غير مقصودة .. ثم تلت تلك محاولة لاعادة الامور الى نصابها . لكنك لو حاولت ان تصلح ساعتك في عجلة زائدة فانك خليق ان تزيد حالها اضطرابا وفسادا .. واني حتى اليوم ، وقد انقضى على الامر اعوام ، مازلت عاجزا عن ان اقرر جازما متى واين كان الحد الفاصل بين حماقتي غير المقصودة وفعلتي الاثمة .. واغلب ظني انني لن اهتدي قط الى يقين يخلصني من حيرتي هذه !

كنت وقتئذ في الخامسة والعشرين من عمري ، اعمل ضابطا برتبة « ملازم ثان » في فرقة (...) بجيش الامبراطور . ولست ازعم انني كنت يوما شغوفا بالجندية او مؤمنا بأنها مستقبلي المرسوم ، ولكنك حين تكون واحدا من اربعة اولاد ذوي شهية ضارية ، وبنتين في اسرة ضابط نمسوي لا يملك ما يكاد يقوم بأودهم ، فانك لن تلوم اباك اذا لم يعبأ كثيرا بنوع المهنة التي يختارها لك ، فألقى بك الى اية مهنة تخلصه من الانفاق عليك ! .. وهكذا اختار ابي لاخي الاكبر ، الذي كان ضعيف البصر ، مدرسة اللاهوت .. بينما قذف بي ، انا القوي الى الكلية الحربية ، حيث تتكفل الدولة بكل شيء لمدة سنوات ، حتى تخرج الفتى المراهق ضابطا ذا شارب وقور ثم تسلمه الجيش « معدا للاستعمال »

وهكذا جاء اليوم الذي تخرجت فيه في الكلية ــ وكان يوم عيد ميلاد الامبراطور ، كما جرت التقاليد ــ ولم اكن قد اكملت بعد عامي الثامن عشر .. وبعد فترة وجيزة لمعت على سترتي النجمه الاولى وصار لي مرتب كما ان لي رتبة !

* * *

وفي نوفمبر من عام ١٩١٣ ـ الذي تبدأ فيه حوادث هذه القصة ـ صدر الامر بانتقال فرقتنا من بلدة « ياروسلو » الى بلدة صغيرة اخرى على الحدود الهنغارية ، لا يهم نكر اسمها ، فان الزرين في السترة الواحدة لا يمكن ان يتشابها اكثر من تشابه قرى الريف النمسوي التي تعسكر فيها فرقة الجيش الواحدة بالاخرى .. ففي كل منها ما في الاخرى من مؤسسات عسكرية وثكنات للجنود ، ومدرسة للفروسية ، وساحة للاستعراض ، ومطعم للضباط ، يضاف الى نلك ثلاثة فنادق ، ومقهيان ، وحانوت للحلوى ، وحانة للخمر ، وصالة موسيقى قذرة فيها بضع نسوة رخيصات يقسمن انفسهن بالعدل والقسطاس بين رواد الصالة من الضباط والمدنيين . وأينما حل العسكريون في معسكرات الاقاليم تكون حياتهم نهبا للملل والسأمة والتشابه الرتيب ، سواء في اوقات عملهم او فراغهم ، ففي « ميس » الضباط تجد الوجوه نفسها ، والاحاديث نفسها ! .. وفي المقهى تجد العاب الورق والبليارد وما اليها . هي هي في كل حين !

على ان القرية التي عسكرنا فيها هذه المرة كانت تمتاز عن سابقتها بميزة كبيرة هي وقوف القطارات السريعة بمحطتها الصغيرة القريبة من فينا ومن بودابست في وقت واحد ، بحيث يستطيع كل من يملك ـ مالا وما اكثر ابناء الاغنياء في سلاح الفرسان ـ ان يستقل قطار الساعة الخامسة مساء الى فينا ثم يعود في قطار الثانية صباحا وهي فترة تكفي لان يذهب الى المسرح او يتسكع في حي « رنجستراس » او يستمتع باحدى مغامرات الهوى العابر ! . بل ان بعض الزملاء كان له حظ استئجار مسكن دائم في العاصمة لمثل هذه الاغراض ! .

على ان هذه الرحلات المروحة عن النفس كانت فوق طاقة ايرادي الشهري ، لسوء الحظ ، فلم يكن في استطاعتي غير ارتياد المقهى او حانوت الحلواني ولعب البلياردو او الالعاب الارخص منها كالشطرنج .. اما العاب الورق فكانت باهظة التكاليف ، فلم يكن لي بد من تجنبها !

وفي ذات مساء ـ حوالي منتصف مايو سنة ١٩١٤ ـ كنت جالسا في حانوت الحلوى مع صيدلي القرية ونائب العمدة وكنا قد فرغنا من مبارياتنا الثلاث التقليدية في الشطرنج واخذنا نتجاذب اطراف الحديث . لكن حديثنا كان قد بدأ يفتر ويتباعد ، كما يتضاءل عقب السيجارة !

وفجأة فتح الباب وبلفت منه لفحة هواء اعقبتها فتاة جميلة سمراء ذات عينين لوزيتين ترتدي ثوبا انيقا لا يدع مجالا للشك في انها من غير سكان الاقاليم !

كانت « وجها جديدا » بالنسبة لنا في نلك المنفى اللعين لكنها لم تتعطف علينا بنظرة حين رفعنا اعيننا نحوها في اعجاب ورهبة وانما سارت في خطا رشيقة عبر الموائد متوجهة رأسا الى صاحب المحل . وهناك راحت توصي على كميات كبيرة من اصناف الحلوى وزجاجات « الليكير » والمشروبات الفاتحة للشهية .. وادهشتني الطريقة التي انحنى بها الرجل تأدبا

واحتراما ، فضلا عن نهوض زوجته من مقعدها خلف الخزانة ومسارعتها اليها لتتلقى توصياتها وهي تكاد تذوب توقيرا .. وطبعا لم تحمل الشابة الفاتنة يديها الجميلتين شيئا من المشروبات ، ولا دار بخاطرها ان تدفع الثمن نقدا كما يفعل امثالنا .. فأدركنا توا انها ولا شك عميلة ممتازة رفيعة المقام !

وحين همت بالانصراف ، خف « هر جروسماير » ليفتح لها الباب ، كما نهض صديقي الصيدلي وانحنى تحية لها وهي مارة بنا ، فردت له التحية في جلال فاتن !

يالله ! .. ما اجمل رقعتي القطيفة السمراء المدعوتين عينيها !

وانتظرت في صبر نافذ حتى خرجت محملة بتحيات الوداع المعسولة ، ثم انهلت على صاحبي الصيدلي استفسارا عن هذه « البجعة » الممتازة في بركة « البط » التي نعيش فيها ، فهتف بي قائلا في دهشة « اتعني انك لا تعرفها ؟ . انها ابنة اخت الهرفون كيكسفالفا .. انت تعرف طبعا اسرة كيكسفالفا .. ؟ »

وقد القى الي بالاسم وكأنه يلقي قطعة نقود ذات رنين فضي أو ذهبي ، متوقعا ان اجيبه بالايجاب .. فلما ذكرت له انني حديث عهد بالنقل الى البلدة ، اندفع يفيض في امدادي بالمعلومات عن الاسرة الكبيرة صاحبة ذلك الاسم المرموق فقال :

ان الهر كيكسفالفا اغنى رجل في المنطقة ، ويكاد يمتلك كل شيء فيها ! .. وهو الى جانب ضيعته الواسعة وقصره الاصفر الشامخ ذي البرج المسطح والحديقة الغناء ، يملك مصنعا ضخما للسكر ، ومطحنا للغلال ، ومزرعة لتربية الجياد ، وهذا عدا ما يملك من المباني الضخمة في كل من فينا وبودابست ! .. وهو يعيش في الشتاء في قصر آخر له في العاصمة ، ويقضي اشهر الصيف متنقلا بين مدن المياه المعدنية والشواطىء المختلفة .. اما قصره الريفي هنا فلا يفتح في غير اشهر الربيع المعدودة .. وحدث ولا حرج عن المعيشة المترفة الفاخرة التي يحياها .. انه ــ باختصار ــ ينعم بأحسن شيء في كل شيء !

ثم اضاف محدثي الصيدلي الى ذلك انه ــ بحكم مهنته ــ على صلة طيبة بهذا الثري الكبير ، وفي استطاعته ــ بكلمة واحدة منه ــ ان يجعلني اتلقى من الرجل دعوة الى احدى سهراته ، ولا سيما ان (الهر كيكسفالفا) يرحب دائما باستقبال الضباط في بيته !

وتلقيت هذا العرض مغتبطا شاكرا ، ولا عجب في ذلك فان الاشهر القليلة التي قضيتها في تلك القرية ، كانت كافية للالمام بكل ملاهيها المهدودة ، ولرؤية جميع نسائها اللاتي يتنزهن في الطرقات حتى لقد كدنا نعرف ثياب كل واحدة منهن وقبعاتها المختارة للصيف والشتاء ، بل كدنا نعرف كلابهن ، وخادماتهن ، وأطفالهن ! .. هذا الى تبرمنا جميعا بألوان الطعام التي يعدها في الميس طاهيه البوهيمي البدين ، والى تشابه الالوان التي تقدم بالفندق ، وحفظنا عن ظهر قلب اشكال واجهات العرض في كل متجر ، في كل شارع . وشكل كل مبنى من مباني البلدة التي لا تزيد على ستمائة بيت أو سبعمائة ! .

وعدا ذلك كله كان كل منا قد عرف على وجه الدقة ــ مثله مثل (يوجين) رئيس السقاة ــ في اي موعد يحضر كل واحد من رواد المقهى الدائمين ، وعلى اي مقعد يجلس واي شراب يطلب .. كما خبر كل وجه ، وكل جواد ، وكل حوذي ، وكل متسول ، في المنطقة كلها .. بل لقد خبر كل منا نفسه حتى ملها وسئمها ! ..فلم لا أفر من هذه الطاحونة الرهيبة ولو مرة ؟

ثم هناك تلك الفتاة الجميلة ذات العينين اللتين تشبهان القطيفة السمراء !
ومن ثم قلت لمحدثي ــ في فتور متكلف ! « انه يكون من دواعي سروري ان اتعرف الى اسرة كيكسفالفا ! »

ولم ينقض يومان حتى انجز صاحبي الصيدلي وعده ، فأعطاني بطاقة دعوة مطبوعة كتب عليها اسمي بخط دقيق انيق ، وكتب تحته بالخط نفسه « الهر لايوس فون كيكسفالفا يلتمس متعة رفقة الملازم الثاني الهر أنطون هوفميلر على مائدة العشاء في الساعة الثامنة من مساء الاربعاء القادم »

ولما لم اكن جاهلا ــ والحمد لله ــ بآداب اللياقة .. فقد توجهت في صبيحة يوم الاحد ، في أبهى حلة وانظف مظهر ، كي اؤدي لمضيفي زيارة التعارف التقليدية .. وناولت رئيس الخدم هناك بطاقتي ، فتناولها في ادب واحترام ، ثم غمغم قائلا :

ــ ان الاسرة كلها سيكون اسفها شديدا على انها لم تحظ باستقبالِ (سيدي الملازم) فان افرادها جميعا ذهبوا الى الكنيسة !
وهكذا عدت من هناك وانا اغبط نفسي على خلاصي من حرج الزيارة الاولى التقليدية .. !
ذهبت الى المعسكر في صبيحة يوم الثلاثاء ، فوجدت في انتظاري بطاقة معقوفة الطرف تركها لي (الهر فون كيكسفالفا) ردا لزيارتي .. فسرني هذا الاهتمام الذي ما كان ليلقاه من مثله « جنرال » في الجيش ــ لا ملازم ثان ! ــ وبدأت اتطلع الى سهرة الاربعاء المرموقة في لهفة شديدة اخذت تزداد من ساعة لاخرى !

على ان القدر القاسي بدأ يناوشني منذ البداية ! . ففي منتصف الساعة الثامنة من مساء الليلة الموعودة كنت قد اكملت ارتداء افخر ما عندي من ثياب ، بعد ان عنيت عناية مضاعفة بحلاقة ذقني وامرت « المراسلة » بتلميع حذائي ، وسكبت بضع قطرات من ماء الكولونيا على شاربي ، وارتديت بنطلونا مكويا كحد الموسى ، .. وفجأة طرق باب حجرتي احد الجنود ، ثم دخل مضطربا لينبئني بأن صديقي الضابط النوبتجي يلتمس مني ان اهرع لنجدته ، فقد تشاجر ضابطان ثملان وضرب احدهما الاخر بقبضة البندقية على رأسه فألقاه على الارض مغشيا عليه والدم ينزف من فمه المفتوح . ولما كان طبيب المعسكر متغيبا ، وكذلك قائد الفرقة ، فان صديقي المسكين ــ لعنة الله عليه ــ يطلب مني معاونته في الخلاص من المأزق والعثور على طبيب من المدنيين في اسرع وقت ممكن لاسعاف المصاب !

ونظرت في الساعة فاذا بموعد الحفلة لم يبق عليه الا ربع ساعة ! . وادركت استحالة وصولي الى قصر مضيفي في الموعد المحدد اذا تأخرت عن الخروج خلال خمس دقائق ! . لكني في الوقت نفسه ادركت ان الواجب ، المتغلغل في عروقنا نحن العسكريين ، يأتي في المرتبة الاولى قبل اي التزام شخصي .. ومن ثم لم يسعني الا ان التمس المخرج الوحيد من مثل هذا المأزق السمج ، فأرسلت جندي المراسلة في سيارة استأجرتها بأربعة ريالات ، كي يعتذر لمضيفي من اضطراري الى التأخر عن الموعد قليلا . لظرف طارىء خطير !

وعددت من حسن حظي بعد ذلك ان استطعت نفض يدي من المهمة التي عاقتني بعد دقائق معدودات ، على اثر وصول الطبيب وقائد المعسكر على غير انتظار ، لكني فوجئت بعقبة اخرى جديدة ، اذ لم اجد سيارة في الموقف القريب ، فاضطررت الى طلب عربة بالتليفون ! وهكذا وصلت اخيرا امام بوابة القصر الرائعة وقد بلغت الساعة منتصف التاسعة تماما ، ورايت حجرة المعاطف وقد اكتظت بمحتوياتها

وقادني الى صالون القصر الكبير خادم انيق وقور يرتدي سترة رسمية ويداه في قفاز ابيض . وكانت قاعة هذا الصالون غاية في الفخامة وحسن الرواء ، ولها أربع نوافذ كبيرة اسدلت عليها ستائر من الحرير الاحمر ، وتوهجت في سقفها واركانها الثريات البللورية الثمينة ! .. وقد تبينت في قلق واضطراب ان القاعة خالية تماما من الضيوف ، ووصلت الى سمعي اصوات الاطباق وادوات المائدة منبعثة من القاعة المجاورة .. قاعة الطعام !

ومضى الخادم ففتح الباب الداخلي المؤدي الى هذه القاعة الاخرى ، فحزمت شجاعتي وبلغت الى عتبتها ، حيث طرقت الارض بكعبي وانحنيت محييا . وسرعان ما صوبت الى وجهي عشرات من العيون ، وكلها غريبة علي تتساءل من يكون القادم المتأخر ، الذي تسمرت قدماه على عتبة الباب !

ثم نهض سيد متقدم في السن ، رجحت انه صاحب الدار ، فألقى منشفته على عجل وهرع نحوي مادا يديه الي في ترحيب بالغ !

وصدمني ان اراه على غير الصورة التي توقعتها . فبدلا من ان يكون بدينا مستدير الوجه مفتول الشارب ، تبين عليه نعمة الثراء والعشرة المترفة ، ألفيته نحيلا محنى الظهر قليلا ، متعب العينين ، يضع على عينيه نظارة ذهبية الاطار وفي صوته بحة متخلفة من سعال ، وله لحية بيضاء هزيلة توحي لمن يراه ، بالاضافة الى قسماته المرهفة ، انه امام استاذ في جامعة !

واذا شرعت في تكرار اعتذاري قاطعني الشيخ النبيل مؤكدا تقديره لعذري ، شاكرا لي عناء ارسال رسول خاص يوضح ذلك العذر .. ثم اردف قائلا :

ـ سوف يسعدني ان اقدم السيد لكل من حضرات الضيوف على حدة بعد العشاء ، لكن ابنتي سيسعدها كما يسعدني ان اقدمك لها الان بلا ابطاء !

ثم قادني اليها ، فرأيت فتاة دون العشرين ، شاحبة مرهفة واهنة الجسم مثله ترفع الى

عينيها الغبراوين في خجل .. فانحنيت محييا اياها تحية خاصة اعقبتها بتحية سريعة شاملة للمدعوين جميعا .. ثم جلست في المقعد الذي قدم لي

وخلال الدقائق الثلاث الاولى ، كان شعوري بالحرج مازال يلازمني ! . لم يكن حولي شخص واحد من زملائي في الفرقة ، او ضابط واحد في الجيش او اي انسان اعرفه من اهل البلدة او غيرهم ! وانما كانت جميع الوجوه غريبة علي ولم يكن بينهم غيري ممن يرتدي سترة رسمية !

يا الهي ! .. كيف استطيع انا الخجول ان اتحدث الى كل هؤلاء الغرباء ؟

وتلفت الى يميني ، فاذا بالجالسة الى جواري هي تلك الحسناء الرائعة ابنة اخت مضيفي ! .. ويبدو انها لاحظت نظرة الاعجاب التي رمقتها بها في حانوت الحلواني قبل ايام ، فقد ابتسمت لي ابتسامة ودية كما لو كانت تعرفني من زمن . كانت عيناها مثل حبات البن ، وحين تضحك كانتا كأنما تحدثان صوت البن أثناء « تحميصه » على النار ! .. وكانت لها اثنان صغيرتان تكادان تكونان شفافتين ، تختبئان تحت ثروة كبيرة من الشعر الفاحم الغزير ، ولها ذراعان عاريتان خيل الي ان ملمسهما لابد يشبه ملمس الخوخ المقشور !

كان جميلا ان أجلس بجانب مثل هذه الحسناء ، ولا سيما انها كانت تتحدث بلهجة هنغارية ناعمة .. كما كان جميلا أن اتناول العشاء في قاعة تتألق انوارها الباهرة ، حول مائدة حافلة بأطيب الطعام وافخره ، وقد وقف ورائي ساق خاص يخف الي عند اول اشارة ! .

حتى جارتي الاخرى التي تجلس الى يساري ، وكانت تتكلم بلهجة بولندية ، لم تكن تنقصها الفتنة ! . ام لعل الخمر هي التي اوحت الي بذلك ؟ النبيذ الدموي القاتم والشمبانيا الذهبية البراقة التي كان السقاة ذوو القفازات البيضاء يصبونها في سخاء عجيب من ابريق فضية جميلة

حقا ! . ان صديقي الصيدلي الطيب لم يكن يهذي حين قال لي ان الـ « كيكسفالفا » يعيشون عيشة الامراء !

وبعد انتهاء الطعام الذي بدا كأنه بلا نهاية سال في الكؤوس « قوس قزح » من المشروبات الخفيفة « الليكير » : خضراء ، وحمراء ، وبيضاء ، وصفراء .. وأعقبها السيجار السميك الفاخر ، ثم القهوة الشهية !

* * *

وتولاني انشراح عجيب ، لم ادر أكانت علته ان الاخرين ، الذين الى يميني ويساري وامامي ، قد بدت عيونهم ملتمعة ببريق النشوه ، وارتفعت اصواتهم في الحديث ، وطرحوا الوقار جانبا ، كما القوا بالتحفظ الى الرياح الاربع واخذوا يصخبون بملء حريتهم ؟

على اية حال وجدت حيائي الفطري قد تبخر ، فشاركت في الصخب دون ادنى اجفال .

وبدأت أتودد الى كل من جارتي الجميلتين ، في نشاط لا يعادله غير نشاطي في الشرب والضحك !

ثم اخذت انظر حولي بعينين طائشتين نزقتين ، وبرغم ان المصادفة وحدها قد تكون المسؤولة عن احتكاك يدي في خفة ــ بين الحين والحين ــ بذراع « اليونا » العارية الرائعة (فقد كان هذا اسم ابنة الاخت الحسناء الشهية) فانها لم تبد أية بادرة من بوادر الاستياء او الضيق .. بل تركت هي الاخرى نفسها على سجيتها فتحررت مثلنا جميعا من أكثر القيود ! ..

واثر تتابع المشروبات الجيدة المعتقة في جوفي فأحسست ــ تدريجيا ــ شيئا من الخفة يكاد يغريني بالاندفاع والصخب لتكتمل نشوتي وشعرت كذلك بالحنين الى شيء لم ادر على التحقيق ما هو ، ثم فتحت الابواب المؤدية الى قاعة ثالثة خلف الصالون ، فانسابت الينا موسيقى ناعمة ، ذات الموسيقى التي كان يتوق اليها قلبي ، ويتحرق كياني شوقا اليها .. موسيقى رقصة الفالس السماوية ، تشارك في عزفها الكمان والبيان !

ونهضنا عائدين الى الصالون ، ازواجا ازواجا ، فأعطيت « اليونا » ذراعي ومرة اخرى احسست ببشرتها الباردة الناعمة المثيرة ، ووجدنا القاعة قد اخليت من مناضدها فبدا خشب الارض « الباركيه » الناعم كالمرآة المجلوة يدعو الى الرقص ويغري به ، فالتفت الى (اليونا) ، فضحكت ، وقرأت في عينيها انها موافقة على الرقص معي . وسرعان ما كنا نطير في الهواء دائرين حول انفسنا في حلقات واسعة ، ثم تكاثر الراقصون تدريجيا ، بينما جلس الشيوخ والمتحفظون يتفرجون ويثرثرون

وكنت اعشق الرقص واتقنه ، لكنني لم ارقص من قبل بمثل البراعة التي ابديتها في تلك الليلة ! .. وفي الرقصة التالية شاركت جارتي الثانية ، فانتشت حواسي وانا منحن عليها اتنفس عطر شعرها ، وشعرت بسعادة لم اتذوقها منذ سنوات ، وازددت احساسا بشبابي ، ثم استخفني ميل قوي الى ان اقبل كل شخص حولي ، ومضيت اراقص الحاضرات واحدة بعد اخرى وثرثرت ، وضحكت وفقدت كل احساسي بالزمن !



سقطــة خــرقاء

وفجأة حانت مني نظرة الى الساعة ، فاذا هي العاشرة والنصف ، فأدركت انه قد انقضت علي ساعة وانا ارقص وامزح وأضحك ، دون ان أدعو ابنة مضيفي للرقص ، واخذتني الحيرة ولم ادر كيف فاتني هذا الواجب الذي تفرضه اللياقة ، ثم درت ببصري باحثا عنها بين الحاضرات لاصلاح الامر ! ولكني تذكرت اني لا اكاد اعرفها ، فكل ما انكره عنها من النظرة الخاطفة التي رمقتها بها حين قدمني اليها والدها على المائدة ، انها شاحبة الوجه نحيلة الجسم ، ذات عينين غبراوين ! . ولم اجد الفرصة الكافية للتحديق في كل واحدة من عشرات المدعوات ، وهكذا كدت ايأس من تمييز فتاتي المنشودة .. وأخيرا خطر لي ان اتجه الى القاعة الثالثة ، حيث كانت جوقة الموسيقى تعزف من وراء ستارة من الطراز الصيني . وما كدت ادخل هذه القاعة حتى تنفست الصعداء ، فقد وجدتها هناك بقوامها المرهف النحيل وثوبها الازرق الفاتح ، جالسة بين سيدتين عجوزين ، ووراء منضدة خضراء عليها آنية مليئة بالازهار .. وكان رأسها منحنيا قليلا كأنما هي تصغي بجماع روحها الى الموسيقى !

ولم اضيع وقتا في التأمل ، بل اتجهت رأسا الى حيث تجلس وانحنيت لها في تأدب انحناءة الدعوة الى الرقص ، فرفعت الي عينين اختلطت فيهما الدهشة بشيء من الذعر ، وظلت شفتاها منفرجتين قليلا كمن قطع الاستغراب حديثها ، لكنها لم تبد ادنى حركة تنم عن تأهبها لان تتبعني الى حلبة الرقص ! .. ومن ثم انحنيت لها مرة اخرى وقلت لها : « هل لك ان تمنحيني شرف هذه الرقصة يا آنسة ؟ »

وكان جوابها مروعا حقا ! فسرعان ما ارتد رأسها مع كتفيها الى الخلف في عنف وذعر ، كأنها تتجنب صدمة واندفع الدم الى وجنتيها الشاحبتين ، وتلاصقت شفتاها في قوة وحدة ..

ولم يبق بلا حراك في وجهها غير عينيها اللتين ارتسمت فيهما نظرة رعب لم اصادفها من قبل في حياتي !

وفي اللحظة التالية هزت جسمها المنفعل قشعريرة قوية ، وبكلتا يديها اتكأت على المنضدة وزفعت نفسها بقوة جعلت انية الزهر تهتز في مكانها بشدة ، في الوقت الذي سقط فيه من مقعدها على الارض شيء صلب ـ من الخشب او المعدن ـ محدثا في ارتطامه بالارض صوتا قويا .. وظلت متعلقة بالمنضدة المتأرجحة على هذا الوضع نحو نصف دقيقة ، وجسدها يهتز وينتفض بشدة من أخمص قدميها الى جذور شعرها من فرط المجهود اليائس الجبار الذي بذلته .. وفجأة انفجرت تنشج باكية في حرقة ضارية بهيمية !

وكانت المرأتان المسنتان قد أحاطتا بها تحتضنان جسمها المرتعش ويدللانها محاولتين تهدئتها ونزع يديها ، المتشبثتين بالمنضدة ، في رفق .. حتى سقطت بين ايديهما وغاصت في مقعدها من جديد لكن بكاءها استمر بل ازداد حدة في نوباته المتقطعة الشبيهة بنزيف من الدم او نوبة قيء شديد ، بحيث لو توقفت الموسيقى لحظة لبلغ صوت النشيج مسامع الراقصين !

ووقفت في مكاني مشدوها ، ورحت اسائل نفسي : ترى ماذا حدث ؟ ! ونظرت في قلق وحيرة الى المرأتين ، والى الفتاة الباكية التي ما زالت تبكي مخفية وجهها بين يديها فوق المنضدة ، وجسمها يهتز فيهز معه آنية الزهر ، مما زاد في قلقي واحسست في اطرافي برودة كالثلج وخنقتني ياقة قميصي كما لو كانت حبلا محرقا يلهب رقبتي .. وأخيرا وجدت صوتي لاقول متلعثما : « أرجو المعذرة !» . ثم انسحبت متعثرا الى الصالون !

وكان الرقص محتدما فيه كما كان ، وقد بدا ان احدا لم يلحظ شيئا مما حدث ، فانزويت في ركن اسائل نفسي في حيرة : « هل ارتكبت حماقة ما ؟ ! لابد اني ثملت بحيث فعلت شيئا رهيبا دون ان اشعر ! » ولم يكد الرقص يتوقف وتنفصل (اليونا) عن مراقصها حتى جذبتها من ذراعها في شيء من الخشونة الى ركن قصي وانا اهتف بها : « بربك ساعديني .. اناشدك .. اوضحي لي ! » .. وتدافعت نبضات قلبي وانا اروي لها القصة بحذافيرها .. وشد ما اذهلني ان ارتسم في عينيها مثل الذعر الذي رأيته في حدقتي ابنة خالها ، ثم صاحت بي قائلة :

ـ هل جننت ؟ .. الا تعلم ؟ . الم ترها ؟ .

فقلت لها وقد غاص قلبي جزعا من نظرتها :

ـ كلا ! .. لم ار شيئا ، ولست افهم شيئا .. انها اول مرة ادخل فيها هذا البيت .

فقالت : « الم تلحظ ان (اديث) كسيحة ؟ اما رأيت ساقيها المشلولتين العاجزتين ؟ انها لا تستطيع ان تخطو خطوتين بغير عكازيها ! . وانت .. أنت تذهب فتدعو الطفلة المسكينة الى ترقص ! أ[illegible] ! .. هذا فظيع ! يجب ان اذهب اليها من فوري ! »

وا[illegible]كت اليو[illegible] عن [illegible] ما وقلت لها في توسل :

ـ على رسلك هنيهة ، ارجو ان تحملي اليها اعتذاري . لم يكن في وسعي ان اعرف .. لم ارها الا لحظة واحدة اثناء العشاء ! .. ارجو ان توضحي الامر لها ! .

لكن اليونا انتزعت ذراعها من يدي غاضبة وهرعت الى القاعة المجاورة ، فوقفت على عتبة الصالون الذي يموج بالصخب وقد بدا لي في تلك اللحظة سمجا لا يحتمل ، وجعلت احدث نفسي وقد غص حلقي وجف لعابي : « لن تنقضي خمس دقائق حتى يعرف الجميع امر هفوتي الشنعاء ، وحينئذ يغمرونني بنظرات الازدراء والسخرية .. وغدا تصبح غلطتي موضوع احاديث اهل البلدة جميعا ، طعاما سما لمئات الالسنة الخبيثة يوزع على الابواب مع لبن الصباح ! .. وغدا تعرف الفرقة بأسرها قصتي ! »

وفي تلك اللحظة لمحت والد الفتاة مقبلا ، فاشتد خفقان قلبي ، وساءلت نفسي حائرا قلقا : « ترى هل علم بما حدث ! ؟ وهل هو مقبل نحوي ؟ .. كل شيء اهون عندي من ان القاه ! »

وتملكني بغتة خوف قاتل منه ومن الحاضرين جميعا ! .. ودون ان اعرف ما أنا فاعل مضيت متعثرا نحو الباب المؤدي الى البهو ، ومنه الى خارج البيت الذي تحول في نظري الى قطعة من الجحيم !

وسألني حارس الباب مستغربا ، في لهجة تنطوي على الاحترام « هل يزمع سيدي الملازم ان يغادرنا هكذا مبكرا ؟ »

فأجبته من فوري : « نعم » .. لكن الكلمة لم تكد تخرج من فمي ، ويتأهب الرجل لمعاونتي على ارتداء معطفي ، حتى ادركت بوضوح انني ارتكب بالفرار على هذه الصورة المنطوية على الجبن حماقة جديدة لا تغتفر !

على اني لم استطع التراجع وقد فات اوانه ، ولم يسعني والحارس يفتح لي الباب ان اكر راجعا واعيد اليه المعطف ثم اعود الى الصالون ؟

وهكذا وجدت نفسي فجأة واقفا خارج تلك البيت اللعين ، تسفع الريح الباردة وجهي ، ويحرق الخجل قلبي ، وانفاسي اللاهثة تتردد متقطعة بصعوبة كأني اوشك ان اختنق ! .. تلك هي السقطة الخرقاء التي كانت بداية الامر كله !

والان ، حين اعود بنظري الى الوراء ، في هدوء الذكرى البعيدة التي مرت عليها اعوام طويلة ، واستعرض الحادث البسيط الذي ادى الى سلسلة من الاحداث المفجعة ، لا املك غير ان اقرر ـ انصافا لنفسي ـ انني كنت بريئا كل البراءة من مسؤولية تلك الحادث .. ان اذكى البشر ما كان له في مثل موقفي ان يتفادى دعوة الفتاة الى الرقص ، ما دام لا يعلم انها مشلولة ، لكنني في غمرة الفزع الاولى عددت نفسي احمق متهورا ، بل وغدا مجرما ! شعرت كما لو كنت قد جلدت طفلا بريئا بسوط !

ولا شك ان الامر كله كان يمكن ان يعالج بشيء من حضور البديهة اما ان افر من المكان كالمجرم الجبان دون ان احاول الاعتذار او الاعراب عن اسفي ، فهذا ما افسد الامر كله .. وقد

تبينت ذلك بوضوح في اللحظة التي وطئت فيها قدماي ارض الطريق ولفح الهواء البارد وجهي !

لست استطيع ان اصف حالتي النفسية وانا واقف خارج الدار . كانت الموسيقى وراء النوافذ المضاءة قد توقفت ، كي يأخذ العازفون قسطا من الراحة دون شك ، لكنني من فرط شعوري المحموم بأثمي حسبت ان الرقص قد توقف بسببي ، تصورت ان المدعوين جميعا قد تقاطروا الى حيث جلست الفتاة الباكية كي يخففوا عنها مصابها ، وراحوا يستمطرون اللعنات على الفاجر الاثيم الذي دعا هناة كسيحة الى الرقص ثم انسحب عقب فعلته الشنعاء في جبن ونذالة ! .. وكان هذا التصور وحده كافيا لتصبب العرق البارد من جبيني ! ولم اشك في ان فضيحتي هذه ستصبح موضع تندر اهل البلدة جميعا ، ولن تتعب ألسنة زملائي في الجيش من ان تلوك سيرة زميل لهم متى سمعوا بسقطته الطريفة هذه .

وليس في وسعي ان اتذكر الان كيف بلغت مخدعي في تلك الليلة ! . وكل ما اذكره انني ما كدت ادخله حتى هجمت على خزانة كنت احتفظ فيها بزجاجة من الكونياك لاقدم منها لمن يزورونني من الاصدقاء فتجرعت اكثر من نصفها جرعة بعد جرعة ، بغية التخلص من شعور الغثيان الفظيع الذي كنت احسه ... ثم ارتميت على الفراش بثياب كاملة ، ورحت استرجع الامر كله في ذهني ! ..

وكما تنمو الازهار نموا سريعا حين توضع في منابت من الزجاج ، كذلك تزدهر الافكار الضارية المجنونة في الظلام ! .. ومن ثم اخذت تطوف بذهني المكدود أغرب الرؤى والخيالات فيما يشبه الحلم المخيف او الهذيان السخيف ! .. وتتابعت على مخيلتي احداث المستقبل المتوقعة : التحقير مدى الحياة ، والنبذ من المجتمع ، والسخرية من الزملاء ، والثرثرة من اهل البلدة .. وهكذا لن استطيع الخروج الى الطريق خشية الالتقاء بأحد الذين يعرفون بجريمتي !

وحين دهمني النوم اخيرا ، كان نوما خفيفا متقطعا تتخلله الرؤى المفزعة ، ولم اكد افيق منها حتى عاودتني صورة الوجه الصبياني الباكي ، والشفتين المختلجتين ، واليدين المتشبثتين بالمنضدة في تشنج عصبي .. وخلتني اسمع صدى سقوط ذلك الشيء الصلب على الارض ، الشيء الذي ادركت فيما بعد انه عكاز الفتاة .. وتملكني رعب جنوني من ان يفتح باب فجأة ويدخل منه رجل نحيل طويل بسترة سوداء ونظارة باطار مذهب هو والد الفتاة ! .. فقفزت من فراشي فزعا .. واذ نظرت الى نفسي في المرآة ، ورأيت عرق النوم والخوف على وجهي ، راودتني رغبة ضارية في ان احطم ذلك الوجه الغبي الاحمق !

لكن النهار الرحيم طلع اخيرا .. وبدأ صدى الخطا العسكرية يتردد في الممر .. وحين يشرق ضوء النهار من نافذتك تصفو افكارك اكثر منها وانت غارق في الظلمة الخبيثة التي يلذ لها ان تخلق لك الاشباح .. فوجدتني اهون على نفسي وقع الحادث : من يدري ، ربما لم يتنبه اليه أحد ! لكنها هي تلك المخلوقة البائسة الكسيحة ، انها حتما لن تنساه ، ولن تصفح يوما ! ..

وفجأة برق في ذهني خاطر فيه شيء من العزاء ، فسارعت الى اصلاح هندامي وتهذيب شعري واندفعت من غرفتي كالسهم المنطلق ، غير عابىء بتابعي « المراسلة » الذي راح يناديني صائحا : « سيدي الملازم .. هر لفتننت .. القهوة معدة ! »

ومضيت انهب السلالم نهبا ، واصطدم بكل من يعترض طريقي .. حتى خلفت المعسكر ورائي ورحت اعدو صوب اقرب حانوت لبيع الازهار ، غافلا عن كون هذه الحوانيت لا تفتح ابوابها في الساعة الخامسة والنصف من الصباح ! .. لكني عثرت لحسن الحظ على حانوت تبيع صاحبته الخضروات والازهار معا ، وكانت امامه عربة بطاطس قد افرغ نصفها .. فاختلقت للمرأة عذرا كاذبا يبرر عجلتي وأوصيتها باعداد سلة من أحسن ما عندها من زهور ، غير عابيء بأن ثمنها يستنفذ كل ما تبقى لي من راتبي الشهري .. بل اني وجدت لذة غامضة في ان اعاقب نفسي واكفر عن فعلتي تكفيرا غاليا ! ..

وبعد ان غادرت الحانوت وسرت مبتعدا لحقت بي المرأة لاهثة وقالت لي : « الى اين ؟ —.. الى من ترسل الازهار ؟ » . وكنت قد نسيت في غمرة انفعالي ان اذكر لها الاسم والعنوان ، فقلت لها :« الى فيلا كيكسفالفا .. الى الانسة اديث فون كيكسفالفا »

فقالت المرأة في اعتزاز : « آه .. آل كيكسفالفا .. انهم خير عملائنا ! »

وهممت بالانصراف ، لكن المرأة عادت فسألتني : « الست تريد ان تكتب كلمة الى الانسة المهدى اليها الزهور ؟ »

ودخلت الحانوت من جديد ، وأخرجت من جيبي بطاقة كتبت عليها : « مع خالص اعتذاري » . لكني مزقتها قائلا لنفسي : « كلا ! .. هذه حماقة ثالثة ، لماذا اذكر الفتاة بسقطتي الشنعاء ؟ »

ماذا اكتب اذن ؟ .. اكتب « مع الاسف الخالص ؟ » .. كلا ! .. ولا هذه ايضا .. فقد تحسبني ارثي لحالها ! .. ورأيت اخيرا الا اكتب شيئا على الاطلاق ، فقلت لبائعة الزهور :

— حسنا ! .. ضعي بطاقة باسمي فقط !

وشعرت بالارتياح .. فعدت الى المعسكر حيث احتسيت قهوتي وانهمكت في واجباتي العسكرية ، وان ظللت احس كأن قطعة من الاسفنج المغموس في المر تسد حلقي !

وعند الظهر ، وفيما انا أتهيأ للذهاب الى مطعم الضباط ، أقبل تابعي يحمل الي خطابا ... ظرفا ازرق ، تفوح منه رائحة عطر خفيف ، كتب عليه اسمي وعنواني بخط دقيق ، خط امرأة ! .. ففضضته على عجل ، وقرأت فيه : « خالص شكري ، يا عزيزي الملازم ، من اجل هدية الزهور الجميلة التي لا استحقها ، والتي اغتبطت — وما زلت مغتبطة — بها .. فأرجو ان تحضر لتناول الشاي معنا في عصر اي يوم يناسبك ، ولا تكلف نفسك كمشقة اخطارنا بموعد حضورك مقدما ، فاني — وا أسفاه — مقيمة دائما بالبيت . أديث ف . ك .

قرأت الخطاب ثانية وثالثة ثم تنفست الصعداء .. ما احصف والبق اللهجة التي بها

مسحت الفتاة على جرحي ومنحتني غفرانها ! .. وانتابني شعور المتهم الذي وطن نفسه على صدور الحكم عليه بالسجن المؤبد ، حين يفاجئه القاضي بحكم البراءة !

وكان لابد من ان ازور الفتاة في اقرب فرصة ، لاشكرها .. وكنا في يوم الخميس .. اذن فلاذهب يوم الاحد .. كلا ، بل السبت !

لم أطق صبرا على الانتظار ! .. كانت تطاردني اللهفة على الاطمئنان الى ان اثمي قد محي الى الابد ، وعلى وضع حد للقلق الذي يساورني والشك الذي يكتنف الموقف .. وكانت نتيجة هذا الانفعال النفسي انني بينما كنت اتنزه مع اعز صديقين لي في اليوم التالي ــ الجمعة ــ وجدتني اصمم فجأة على تأدية زيارتي المرموقة في اليوم نفسه .. فاستأذنت منهما على حين غرة ، ثم انطلقت في سبيلي اليها .

كانت المسافة التي تفصلني عن قصر كيكسفالفا تستغرق مسيرة نحو نصف ساعة مشيا على الاقدام .. فمضيت اغذ السير لا الوي على شيء ، وما لاحت لي اسوار القصر البيضاء وبوابته الحديدية حتى بدأت شجاعتي تتبخر تدريجيا ، فوددت لو اعود ادراجي قبل فوات فرصة الفرار .. ودوغ وعي مني اخذت ابطىء في سيري ، ثم تعمدت اطالة الطريق وافساح الفرصة بالالتفاف حول اسوار القصر من الخارج والقاء نظرة عليه من خلال الثغرات التي تتخلل السور . كان القصر صرحا منيفا من طابقين مطليا باللون الاصفر ، على الطراز النمسوي القديم ، عدا نوافذه التي جعلت اخشابها خضراء . وكان اقرب الى القصور الريفية التي رايت بعضها في اقاليم « بوهيميا » ، منه الى الفيللات العصرية !

وبلغت في طوافي بوابة الدار ، للمرة الثانية ، فحزمت شجاعتي وسرت بين صفين من الاشجار السامقة الى الباب الامامي ، ورفعت الطارق البرونزي الثقيل الذي يقوم في الدور العتيقة مقام الجرس وبعد لحظة اقبل كبير الخدم ، ولم يبد انه فوجىء بزيارتي غير المتوقعة ، بل لقد تجاهل البطاقة التي امسكتها في يدي . ودون ان يوجه الي سؤالا ما دعاني بانحناءة مؤدبة الى الانتظار في الصالون قائلا : « ان السيدات مازلن في حجراتهن ، لكنهن سيحضرن في خلال لحظات »

ثم قادني الى الداخل كما لو كانت زيارتي متوقعة !

وتذكرت في شيء من الحرج وعدم الارتياح معالم الصالون الذي قضيت فيه سهرتي الاولى المشؤومة ، وذكرتني مرارة فمي بأن الباب الذي في مواجهتي يقود الى القاعة التي كانت الفتاة تجلس في ركن منها وقت « الحادث » ! .. ولكن ايقظني من تأملاتي وذكرياتي صوت مقاعد تجر وراء الباب ، وهمسات مكتومة ، وحركة اقدام ذاهبة وآيبة تنم عن وجود بضعة اشخاص .. ثم ضجيج اطباق وادوات للمائدة .. واخيرا خيل الي ــ وقشعريرة باردة تسري في نخاعي ــ اني اسمع صوت عكازين !

ثم فتح الباب وبرزت منه اليونا ، فبادرتني قائلة : « كم هو ظريف منك ان تحضر يا هر

لفتننت ! » ثم قادتني رأسا الى الغرفة المجاورة .. وهناك في الركن نفسه ، وعلى المقعد نفسه ، وراء المائدة الخضراء بعينها ، جلست الفتاة المشلولة ، وقد غطت ساقيها بغطاء من الفراء الابيض .. وابتسمت لي ابتسامة تحية ودية ، ورغم ذلك كانت لحظة .. حرجة اليمة بالنسبة لكلينا .. ولم ينجح احدنا في ان يجد الكلمة الاولى التي تحطم الموقف الثلجي الذي اكتنفنا .. حتى قطعت « اليونا » الصمت الخانق بقولها تسألني :

ـ ماذا نقدم لك يا هر لفتننت ؟ الشاي ام القهوة ؟

ـ أوه ، اي شيء يروق لكما

ـ بل ما يروقك انت ، ولا تدع للكلفة مقاما بيننا !

ـ اذن فلتكن القهوة

كانت اليونا بارعة في ازالة حرج اللحظة الاولى بذلك السؤال العملي ، ولكن لم يكن جميلا منها ان تترك الغرفة بعد ذلك كي تأمر باعداد القهوة ، فقد ادى ذلك الى تركي وحيدا مع ضحيتي ! .. وكان لابد من ان اقول شيئا استأنف به الحديث بأي ثمن ! لكني شعرت بجفاف في حلقي وارتباك في نظرتي .. فتنفست الصعداء حين ابتدرتني مضيفتي قائلة :

ـ هلا جلست يا هر لفتننت ؟ هيا ، تناول هذا المقعد ذا الذراعين .. ولم لا تخلع سيفك .. احسبنا لن نشتبك في حرب ! .. ضعه على المنضدة او على حافة النافذة .. حيثما تشاء !

وجررت مقعدا ، وأنا لا ازال احس بقية من حرج ، انقذتني منه الفتاة مستطردة :

ـ اجد من واجبي ان اشكرك مرة اخرى من اجل ازهارك اللطيفة .. انها رائعة كما ترى .. ثم ينبغي ان اعتذر ايضا عن حماقة اجهاشي بالبكاء . كان مسلكي مخجلا حقا ، فلم استطع النوم طيلة الليل من جرائه .. لقد كنت انت حسن النية ، وما كان يمكن ان تكون لديك ادنى فكرة عن الحقيقة ! .. ثم انك ـ واطلقت ضحكة عصبية مباغتة ـ قد توصلت الى قراءة اعمق افكاري في تلك اللحظة ، فاني لم اكن اتوق الى شيء وقتئذ قدر شوقي الى المشاركة في الرقص .. انك لا تتخيل كم انا شغوفة بالرقص ، حتى اشعر كأني انا التي ترقص ، وتطير على اجنحة الانغام ! .. وقد كنت في صباي اجيد الرقص ، ولعل ما أصابني كان خيرا بالنسبة لابي ، فلولاه لفررت حتما من البيت واصبحت راقصة ! .. فليس اروع من أن تثير الفنانة المئات والالوف من الناس بجسدها ، وحركاتها ، وكيانها كله ، ليلة بعد ليلة ! .. انه مجد رائع حقا .. واني احتفظ لا عظم الراقصات ـ مثل بافلوفا ، وكارسافينا ، وساهاريه ـ بصور تمثلهن في جميع رقصاتهن .. اليك هذه الصور ، انها في الصندوق الصغير القريب من المدفأة ..لا ، لا ، الى اليسار ، بجوار الكتب .. نعم ، هنا بالضبط (وكنت قد عرفته اخيرا وحملته اليها) .. انظر هذه مثلا ، انها صورتي المفضلة : بافلوفا في دور « البجعة المحتضرة » .. آه لو استطعت ان اراها فقط ، انه يكون اسعد يوم في حياتي !

وكان الباب الذي خلفنا بسبيل ان يفتح ، فسارعت (ايث) الى اغلاق صندوق الصور

بحركة مفاجئة عنيفة ، شأن من ضبطت ترتكب جرما ! .. وهمست لي بلهجة آمرة : « ولا كلمة امام الاخرين عما حدثتك بصدده .. ولا كلمة ! » .. ثم دخل الخادم يجر عربة شاي محملة بأطيب المأكولات والحلوى ، تتبعه اليونا ، التي افرغت محتويات العربة على المنضدة ثم عادت الى مجلسها معنا .

وتشعب بيننا الحديث في موضوعات مختلفة ، ووجدتني استرد تدريجيا هدوئي واثرثر معهما على سجيتي .. بل انني استطعت ان اختلس ـ بين الحين والاخر ـ نظرات جانبية الى الفتاتين ، وأقارن برغمي بينهما . كانتا جد مختلفتين في مظهرهما : فاحداهما ـ اليونا ـ امرأة ناضجة ، ممتلئة بالحيوية المثيرة ، مكتملة الصحة والنشاط .. بينما الاخرى ـ اديث ـ تبدو الى جانبها نصف طفلة ونصف امرأة ، هي في السابعة عشرة او الثامنة عشرة ، بينها وبين النضج مرحلة طويلة ! .. كان التناقض بينهما صارخا ، يغري المرء بأن يراقص الاولى ، ويقبلها ، .. اما الاخرى فحسبه ان يلاطفها ـ بصفتها كسيحة ـ ويدللها ويحميها .. وقبل ذلك كله يصانعها ويجاريها ، فقد كانت عصبية الحركة لا تكاد تستقر على وضع كأنما تعوض بذلك جمود ساقيها ! .. وكانت ـ بأسئلتها الكثيرة ولهجتها الخفيفة ـ تركز الانتباه في شخصها دون غيرها ، وتضفي على الحديث جاذبية خاصة !

واستمرت جلستنا نحو ساعة ونصف ساعة ، ثم اطل من القاعة المجاورة شبح متلصص ، كأنما يخشى ان يزعجنا .. وكان هو الهر « كيكسفالفا » والد الفتاة ، ولما رآني اهم بالوقوف تأدبا ، رجاني مخلصا ان ابقى حيث انا ، ثم مال على جبين ابنته فطبع عليه قبلة ، واتخذ مجلسه بجانبها كما لو كان طبيبا يجلس الى مريضته وحين لحظ ان جو الحديث قد اعتراه شيء من الفتور والتحفظ حاول ان يعيد اليه طابع الالفة السابقة فتبسط في سؤالي عن الفرقة وعن رؤسائي ، السابقين والحاليين ، وخيل الي انه يتعمد ان يظهر لي مبلغ اختلاطه وقوة صلاته بهم جميعا .

ورأيت ان زيارتي قد استنفدت هدفها ، وفقدت جاذبيتها ، فاعتزمت ان ابقى عشر دقائق اخرى ثم انصرف .. ولكن حدث في تلك اللحظة ان أقبل رئيس الخدم وهمس في اذن (اديث) بشيء ، فانفجرت صائحة في وجهه : « دعه ينتظر .. بل قل له ان يتركني اليوم وشأني .. قل له ان يذهب لست في حاجة اليه ! .. »

واحسسنا جميعا بالحرج ازاء عنف لهجتها ، فنهضت وقد ادخل في روعي اني اطلت البقاء ، لكنها هتفت بي على الفور : « كلا ! .. بل ابق .. لا تلق بالا الى الامر . انه لا شيء .. » وكانت لهجتها الآمرة تنطوي على الخشونة الامر الذي اشعر اباها بالحرج ، فصاح بها لائما : « اديث ! » .. وكأنما احست الفتاة بخروجها عن طورها فالتفتت الي معتذرة : « اغفر لي .. انه العذاب اليومي المألوف ، الدلك الذي يجري لي تدليكا طبيا .. انها آخر مبتكرات طبيبنا العزيز ، وهو علاج عقيم ، كغيره .. ! » ونظرت الى ابيها في تحد ، كأنما

تعتبره المسؤول .. فانحنى الشيخ المحطم عليها في اضطراب ، وقد شعر بالخجل ولا ريب لوجودي ، وقال لها في مذلة . » « ولكن يا طفلتي العزيزة .. اتعتقدين حقا ان دكتور كوندور .. ؟ »

واذ ذاك احمر وجهها وغمغمت في رضوخ : « حسنا ، سأذهب ، رغم انه امر لا جدوى منه .. ارجو المعذرة يا سيدي الملازم ، وارجو ان تأتي لزيارتنا ثانية في القريب »

فانحنيت لها وانا اهم بالانصراف ، لكنها عادت تقول لي : « كلا ، بل ابق مع ابي حتى اعود ! .. »

ثم هزت الجرس اليدوي الصغير الموضوع على المنضدة ، والذي رأيت مثله على كل منضدة في البيت ، وحين اقبل رئيس الخدم قالت له وهي تلقي الفراء عن قدميها : « ساعدني على الوقوف »

وكان ما حدث على الاثر مفجعا للغاية ، فقد رفع الرجل جسمها الهزيل تحت ابطيه بحركة الفها ولا شك ، فوقفت الفتاة لحظة متكئة على مسندي المقعد ، وهي تحدجنا بنظرة تحد ، ثم تلمست العكازين اللذين كانا تحت الفراء .. ورفعت جسمها عليهما وهي تزم شفتيها في انفعال ، ثم سارت تنقل عكازا بعد الاخر في حذر واناة والخادم خلفها مادا ذراعيه على قيد شبر منها ، كي يتلقاها اذا اوشكت ان تسقط !

واعتصرت قلبي يد ثقيلة وانا ارى المنظر المؤثر ، وأدركت لماذا ابت ان تعاونها (اليونا) على المسير او تجلسها في مقعدها ذي العجلات .. لقد ارادت بدافع من الرغبة الغامضة في الانتقام ، التي ولدها في نفسها اليأس ان تريني ـ انا بالذات ـ انها كسيحة .. ان تعذبنا بعذابها ! .. واخيرا . بعد زمن خلته دهرا ، بلغت الباب لاهثة من فرط المجهود الذي بذلته وهي تلقي بثقل جسمها كله على كل عكاز بدوره .. وكانت طرقات العكازين الجافة اعلى الارض ، وصرير الحوامل المعدنية المربوطة في قدميها ، قد اثارت اعصابي بحيث احسست دقات قلبي تهز سترتي العسكرية هزا .. ولم استرد بعض هدوئي الا حين ابتعدت خارج الحجرة فخفتت الاصوات الرهيبة رويدا رويدا حتى تلاشت ..

عندئذ فقط جرؤت على ان ارفع عيني ، فاذا الاب التعس قد وقف بالنافذة ، يطل على الفضاء السحيق .. ولحت كتفيه تهتزان . ان المسكين قد عجز بدوره عن احتمال عذاب طفلته ! .. ومضت دقائق مفعمة بالصمت المثقيل قبل ان يستدير الي قائلا : « أرجو الا يغضبك مسلك ابنتي يا سيدي الملازم .. انك لا تعلم كم قاست خلال هذه السنين .. وفي كل حين يجرب معها علاج جديد .. لكن الامر يسير ببطء شنيع . اني لا ألومها على نفاد صبرها ، ولكن ماذا نفعل ؟ لابد ان نجرب كل وسيلة ، أليس كذلك ! »

ثم وقف بازاء مائدة الشاى المهجورة ، بما عليها من شاي وطعام ، وتناول ملعقة صغيرة ثم قال دون ان ينظر الي ، كأنما يحدث الملعقة : « انك لا تتصور كيف كانت في الماضي .. لم تكن تكف عن الحركة طيلة اليوم ، تجري هنا وهناك وتصعد السلم وتهبطه .. وفي سن الحادية عشرة فقط كانت تركض بجوادها عبر الاحراش بسرعة لا يجاريها فيها احد ، في خفة واستهتار ومرح ، حتى ليشعر من يراها بأنها ليست في حاجة الى اكثر من ان تفتح ذراعيها كي تطير ! ..

من كان يتخيل ان يحدث هذا لها ، هي دون الناس جميعا .. ! »

وراحت يده القلقة تتناول الاشياء ثم تدعها ، وترسم بملقط السكر دوائر ورسوما على غطاء المائدة ! .. كأن المسكين يخشى ان يلتقي بصره ببصري ، من فرط خجله واضطرابه ! .. ثم استطرد فقال : « ومع ذلك فما ايسر ادخال السرور على قلبها ، حتى في هذه الايام .. بعد ما اصابها ! انها تجد سعادة « صبيانية » في اتفه شيء ، تضحك من ابسط نكتة ، ويستثير حماستها اي كتاب . ليتك رأيت مبلغ غبطتها حين وصلت سلة ازهارك وطرحت عن ذهنها عبء الظن بأنها قد اساءت اليك .. انك لا تعلم مدى حدة حساسيتها نحو كل شيء . اني واثق بأن احدا منا ليس اكثر منها اسفا على ما بدر منها منذ برهة من تصرف ينقصه ضبط النفس .. ولكن كيف يمكن ان تتحكم البائسة في اعصابها وهي لا تكاد تلمس تحسنا في حالتها ، او املا في شفائها من الكارثة التي ابتليت بها ؛ هي التي لم تفعل في حياتها شرا ، ولم تؤذ أحد .. ! »

وكأنما افاق الرجل من استرساله ، وادرك انه يتكلم امام شخص غريب ، فقال معتذرا بلهجة من استيقظ من سبات : « اغفر لي ياسيدي الملازم ! .. لست ادري لماذا اصدع رأسك بمتاعبنا .. لقد اردت ان اوضح الامر لك كي لا تسيء الظن بها ! » .

ولا اعلم كيف واتتني الشجاعة على ان اقاطع الشيخ الحائر .. ولكن فجأة وجدتني اقترب منه واتناول يده ، ثم القيها بين يدي .. لم أقل شيئا : وكل ما فعلت اني تناولت اليد الباردة المعروقة ــ التي حاول ان يسحبها من يدي خجلا ــ وضغطتها . فنظر الي في دهشة وقد لمعت خلف منظاره نظرة حائرة ، خشيت معها ان يقول شيئا ، لكنه لم يتكلم ، بل اتسعت حدقتاه السوداوان كأنما يوشك ان يبكي ! .. وانتابني انا الاخر تأثر عميق لم اشعر بمثله من قبل ، لكي ! يشكرني : فتجاهلت احساسي به ، بغية تجنب المزيد من الحرج .. وبارحت البيت المفجوع وقلبي يدق صدري بشدة .. !

مكتبة الرمحي أحمد

سحـــر الشفقـــة

كان ضباب الفجر لايزال يغطي مباني البلدة ، حين خرجت على رأس فيلق الفرسان في اليوم التالي لنقوم بجولة الصباح ، وفيما نحن نركض جيادنا بأقصى سرعتها ، ونسيم البكور الندي يحمل الى أنفاسنا عطر الحقول المزدهرة ، فنعب منه جرعات تملأ صدورنا انتعاشا وحبورا ، ودماء الشباب الدافئة تتدفق في اجسامنا النابضة بالحياة .. لاحت لنا من بعيد اسوار قصر كيكسفالفا البيضاء وقبابه العالية ، وللفور طعن قلبي احساس مباغت بالرثاء للفتاة الكسيحة المحرومة من نشوة الصحة والحرية والفرحة بقوة الشباب !.. خيل الي أنه قد يجرح شعورها ان تراني هكذا منطلقا كالسهم المارق او الطائر السعيد ، وشعرت بالخجل من سعادتي الجسمانية كما يخجل المرء من امتياز لا يستحقه !.. لكن ذهني تصدى لعاطفتي بالحجة المقنعة والمنطق السليم ، فلم البث ان تبينت سخافة اذلال النفس على هذه الصورة ، ادركت انه لاجدوى في ان ينكر الانسان على نفسه متعة ما ، لا لشيء الا لان غيره محروم منها ، ويأبي على نفسه السعادة لان غيره شقي !.. ففي الوقت الذي نضحك فيه ونتبادل النكات يوجد اناس في اماكن مختلفة من العالم راقدين على فراش الموت .. وآخرون خلف الف نافذة ونافذة يعانون البؤس ، أو يتضورون جوعا .. وهناك المستشفيات المليئة بالمرضى والجرحى .. والسجون العامرة بالمعذبين .. والمصانع والمناجم والمكاتب التي يشقى فيها الملايين من البشر في كل ساعة من ساعات النهار .. ولن يخفف من شقاء انسان واحد ان يشقي انسان آخر نفسه بنفسه ، بغير مبرر !.. بل لو حاول شخص ان يفكر في مآسي الغير ويصور لنفسه صنوف البؤس التي

تنطوي عليها الدنيا في كل وقت ، لاستعصى عليه النوم ، وماتت البسمات على شفتيه الى الابد !
لكن منطق الحجة والاقناع لم يفلح طويلا في ازالة اثر الكآبة التي اعترتني في تلك الصباح ، والتي كانت اولى اعراض تلك السم الغريب الذي بدأ يسري في كياني : سم « الشفقة »!
احسست ان شيئا غير عادي قد حدث لي ، فقد عشت حياتي قبل ذلك لا ابالي شيئا غير مطالب يومي ، كان هناك من يدبر لي شئوني العائلية ويرسم لي مستقبلي ويختار مهنتي دون ان احمل هما او أفكر في أمر ! وكان هذا التحرر الكامل من المسؤولية مريحا لي دون ان اشعر ، فاني لم اشعر بمتعة الا الان .. الآن حين ادركت فجأة ان شيئا قد حدث ، شيئا داخليا لايبدو على السطح !.. لم اكد اطالع في عيني الفتاة الكسيحة تلك النظرة المنطوية على اعمق معاني الالم الانساني ، حتى أحسست شيئا يشطرني شطرين !.. والآن أحسست دفئا مفاجئا يسري في كياني ويبعث فيه ما يشبه حمى غامضة ، ادركت معها اني قد خرجت من الدائرة التقليدية التي عشت فيها آمنا من قبل ، الى محيط جديد مثير ومقلق في آن معا !.. وللمرة الاولى رأيت هاوية عاطفية تفغر فاها في وجهي ، وتغريني بان القي بنفسي فيها .. لكنني في الوقت ذاته سمعت هاتفا غريزيا يحذرني من هذا الفضول النزق ، صائحا ان « كفى !... لقد قدمت لها الاعتذار الكافي وكفرت عن حماقتك ، فقف عند هذا الحد !».. ثم اعقب هذا الصوت صوت اخر يهمس لي : « اذهب لتراها مرة اخرى ، وتشعر بتلك الرجفة من الخوف والترقب تسري في نخاعك ».. لكن الصوت الاول عاد يحذر : « ابتعد عن طريقها .. ولا تفرض وجودك على مشاعرها .. فان هذه الانفعالات الحادة اكثر مما تحتمل هي او تحتمل انت ، والا فان سذاجتك سوف تورطك في حماقة ابشع من الاولى !»
على ان زمام الاختيار افلت من يدي ، حين التقيت بعد ايام ثلاثة خطابا من الهر كيكسفالفا يدعوني فيها الى تناول العشاء في داره مساء الاحد ، برفقة احد كبار رجال وزارة الحرب ، وآخرين .. ثم يضيف ان ابنته واليناسوف يسرهما بصفة خاصة ان احضر ! .. ولا انكر اني شعرت تلقاء هذه الدعوة بشيء من الزهو ، كما تبينت بوضوح ما يبذله كيكسفالفا من جهد كي يعرفني ببعض ذوي النفوذ !

* * *

ولا حاجة بي الى القول باني قبلت الدعوة على الفور ، ولم اندم على ذلك قط ، فقد كانت السهرة ممتعة حقا . حظيت فيها بما لم احظ به في حياتي من التفات كبار القوم الحاضرين الي واحترامهم لي ، وسالني موظف وزارة الحرب عما اذا كنت راضيا عن الفرقة التي اذا احتجت الى مساعدة او هبطت « فينا » في اي وقت !
وكما في المأدبة السابقة اديرت علينا اطباق الطعام الفاخر والشرابالشهي ، وتملكني زهو صبياني وانا ارى نفسي استمتع بذلك الترف في صحبة هؤلاء القوم البارزين !. وددت لو يراني زملائي في الفرقة وموظف وزارة الحرب يشرب نخب صحتي ، ومدير شركة السكر يبدي اعجابه بسعة اطلاعي ..!
وبعد ان دار علينا السقاة بالقهوة و« الليكير » والسيجار الفاخر ، مال كيكسفالفا على اذني

ليخبرني بين الانضمام ـ بعد العشاء ـ الى الرجال في لعب الورق ، وبين البقاء لاثرثر مع الفتاتين .

وكان طبيعيا ان اخترت البقاء مع الفتاتين ، فما كنت لا خاطر باللعب مع الموظف الكبير معرضا نفسي لا ستيائه لو رحت ، ولافلاسي انا لو خسرت !.. فضلا عن ان جيبي لم يكن يحوي ليلتئذ غير عشرين ريالا ، هي كل ما تبقى لي من مرتب الشهر ..!

وهكذا بقيت مع الفتاتين . وبدت لي كلتاهما ابهى جمالا ورواء منها في المرتين السابقتين ، ويخاصة « ابيث » ، التي لم اراها هذه المرة شاحبة سقيمة كعهدي بها . ترى هل وضعت شيئا من المساحيق الحمراء اكراما لضيوفها .. ام ان بهجة السهرة قد ارسلت الحمرة الى خديها ؟ على اية حال لم يكن ثمة اثر للتجاعيد حول شفتيها او للدوائر السوداء المحيطة بعينيها !.. اما « اليونا » فقد خيل الي انها كانت ثملة قليلا ، من فرط التماع عينيها .. وحين القت كتفيها المستديرتين الرائعتين الى الخلف وهي تبتسم لم اجد بدا من التراجع الى الوراء بدوري كي اتجنب اغراء لمس ذراعيها العاريتين !

وبعد عشاء كهذا ، وخمر طيبة اشاعت الدفء الممتع في بدني .. وفي صحبة حسناوين رائعتين الى جانبي ، ما كنت لاجد ادنى صعوبة في الثرثرة المرحة الطليقة !.. صحيح انها كانت حكايات ونوادر تافهة تلك التي رويتها ، لكنني سريت بها عن الفتاتين الى حد اثار دهشتي انا نفسي ، فلم تكفا لحظة عن الضحك ، ولاسيما ابيث ، التي علت ضحكاتها الفضية ذات الجرس الرنان ، واحمرت وجنتاها النحيلتان الشفافتان ـ كالبلور ـ واضاءت وجهها مسحة من الصحة والجمال المشرق ، كما التمعت عيناها الغبراوان بمرح صبياني .. بصورة ايقنت معها ان انشراحها حقيقي ، ينبع من اعماقها !

وكم كان جميلا ان يراها الانسان تنسى عاهتها وتترك نفسها على سجيتها فتضحك وتشرب وتميل بجسمها الى الخلف في مرح ، وتجذب اليونا اليها فتحيط كتفيها بذراعها !.. وشجعني « نجاحي » فعادت الى ذاكرتي عشرات النوادر الطريفة التي كنت قد نسيتها منذ زمن ،

وهكذا لبثنا ثلاثتنا نصخب ونهرج في ركننا القصي كأطفال المدارس .!

على انني برغم استغراقي فيما انا فيه ، لم يفتني ان الحظ ـ بنصف وعي ـ عينين تراقباني طيلة الوقت من خلف منظاريهما ، من مائدة اللعب القصية ، وترمقاني بنظرة دافئة سعيدة ، ضاعفت من سعادتي .. وحين التقت اعيننا مرة اثناء نلك أومأ كيكسفالفا الي ايماءة ودية وقد اشرق وجهه !

واستمرت حالنا على هذا المنوال حتى قرب منتصف الليل ، حين ادير علينا مدد جديد من الشطائر الشهية والمشروبات المعتقة والمرطبات فأكلنا جميعا وشربنا في حرية وانطلاق !.. واخيرا حان اوان الانصراف فهزت الفتاتان يدي كما لو كنت صديقا قديما عزيزا . وكان علي ان اعدهم بالعودة الى زيارتهم في اقرب فرصة ، في اليوم التالي او الذي يليه .. وفيما انا اهم بارنداء معطفي اقبل مضيفي يعاونني على نلك فاحتججت في خجل وحيرة ، لكنه اصر هامسا لي : « اوه ، يا سيدي الملازم .. انك لا تستطيع تصور مبلغ سعادتي بسماع ابنتي تضحك ثانية ، من اعماقها !.. انها لا تظفر من الحياة بغير فرص نادرة للمتعة ، وقد كانت الليلة

كعهدي بها في الايام الخوالى ! »

وكان في لهجته من اللطف والدماثة والشكران ، ما ملأ نفسي بالسعادة ويأسا في وقت واحد ، حتى كاد تأثري يفضحني اثناء عودتي الى المعسكر في سيارة موظف وزارة الحرب ، بدعوة كريمة منه !

* * *

لم استطع النوم في تلك الليلة ـ لفرط انفعالي ـ الا بعد محاولات طويلة !.. وشعرت للمرة الاولى في حياتي بأنني كنت مصدر نفع لمخلوق ما على الارض !.. ولم يكن ثمة حد لدهشتي وعجبي من كوني ـ وانا الضابط البسيط الخامل ـ يمكن ان يكون لي من السلطان ما يدخل السعادة القصوى على قلب انسان اخر ..! ولكن اصور مدى نشوتي باستكشاف هذه الحقيقة ، ينبغي ان اشير الى امر قد يكون فيه شيء من الايضاح ، ذلك اني منذ طفولتي كان يسيطر على نفسي شعور دائم بأني مخلوق تافه لا يثير احتفال الناس او اهتمامهم بأمره .. وخلال سنوات دراستي بالكلية الحربية لم يطرأ ما يغير هذا الاعتقاد ، فلم اكن فيها اكثر من طالب عادي متوسط الذكاء ، لا يدخل في عداد الطلبة الموهوبين او المحبوبين .. وظلت هذه حالي حتى تخرجت وعينت في فرقتي .. ما كان اختفائي او موتي ليثير في نفوس زملائي غير شعور وقتي بالرثاء ثم ينسى الجميع امري .. وكما كنت فردا تافها في نظر اخواني ، كنت في نظر الفتيات القلائل اللاتي عرفتهن في القريتين السابقتين اللتين عسكرت فيهما الفرقة . ففي الاولى كانت صديقتي ممرضة في عيادة طبيب اسنان .. وفي الثانية تعرفت الى خياطة بسيطة الحال كنت اخرج للنزهة معها ، وفي يوم العطلة آخذها الى غرفتي .. وقد اهديتها يوم عيد ميلادها عقدا صغيرا من المرجان ، وحين نقلت تبادلنا الرسائل العاطفية المألوفة فترة من الزمن ، ثم نسي كلانا صاحبه !

فماذا حدث اليوم ؟.. هل يعقل ان شابا بسيطا هذا شأنه وليس في جيبه خمسون ريالا يستطيع ان يدعي ملكيتها ، يدخل على قلب رجل واسع الثراء نصيبا من السعادة عجز عن اغداقه عليه جميع اصدقائه ؟... وهل يعقل ان اكون ـ انا الملازم البسيط هوفميلر ـ مصدر نفع وعون وراحة لنبيل عريق في المجد مثل كيكسفالفا ؟ او انني اذا قضيت امسية اثرثر مع فتاة كسيحة معنبة ، يشرق الهناء في عينيها ، وتدب الحياة في وجنتيها ، ويغمر البيت الذي كان مأوى للكآبة فيض من النور والحبور ، بسبب وجودي .. انا ؟!

وفي غمرة نشوتي وانفعالي رحت اذرع الشوارع المعتمة بخطا سريعة اشعلت الدفء في كياني ، وانا استمرىء استعراض المراحل القصيرة التي ادت الى ظفري بصداقة هؤلاء القوم الكبراء بمثل هذه السهولة !.. فماذا فعلت حتى وصلت الى هذه النتيجة ؟. لم افعل اكثر من اني اظهرت شيئا من العطف .. وقضيت ليلتين ممتعتين ضحكت فيها وثرثرت ، واكلت وشربت .. وكفى !.. واذن فما احمق وما اغبى ان يبدد المرء اوقات فراغه يوما بعد يوم في المقهى ، في العاب سخيفة ، مع اناس سخفاء ، او يتسكع في الطرقات كالبلداء .

وانتهيت من تفكيري ، انا الشاب الذي بعث فجأة الى الحياة ، الى وجوب احداث انقلاب تام

في اسلوب معيشتي .. الى الاقلال من التردد على المقهى وتطليق تلك الجلسات البليدة التي تراكم الصدأ على الذهن .. على ان اكثر من زياراتي لتلك المريضة البائسة ، واحاول التجديد في وسائل تسليتها بمختلف الاحاديث والالعاب كالشطرنج مثلا !

وامدني تصميمي على ان اكون مصدر عون ونفع للاخرين ، بنوع من الحماسة .. فشعرت بميل شاذ الى ان اغني ، الى ان ارتكب اية حماقة !.. فان الانسان لا يحس اي معنى او هدف لوجوده حتى يتبين انه في نظر غيره له وزن واهمية واعتبار !

وفي الاسابيع التالية ، اخذت اقضي الجانب الاكبر من امسياتي في دار كيكسفالفا !.. وسرعان ما غدت هذه الجلسات التي ترفع فيها الكلفة بمثابة عادة لي ، بل لقد انغمست فيها الى درجة لها خطورتها !.. لم تكن الساعة الخامسة مساء تجيء حتى اهرع الى هناك ، فيفتح لي الباب (جوزيف) رئيس الخدم مرحبا ، واقابل من الجميع كما لو كنت فردا من الاسرة .. قم اجلس في مقعدي المختار المواجه لمقعد تلاثيتنا في الثرثرة والضحك دون كلفة !

وثمة عامل هام ضاعف من نشوتي واستمتاعي برفقة الفتاتين ، هو اني طيلة الاعوام الخمسة عشر السابقة ـ منذ ارسلت في سن باكرة الى الكلية الحربية ـ عشت في بيئة كلها ذكور ، فنشأت وقد الفت حركاتهم واصواتهم وخشونتهم ورائحة التبغ التي تفوح منهم .. وجو الذكور مهما تكن شخصيات افراده ينقصه دائما شيء ما ، فهو اشبه بجوقة موسيقى الجيش « النحاسية » التي مهما يجد عازفوها تظل تنقصها نعومة الالات « الوترية » !.. ولست انسى في هذا الصدد شعورنا ونحن طلبة في الرابعة عشرة ، يوم كنا نخرج في طوابير للنزهة في المدينة ، فتأخذنا الحسرة حين نرى اندادنا في السن يستمتعون بصحبة الفنيات التي تحرمنا منها ستراتنا العسكرية ذات الاشرطة الذهبية الانيقة !.. كنا اشبه بسجناء خلف قضبان حديدية ، ننظر الى هذه المخلوقات الناعمة نظرتنا الى جنيات مسحورة ، ونحلم بحديث واحد مع فتاة كما يحلم الانسان بغاية مستحيلة !.. مثل هذا الحرمان لا ينسى بسهولة واحلام الصبا العاطفية لا تكفي في التعويض عنها تلك المغامرات الرخيصة التي عرضت لنا فيما بعد مع نساء الهوى نالمحترقات وامثالهن .. بل استطيع ان اقول اني بعد ان قضيت ليالي كاملة في مخادع نساء من نلك الطراز ، ظللت كالعهد بي ارتبك كلما قدمت لفتاة في مجتمع ..!

اما الان فان اشتياقي الطويل الى عقد صداقة مع فتيات من الجنس الاخر ، قد بلغ هدفه فجأة .. وعلى الوجه الاكمل !.. وصار جلوسي الى الفتاتين كل مساء ، والاستمتاع بأنوثة صوتيهما وحركاتهما يدخل على قلبي شعورا بالبهجة والانشراح .. وكم اسعدني ان اجد نفسي ـ للمرة الاولى في حياتي ـ قد تحررت من خجلي الممقوت في حضرة الفتيات !.. بل تحررت ـ نظرا للظروف الشاذة التي نشأت فيها صلتنا ـ من نلك التوتر والتكهرب الذي يسود الجو عادة كلما خلا رجل وامرأة معا ، فترات طويلة من الوقت . ان كنت اعترف باني في البداية لقيت عناء كبيرا في مقاومة اغراء شفتي (اليونا) الممتلئتين الشهوانيتين ، وذراعيها البضتين الجميلتين ، والجاذبية الحسية التي تشع من كل حركتها الناعمة المياسة ، حتى لقد اضطرت اكثر من مرة ان ارد يدي قسرا في آخر لحظة من الرغبة في لمس المخلوقة الدافئة الناعمة ذات العينين السوداوين الضاحكتين واحتوائها بين ذراعي وتغطية جسمها بالقبل !.. لكن

اليونا كانت قد اسرت الي منذ بداية تعارفنا انها مخطوبة منذ عامين الى طالب حقوق ، انها لا تنتظر كي تتزوج منه غير تحسن حالة ايث وشفائها تماما .. وقد فهما من نلك ان كيكسفالفا قد وعد ابنة اخته الفقيرة ببائنة سخية لو انتظرت حتى نلك الحين !.. وفضلا عن نلك كان الغدر البين والخيانة الاثمة نتبادل القبل الحامية ـ من غير حب ـ ومن وراء ظهر المخلوقة البائسة المقيدة في قسوة الى كرسيها ذي العجلات !

وهكذا لم تلبث فتنة « اليونا » ان صارت لا تثير قلقي واضطرابي !.. في الوقت الذي تركزت فيه عواطفي في الفتاة الكسيحة العاجزة التي قست عليها الحياة .. حتى غدا يسعدني ان اجلس اليها فأسري عنها وارى ابتسامة الغبطة على فمها ونظرة الشكران في عينها ، وانعم بمختلف متع صداقتنا البريئة .. اكثر مما يمكن ان يسعدني اي غرام جارف مع امرأة اخرى !

وبفضل هذه الانفعالات الروحية الخفيفة التي سمت بي الى طبقات العاطفة العليا ، كشفت مناطق شعورية رقيقة لم اكن اعرفها من قبل !. والانسان بطبعه حين يتذوق متعة عاطفة ما ، في سني الشباب ، يعجز عن الارتواء منها او الاكتفاء بقدر .. وهكذا لم اكد اسمح لشعور الشفقة بأن يتسلل الى اعماقي حتى بدأ لي كأن سما غريبا قد وجد طريقه الى دمي فزاده حرارة وسرعة واحمرارا وتدفقا !.. وجدتني فجأة استجيب لمائة مؤثر لم يكن لها علي فيما مضى ادنى تأثير ، كأنما تلك النظرة الاولى الى الام الاخرين ، قد منحتني عينا جديدة افطن وعيا وانكى بصيرة !.. ولما كانت دنيانا متخمة بالمآسي العنيفة ، حافلة بالبؤس المفجع والاسى المرير ، فقد بت اقضي ايامي ، ليلي نهاري ، مرهف الحس متفتح الشعور .. ولاول مرة وجدتني بغتة اعجز عن ان اقسو على الجواد الحرون بضربة وحشية !.. واتقزز الما واشمئزازا حين يفاجىء ضابط جنديا غبيا بلطمة شديدة من يده ، وفي الوقت الذي كان فيه زملائي يضحكون ساخرين من المضروب كنت وحدي المح دموع الخجل الحارة تلمع على اهدابه تحت اجفانه المطرقة !.. بل اني غدوت فجأة اضيق بنكات الزراية والاستهزاء التي يسلق بها بعض الزملاء سيرة من يوقعه حظه السيء تحت السنتهم .

لقد صرت منذ لمست في شخص ايث المساوية الحول والطول عذاب العاجزين التعساء ، اثور غضبا لاي فعل فيه قسوة ، واذوب شفقة على المنكوب بأية صورة من صور العجز !.. وكم من امور تافهة لم اكن من قبل الحظها غدوت اتنبه منذ القت المصادفة في عيني تلك القطرات الاولى الحارة من الاشفاق !

وقلت لنفسي : « منذ الان سأجعل رائدي ان اسعد اي انسان ، سأكف عن جمودي وعدم مبالاتي .. وليكن مصير كل شخص مصيري ، ولاجعل شفقتي تسع شتى اوجه الالم البشري .. ولاتوجه بقلبي شاكرا للفتاة الكسيحة انها علمتني ـ من خلال الامها ـ سحر الشفقة وقوتها !

* * *

لم البث ان استيقظت من احلامي العاطفية ، في شيء من العنف !

كنا نلعب « الدومينو » ذات مساء ونحن نثرثر ونضحك كعادتنا ، فغفلنا عن مرور الوقت .. حتى حانت مني نظرة الى الساعة فاذا هي قد بلغت الحادية عشرة والنصف ، واذ ذاك نهضت من فوري استأذغ في الانصراف .. وبينما كان مضيفي يرافقني الى الباب بلغ مسامعنا صوت طنين النحل . كان المطر ينهمر في الخارج بغزارة .. فأصر كيكسفالفا على تكليف سائق ثيارته ان يوصلني بها الى المعسكر .. وانطلقت بي السيارة الفاخرة تنهب الطريق في سهولة ويسر .. وقبل المعسكر ببضع مئات من الامتار طلبت من السائق الوقوف . وهبطت هناك حتى لا يراني احد الرؤساء اهبط من السيارة الفارهة امام باب المعسكر ، والسائق ينحني لي وهو يفتح بابها كأني نبيل عريق .

لقد كنت اعلم انهم يمقتون مثل هذه المظاهر ، وكنت الى نلك قد حرصت خلال الاسابيع السابقة ، بوحي من غريزتي ، على تجنب الخلط بين عالمي المتناقضتين : عالم الابهة والترف في دار كيكسفالفا ، حيث كنت رجلا حرا مدللا .. وعالم الصرامة والواجب ، حيث لم اكن اكثر من شاب فقير ، يعد نفسه سعيدا حين يكون الشهر ثلاثين يوما ، لا واحدا وثلاثين !

وما كدت اهبط من السيارة على مسافة من المعسكر ، وارفع ياقة معطفي تأهبا لعبور المرحلة الباقية مسرعا ، حتى اشتد المطر وهاجت العاصفة ، فرأيت ان احتمي منهما داخل باب احدى الدور حتى تفرغ السماء ميازيبها .. ثم تذكرت اني على بعد امتار من مقهاي القديم ، ولمحت النور ينبعث منه ، فرأيتها فرصة مناسبة للقاء الزملاء الذين انقطعت فجأة عن مجالستهم منذ اكثر من اسبوعين .. ووجدت منهم في ركنهم المألوف : جوسي ، وفيرنز ، وجولديوم طبيب المعسكر .. فهتف فيرنز حين رآني من بعيد : « هاللو .. ها هو ذا (توني) ..! » واردف الطبيب : « يالله من شرف لمقهانا المتواضع ! » واستدارت نحوي ست عيون مستطلعة ، فسرني ترحيب الزملاء بي برغم انقطاعي الطويل عنهم دون ايضاح او اعتذار !.. واقبل الساقي يجر قدميه جرا من فرط النعاس ، فطلبت قدحا من « القهوة السوداء » . وسألت الاخوان عن اخبارهم .. فنفخ فيرنز شدقيه وقال في لهجة تمثيلية : « احدث اخبارنا ان سعادتكم قد تنازلتم فشرفتم مقرنا المتواضع بطلعتكم النبيلة ! »

ونظر الي الجميع في مرح تهكمي ، فشعرت بقلبي يغوص في قدمي ، وفكرت في المبادرة بالفرار قبل ان يسألني الخبثاء اين قضيت الفترة السابقة ومن اين جئت الان .. ولكن قبل ان يستقر تصميمي على شيء غمز فيرنز بعينه لجوسي وقال : « انظر .. ما رايك في هذه الظاهرة الغريبة .. حذاء لامع نظيف في هذا الطقس المطر !؟.. وسيجار فاخر في الجيب ، سبقه ولا ريب عشاء ممتع وكافيار ودجاج .. الخ »

وهنا انضم جوسي الى زميله في السخرية فقال : « الشيء الذي اعتب فيه على صديقنا العزيز توني انه بدلا من ان يذكر لمضيفه ان له اصدقاء ظرفاء مهذبين يعرفون اداب المائدة ثم يأخذهم معه الى هناك ابى الا ان يذهب وحده ولسان حاله يقول : (دعهم يملأوا بطونهم بمشروبات المقهى القذرة واطعمته الكريهة ، ولانعم انا بكل الطيبات !) .. فياله من مسلك نبيل ..! »

وانفجر الثلاثة ضاحكين ، في الوقت الذي احمر فيه وجهي كالقرمز وقد ساءني ان يتنبه الخبثاء الى السيجار الذي اعتاد كيكسفالفا ان يضعه في جيبي كل ليلة قبيل خروجي !.. لكنني لم اجد بدا من تكلف ضحكة مغتصبة لاخفاء ارتباكي ، ثم سارعت الى اخراج علبة سجائري ومددت يدي بها اليه ، لكنني ادركت توا انني بتصرفي هذا حاولت اصلاح الموقف بحماية ابشع .. فقد كانت العلبة هدية من الفتاتين طاب لهما ان تفاجئاني بها منذ ايام ، لمناسبة عيد ميلادي الخامس والعشرين ــ وقد دستاها لي بين الطبق والمنشفة ، على مائدة العشاء !.. وكان طبيعيا ان يتلقف الزملاء هذه « القفشة » الجديدة فيوسعوني تهكما ، فقد هتف فيرنز من فوره وهو يصفر بفمه ويتناول العلبة كلها من يدي ــ ولم يكن في وسعي ان امنعه ! ــ ثم يزن ثقلها في راحة يده : « هوه هوه !.. مظهر اخر من مظاهر الترف !.. انها من الذهب الخالص فيما احسب ، اليس كذلك يا جولديوم ؟ »

وكان الطبيب ابن صائغ يهودي من صياغ الذهب ، فتناولها في يده ووضع منظاره على عينيه ثم راح يفحصها فحص الخبير الواعي ، وقال اخيرا : « نعم ، من الذهب الخالص ، انها تحفة يسيل لها لعاب الفرقة بأسرها ، ولا تقل قيمتها عن ثمانمائة ريال ! »

وبعد ان نطق بهذا الحكم الذي ادهشني انا نفسي ــ فقد كنت احسبها مطلية بقشرة فقط من الذهب ــ ناولها بدوره الى جوسي ، وجعل هذا يقلبها بين يديه في احترام وتوقير لقيمتها ، ثم فتحها في حذر .. واذا هو يصيح مهللا : « يا له من اهداء .. اسمعوا يا رفاق : (الى صديقنا العزيز انطون هوفميلر ، في عيد ميلاده .. من (اليونا) و(اديث) ..! »

وحملق الثلاثة في وجهي !.. بينما صاح فيرنز قائلا : « يا للشيطان ! .. انك تحسن اختيار اصدقائك في هذه الايام .. فأهنئك ! لقد كنت خليقا ان تعد نفسك سعيدا لو اهديتك علبة كبريت معدنية مثلا ! »

واحسست بغصة في حلقي !.. غدا تعلم الفرقة كلها بقصة العلبة الذهبية ، بل تحفظ عبارة الاهداء عن ظهر قلب !.. وسوف يحرجني « فيرنز » في نادي الضباط ويطالبني بعرض الهدية على الرؤساء ، فتتناقلها ايديهم ويتجاوب المكان بصدى ضحكاتهم الساخرة .. ثم يجيء دور استجوابي عن مصدرها ، وعندئذ يستحيل علي ان ارفض طلب رؤسائي ، او اكذب عليهم !

وفي غمرة ارتباكي ، اردت ان اغير مجرى الحديث فقلت متسائلا : « هل منكم من يريد ان يلعب مباراة شطرنج اخرى ؟ » . فصاح جوسي ضاحكا : « اتسمع يا فيرنز ؟ في الثانية عشرة والنصف ، والمقهى يوشك ان يغلق ابوابه ، يريد ان يبدأ اللعب ! » فقال الطبيب معلقا : « ان الرجل السعيد لا يشعر عادة بمرور الوقت ! »

ثم خرجنا ، بعد ان تبادلوا الضحك ، وكان المطر قد انقطع ، فمشينا الى المعسكر .. وهناك تصافحنا وتفرقنا . وقال لي فيرنز وهو يضرب على ظهري : « اننا مسرورون بعودتك الينا يا

صاح .. » واعتقد انه كان مخلصا . وبعد انصرافهم سألت نفسي : « لماذا احقد عليهم ؟.. انهم اصدقاء ظرفاء ، وقلوبهم خالية من الحسد او الخبث ، وهم لم يقصدوا بدعابتهم غير المزاح »

* * *

على ان مزاحهم ودعابتهم قد اتلفا في نفسي شيئا لا يمكن اصلاحه ، نلك هو ثقتي بنفسي !.. فحتى تلك الليلة كانت صلتي بأسرة كيكسفالفا قد زادت في تقديري لنفسي ، منذ شعرت ـ لاول مرة في حياتي ـ اني مصدر نفع وعون للاخرين .. ولكن آن لاولئك الزملاء المجانين ان يدركوا المعاني السامية التي انطوت عليها تلك الصلة ؟.. ان كل ما جال بخاطرهم اني رحبت بضيافة البيت الكريم المترف كي انعم بثراء القوم فأوفر اجر وجبة العشاء واظفر بالطعام والشراب الفاخرين والهدايا الثمينة !. ولم يكن الخبثاء يلومونني في قلوبهم من اجل نلك او يرون فيه ادنى غضاضة او معنى من المعاني المنافية للشرف والكرامة ، بل كانوا يعتقدون اننا ـ نحن ضباط سلاح الفرسان ـ انما نضفي على اولئك الاثرياء « الحمقى » شرفا مضاعفا بالجلوس الى مائدتهم !.. ومن ثم ت نظرة الزملاء الى علبة سجائري الذهبية منطوية على الاحترام لبراعتي في استغلال كرم الصيد الدسم الذي ظفرت به !.. وكان هذا ـ بالذات ـ مبعث غيظي وحنقي .. فقد انتهى بي التفكير في الامر الى ان بدأت اتشكك في حقيقة دوافعي النفسية التي تغرينى بالتردد الى القصر كل حين !. وبدأت اسائل نفسي : « ترى هل انا طفيلي حقا ؟. وهل يليق بمثلي ان يتقبل المآدب المتصلة والهدايا المتلاحقة ؟ وتذكرت فجأة ملاحظة ابداها كيكسفالفا عن بلادة جوادي الخاص ـ وكنت لا ازال ادفع ثمنه بالتقسيط ـ وكيف انتهى الرجل منها الى التفكير في ان « يقرضني » من حظائره العامرة جوادا ممتازا من جياد السباق ! »

وقلت لنفسي : « كلا ... انه انما يحاول ان يشتريني ، يدفع نقدا ثمن عطفي واشفاقي على ابنته ، وتسليتي اياها .. تماما مثلما وعد (اليونا) ببائنة في مقابل بقائها لتمريض الفتاة المسكينة والترفيه عنها !.. وانا ـ بسذاجتي المعهودة ـ وقعت في هذا الفخ دون ان ادرك انني بنلك قد صرت طفيليا ! »

ولكني عدت اقول لنفسي ايضا : « هذا محض هراء ! فالرجل يحبني كما لو كنت ابنا له .. والفتاتان تعاملاني بكل ترحيب واحترام ، وتسران كلما رفعت الكلفة معهما كأني في بيتي ...! »

ولكن ماذا يجدي اي قدر من الايحاء النفسي والتشجيع الذاتي اذا كان توازن الشخص الداخلي قد اختل واضطرب ؟.. زعزعت عبارات زملائي ثقتي في حقيقة دوافعي الشخصية ، فجعلت اسأل نفسي ملحا مكررا : « هل انا اذهب الى هناك حقا بدافع الشفقة على الكسيحة ؟.. ام بدافع الرغبة في قضاء وقت طيب في رفقة قوم كرماء ؟.. على اية حال يجب ان اوقف الامر عند هذا الحد ، كيلا يظن انى فرضت نفسي على القوم وتطفلت عليهم ! »

وهكذا قررت ان اطيل المدى بين زياراتي للقصر في المستقبل . وان امتنع عن الذهاب اليه في اليوم التالي ثم نفذت هذا القرار فلم اذهب في اليوم التالي الى القصر ، بل خرجت بعد انتهاء عملي في صحبة جوسي وفيرنز الى المقهى ، حيث قرأنا الصحف واشتركنا في بعض الالعاب .. لكني لعبت وانا شارد الذهن ، فقد كانت على الحائط المواجه لي ساعة كبيرة لم تكف عقاربها عن شغل افكاري وانتباهي .. الرابعة والثلث .. الرابعة والنصف .. الخامسة الا الثلث .. الخامسة الا عشر دقائق .. وكنت قد عودت آل كيكسفالفا ان اصل الى دارهم في الرابعة والنصف بالضبط فأجد الشاي معدا ... واذا حدث ان تأخرت يوما ربع ساعة لامر ما ، استقبلوني

متسائلين في قلق : « هل حدث شيء ؟ » .. واذن لا بد ان انظارهم الان معلقة بالساعة مثلي ، والانتظار يمضهم بدورهم .. ومن ثم رأيت لزاما علي ان اعتذر لهم بالتليفون ، او ارسل اليهم تابعي ، ورأيت ان اتخلص من مواجهتي للساعة بابدال مكاني مع احد اللاعبين ، بزعم ان مقعدي لا يجلب الحظ ، لكن اعصابي ظلت مرهفة ، ولاول مرة ادركت ان العطف الصادق لا يمكن قطع تياره بالسهولة التي يقطع بها التيار الكهربائي ، وان كل من يشغل نفسه بمصير انسان غيره يفقد ، الى حد ما ، حريته !

ولكني عدت اعنف نفسي على اهتمامي الزائد بتخلفي عن الزيارة اليوم . وبحكم القانون الطبيعي لتسلسل الافكار ، الذي يجعل الشخص الحانق يصب غضبه عادة على شخص آخر بريء تماما ولا صلة له ببواعث نلك الحنق .. صببت غيظي المكتوم على كيكسفالفا ، لا على جوسي او فيرنز !.. واخذت احدث نفسي قائلا : « فلينتظروني مرة في العمر .. سوف اريهم اني لست بالذي يشرى بالهدايا والطعام والشراب وانى لن اواظب على زيارتهم مواظبة المعلم او المملك المأجور ! »

وهكذا بقيت في المقهى ، متحاملا على نفسي ، ثلاث ساعات ونصف ساعة .. كي اثبت لنفسي انني ما زلت حرا ، اذهب حينما اريد ووقتما اريد ، وان الطعام الفاخر والسيجار الغالي وما اليهما لا تهمني في كثير او قليل ! وحين غادرنا المقهى اقترح فيرنز ان نتنزه مشيا على الاقدام ، ولكني لم اكد اطأ الرصيف حتى تنبهت الى نظرة خاطفة من عينين مألوفتين لدي ، مر بي صاحبهما مسرعا .. اليست هذه « اليونا » ؟.. انها هي بلا شك ، ولو لم اعرفها من ثوبها النبيذي اللون وقبعتها الخفيفة ذات الشريط العريض ، لعرفتها من اهتزاز ردفيها الرشيقين اثناء سيرها ، ولكن ترى الى اين تهرع بهذه السرعة ؟

وودعت صديقي فجأة ولحقت بالفتاة .. وحين استوقفتها اخيرا لم يبد عليها اثر للدهشة ، فأدركت انها رأتني وهي عابرة .. وقلت لها : « يا لها من مصادفة رائعة ان اقابلك هنا !. لقد طالما اردت ان اريك معالم مدينتنا العسكرية المقبضة .. ام تفضلين ان نجلس في حانوت الحلواني بعض الوقت ؟.» .. لكنها اعتذرت بأنها تبغي العودة الى البيت على عجل ، ولما لم تفلح محاولاتي لاقناعها عرضت عليها ان اصحبها الى السيارة التي تنتظرنا في مكان قريب .. وفي اثناء الطريق سألتني عفوا خلال الحديث : « على فكرة ، لم تأت عصر اليوم ؟ » فزعمت لها ان رئيسي اخذني معه لارى حصانا يريد ان يشتريه ، واركبه على سبيل التجربة .. وكانت هذه

الواقعة قد تحدثت منذ شهر كامل ! ــ فقالت وهي تكظم عصبيتها : « الا تحضر معي الان على الاقل للعشاء ؟ » .. فهمست لنفسي على الفور : « كن حازما ولا تتراجع . اصمد يوما واحدا على الاقل !.. فأجبتها وانا اتنهد اسفا : « كنت احب ان آتي ، لولا ان لدينا اجتماعا مهما في هذا المساء .. » فصمتت ولم تعلق بكلمة ، حتى دلفت الى داخل السيارة ، فسألتني خلال النافذة : « هل ستأتي غدا ؟ » . فقلت « اوه نعم ، سأحضر بلا شك »

وحين مضت بها السيارة انتابتني الهواجس ، وسألت نفسي : « لماذا كانت اليونا متعجلة مرتبكة ؟.. وهل لم يكن يجدر بي ان اكلفها ابلاغ تحياتي الى خالها وابنته ؟.. لكني سررت من ناحية اخرى لاني صمدت ولم اذهب . كي لا يستطيع احد ان يقول اني من المتطفلين !



في بـــرج القصـــر

وذهبت في اليوم التالي الى القصر في الموعد المعتاد . فاستقبلني « جوزيف » مرحبا بقوله : « ان الانسة قد صعدت الى البرج ، وطلبت ان يلحق سيدي الملازم بها رأسا متى حضر ! » .. ثم عرض الخادم علي ان استقل المصعد الكبير الذي اعده صاحب القصر خصيصا بعد نكبة ابنته ، حتى لا يحرمها الصعود بمقعدها الى الشرفة الجميلة التي قضت فيها اسعد اوقات طفولتها .. لكنني آثرت الصعود بالسلم ، لاستمتع بالمناظر الرائعة المحيطة بالقصر ، من نافذة كل طابق .. وحين بلغت السطح الفسيح تأهبت للقاء الفتاة ، وكان ظهر مقعدها الي ، والى جانبها منضدة صغيرة عليها بعض الكتب وفوتوغراف مفتوح .. فرأيت ان ادور حول مكانها من بعيد حتى لا افاجئها من الخلف مباشرة فتفزع .. فلما اتممت دورتي وصرت في مواجهتها تبينت انها نائمة ! وكانت ساقاها مدثرتين بغطاء ثقيل وقد اراحت رأسها على وسادة بيضاء ، تحيط بوجهها الشاحب المفعم طفولة هالة من الشعر الفاتح المائل الى الحمرة .. .. وقد اضفت الشمس الغاربة على وجنتيها مسحة من ذهب وكهرمان تنم عن الصحة !

وانتهزت الفرصة كي اتأمل الفتاة على مهل ـ لاول مرة ـ كما لو كانت صورة .. فانها ـ ككل ذات طبيعة حساسة ـ لم تكن وهي مستيقظة تسمح للعين ان ترقبها او تتأملها بنظرة طويلة فاحصة . اما الان فقد اتيحت لي الفرصة كاملة ، وان كنت احسست كأني ارتكب امرا

غير لائق ، بل كأني اغتصبها بالاكراه !.. كانت الطفولة والانوثة تختلطان في معالم وجهها على صورة جذابة !.. وكانت شفتاها المتفرجتان قليلا كما لو كانت ظمأى ، تتنفسان في هدوء ورقة . ولكن حتى هذا المجهود الضئيل كان الشاحب المقيم وسط هالة شعرها كعصفور في عشه ، فقد غاص في الوسادة .. وبدا كالمهموك الذي امتص منه دمه !

واقتربت منها اكثر ، في حذر بالغ . وكانت الظلال التي تحت عينيها ، والشرايين الزرقاء على صدغيها ، والشفافية الحمراء لخياشيمها ، تظهر مدى رقة بشرتها التي نتحمي لحمها المرمري الشاحب عن العالم الخارجي . وحدثت نفسي قائلا : «ما ارهف احساس الشخص الذي تكون اعصابه هكذا ، وملاصقة للسطح الخارجي .. وكم يكون الم الشخص الذي له مثل هذا الجسد الهوائي الخفيف ، الذي كأنما جعل ليحلق ويرقص ويسبح ، حين يحكم عليه بأن يقيد في قوة الى الارض الثقيلة الصلبة !.. مسكينة هذه المخلوقة الكسيحة ! »

ومرة اخرى احسست في اعماقي اضطرام تلك الشفقة الموجعة المنهكة الضارية التي تغمرني كلما فكرت في الفتاة التعسة .. فاضطربت يدي وانتابني حنين قوي الى ان المس ذراعها في رقة وان انحني عليها واقطف ابتسامة من شفتيها في اللحظة التي تستيقظ فيها وتعرفني !.. وشعرت بشوق جارف الى ان ادنو منها ، واظهر لها عطفي البالغ ورقتي .. لكني عدت فقررت انني ينبغي الا اقطع هذا النعاس الشهي الذي يبعدها عن نفسها وعن بشاعة حياتها الواقعية !.. وانه لمن امتع الاشياء ان يكون الانسان قريبا من المرضى خلال نومهم ، حين تعتقل كل افكارهم المحمومة فينسون تماما علتهم حتى لتشرق احيانا على شفاهم ابتسامة كأنها الفراشة على ورقة واهنة من اوراق الشجر ، ابتسامة غريبة عنهم ولا تمت اليهم بصلة .. ابتسامة تطير مجفلة لحظة يستيقظون !..

على ان اقوى ما حرك اشجاني في تلك اللحظة ان يديها المعروقتين النحيلتين ، كانتا ممدوتين فوق مسندي المقعد بأظافرهما الشاحبة وعظامهما الرقيقة الواهنة .. وقلت لنفسي : « هاتان اليدان اللتان لا تقويان على اكثر من حمل الحمائم والارانب والعصافير .. كيف يمكن قهر الالم بهاتين اليدين الضعيفتين ؟ » . واحنقني ان اتذكر يدي القويتين الثقيلتين ، اللتين تسيطران على زمام اضخم جواد بغير عناء !.. ودون وعي مني انتقل بصري على الاثر الى الغطاء السميك الثقيل الذي يغطي ركبتيها الهزيلتين ، والذي تستكين تحته ساقاها العاجزتان المجردتان من الحياة ، مقيدتين في وثاقهما الحديدي او الجلدي .. وتذكرت كيف تجر الفتاة الجهاز القاسي معها في كل خطوة وهي المخلوقة الرقيقة التي جعلت لتطير وتقفز اكثر مما جعلت لتمشي على قدمين !

ولم استطع قمع رعشة سرت في كياني ، وكانت الرعشة من القوة بحيث هزت جسمي وجعلت مهمازي يصطكان فيحدثان صوتا فضيا خفيفا .. لكنه كان كافيا لان يخترق نقاب نعاسها الشفاف ، فتنفست نفسا طويلا مضطربا وبدأت يداها تتحركان ، واصابعها كأنما تتثاءب ..

ثم اختلجت اجفانها وخفقت اهدابها ، ثم انفرجت .. فوقعت نظرتها علي ، جامدة خرساء في اول الامر ، واخيرا استيقظ وعيها فعرفتني .. واذ ذاك اندفع الدم دافقا قرمزيا الى وجنتيها ، كما يصب النبيذ الاحمر مرة واحدة في كأس من البللور !.. وقالت ـ كأني فاجأتها عارية تماما ! ـ واردفت محتدة : « لم لم توقظني فورا ؟ لا يليق ان تنظر الى شخص وهو نائم ، فاننا نبدو مضحكين ونحن نيام » .. فأجبتها محاولا انقاذ الموقف بنكتة : « هذا خير من ان نبدو مضحكين ونحن مستيقظون ! » .. لكن تقطيبتها ازدادت وضوحا ، وبدأت شفتاها ترتجفان في انفعال ، وواجهتني بهذه العبارة وهي تحدجني بنظرة حادة :

ـ لماذا لم تأت امس ؟.. لا بد انه كان لديك عذر قوي يبرر ان تتركنا ننتظر .. والا فقد كان في استطاعتك على الاقل ان تتصل بنا بالتليفون !؟

كان الهجوم مفاجئا ، قويا زعزع جراتي على الكذب وجرأتي على ذكر الحقيقة في أن واحد .. فرحت اردد عذري المختلق في ارتباك وانا انقل ارتكاز جسمي من قدم الى قدم ، بينما اصغت هي الى روايتي نافذة الصبر .. واخيرا قالت في لهجة صارمة باردة :

« آه .. وبماذا انتهت هذه القصة المؤثرة ؟.. هل اشترى رئيسك الحصان آخر الامر ؟ »

وقبل ان اجد مخرجا من ورطتي استطردت في حدة : « دعك من هذه الاكاذيب المضحكة ، فما من كلمة واحدة صحيحة مما تقول !.. كيف تجرؤ ان تحاول خداعي بهذه الاعذار المختلفة ؟ »

والقت بالقفاز الذي كانت تضرب به ذراع المقعد الى الارض في عصبية ، ثم استطردت قائلة : « انها كلها سلسلة من المخترعات ، فلا انك كنت مع رئيسك ، ولا كانت هناك تجربة للخيل .. وانما الصحيح انك كنت في المقهى منذ الساعة الرابعة والنصف ، وفي السادسة رآك سائق سيارتنا وكنت لا تزال تلعب مع زملائك ! »

وقبل ان تفك عقدة لساني مضت الفتاة حملتها التأنيبية فقالت :

ـ « ولهذه المناسبة ، لست ارى داعيا لان اعاملك بالمثل فأكذب عليك بدوري ، لانني لا اخشى الحقيقة .. واذن فلتعلم ايضا ان سائقي لم يرك عفوا وانما ارسلته انا خصيصا ليسأل عما جرى لك ، فقد حسبتك مريضا ـ لاسيما انك لم تخبرنا بالتليفون مقدما ـ ثم اني بطبعي لا اطيق الانتظار .. فقد تظنني متهوسة ، لكني هكذا خلقت !. وقيل للسائق في المعسكر انك بخير ، وانك منهمك في اللعب مع زملائك في المقهى .. وعندئذ طلبت من (اليونا) ان تذهب لترى سبب معاملتك ايانا بهذا الجفاء ، وهل يمكن ان اكون انا قد اسأت اليك في اليوم السابق ؟.. فاني اتهور في الحديث احيانا ، لست انكر هذا .. هاك الحقيقة كلها ، والان الا تخجل من اكاذيبك ؟ »

وهممت بان اعترف لها بقصة « جوسي » و« كفانا استماعا للقصص المختلفة ، اذا

سمحت !.. لا داعي للاكانيب المتوالية ، فقد ضقت ذرعا بالاكانيب ، شبعت منها حتى اتخمت !.. انهم لا يكفون عن محاولة التمويه على كل صباح ومساء لايهامي بأني في طريق الشفاء ، وان حالتي قد تحسنت كثيرا ، وما من واحد منهم يدرك ان هذا يحنقني اكثر من الحقيقة !.. لم لم تذكر لي في صراحة انه لا وقت لديك ، ولا ميل ، للحضور مساء امس ؟ كان يسرني ان تتصل بنا حتى بالتلفيون ـ لتذكر انك ستقضي السهرة مع اصدقائك . او تعتقد اني من الغباء والسخف بحيث لا اقدر انك تمل احيانا صحبتنا المستمرة وتتوق الى قضاء وقت

فراغك في ركوب الخيل او المشي على الاقدام ، بدلا من الجلوس بجوار مقعد فتاة كسيحة ؟. ان شيئا واحدا هو الذي يثير اشمئزازي وغيظي : الكذب ! اني لست صغيرة ولاغبية ، وفي وسعي تحمل قدر كبير من الصراحة . منذ ايام جاءتنا خادم جديدة مكان العجوز التي ماتت ، وقبل ان ينبهها احد الى حالتي فوجئت برؤيتي اسير بمعونة عكازي ، فألقت مكنستها في ذعر وصاحت : « رباه ، ولكني منعتها .. فقد اعجبتني المرأة اعجبني ذعرها الصادق الطبيعي ، غير المفتعل فمنحتها عشرة ريالات اخذتها ومضت الى الكنيسة لتصلي من اجلي .. وطيلة اليوم شعرت بانتعاش وانشراح كبيرين . سرني ان اعرف اخيرا حقيقة ما يحسه الناس حين يرونني لاول مرة !.. اما انت ، انتم جميعا ، فتحسبون انكم تموهون علي برقتكم الزائدة وعطفكم المثير ، بل بعنايتكم الوحشية .. ولكن هل تظنون ان ليست لي عينان في رأسي استشف بهما من

وراء بسماتكم الزائفة واحاديثكم الضاحكة المرحة ، قلوبكم المنفطرة ونظراتكم الحائرة المنقبضة وانتم ترون حالي ؟!.. اني اعلم جيدا انك تطلق تنهدة ارتياح حين تغلق الباب وراءك تتركني راقدة في مقعدي كالجثة .. اعلم جيدا كيف تدير عينيك عني لتهمس لنفسك : (يا للطفلة التعيسة !) .. بل اعلم مبلغ سروركم من انفسكم لكونكم تخصصون من وقتكم ساعة او ساعتين لتسلية (العاجزة المسكينة) !.. لكني لا اريد تضحياتكم .. لا اريد ان تشعروا بأن عليكم واجب التصدق علي كل يوم بجرعة من شفقتكم !.. اقول لك اني في غنى عن شفقتك الغالية .. فاذا كان يلذ لك ويسرك ان تحضر فمرحبا بك والا فبربك لا تطأ عتبة هذا البيت بعد اليوم »

نطقت بالعبارات الاخيرة وقد بلغ منها الاجهاد فشحب وجهها وانطفأت عيناها .. ثم سكنت ثورتها وسقط رأسها الى الوراء في اعياء ، ولم يعد الدم الا تدريجيا الى شفتيها المرتجفتين !.. وبعد ان استراحت هنيهة قالت في لهجة خافتة تشي بالخجل : « كان لا بد ان افرغ جعبتي يوما ما .. اما وقد فعلت وقلت كل ما اردت قوله فدعنا لا نعود الى هذا الموضوع مرة اخرى .. اعطني .. اعطني سيجارة ! »

وكنت لا ازال مشدوها من حملتها المفاجئة ، فقدمت اليها السيجارة ويدي ترتجف ، حتى لقد انطفأ عود الثقاب مرتين قبل ان اتمكن من اشعال سيجارتها . ويبدو انها لاحظت

اضطرابي ، فقد عادت تقول لي ، بلهجة رقيقة هذه المرة : « ماذا بك ؟ انك ترتعش !. ماذا يعنيك من الامر كله ؟ » .. وانطفأ لهب الثقاب الهزيل ، فبقيت في مكاني صامتا ، بينما غمغمت هي في شيء من الانزعاج : « ان ابي على حق !. انك حقا شخص .. غريب جدا . »

وفي تلك اللحظة سمعنا من الخلف صوت المصعد يقترب من السطح .. وبعد لحظة برز منه الهر كيكسفالفا !



خدمة في
مقابل خدمات

نهضت لاحيي السيد كيكسفالفا ، وساد الصمت بيننا هنيهة بعد ان انحنى على ابنته وقبل جبينها في حنان ملحوظ .. وكانما احس قلبه بما كان بيننا من توتر ، كأنه يود لو ينسحب عائدا من حيث جاء ، لولا ان قطعت انيث حبل الصمت وابتدرته قائلة في مرح متكلف : « اتعرف يا ابي ان هذه اول مرة يرى فيها الملازم هوفميلر هذا السطح ؟ » .

وانتهزت انا هذه الفرصة فقلت : « هذا صحيح ، وانه لمكان رائع حقا ! » . ثم عدت الى صمتي ، بينما عاد هو فانحنى على ابنته وقال لها : « اخشى ان يميل الطقس بعد قليل الى البرودة ! .. افلا يحسن ان ننزل ؟ » . فوافقت الفتاة على الفور .

وقبل ان يتحرك بها المصعد قال لها : « ربما تبغين ابدال ثيابك قبيل العشاء . وفي هذه الحالة نستطيع نحن ان نقوم بجولة في الحديقة » . فأمأت برأسها موافقة ولم تتكلم . وسرعان ما هبط المصعد بها وكأنه يهوي في جوف بئر عميقة ! . وفيما نحن ننتظر عودته لنهبط به ايضا ، اقترب مني مضيفي الشيخ في تردد وحياء ، ثم قال لي هامسا : « هناك شيء احب ان احدثك فيه ، وهي خدمة ارجو ان تؤديها لي . فاذا لم يكن لديك مانع ففي استطاعتنا ان نتحدث في الامر في مكتبي الملحق بالحديقة ! » .

ولم يسعنى الا ان اعرب له عن ترحيبي بتأدية اية خدمة له ، ثم هبطنا بالمصعد الى الحديقة ، وسرنا بمحاذاة جدار القصر الى بناء منعزل في نهايته حجرة مكتب متواضعة لا تزيد

كثيرا على حجرتي في المعسكر ، فدخلناها حيث قدم لي مقعدا وجلس بجانبي على مقعد اخر ، بينما رحت اسائل نفسي : ماذا عساها تكون هذه الخدمة التي يطلبها هذا المليونير مني انا الشاب الفقير؟ !

واخيرا رفع الشيخ راسه المطرق ، فاذا جبهته مرصعة بالعرق ، وخلع نظارته المظللة بسحابة كالبخار .. فبدا لي وجهه المغضن ادعى الى الاشفاق وابلغ تعبيرا عن الاسى المرير . وبدت عيناه اشد كلالا وكآبة واعياء منهما تحت النظارة ، كما استطعت ان استنتج من الاحمرار الخفيف المحيط بجفونه انه لا ينام الا قليلا ، ونوما متقطعا ! . ومرة اخرى احسست بالشفقة تضطرم في اعماقي ، وشعرت بغتة اني لم اعد اجلس في مواجهة الهرفون كيكسفالفا الثري الكبير .. بل في مواجهة شيخ محطم قد ناء كاهله بالاحزان ! .

وبعد ان سعل قليلا قال لي بصوت اجش : « اريد ان اسألك معروفا كبيرا يا سيدي الملازم . وانا اعلم اني لا املك الحق في ازعاجك وانت لم تكد تعرفنا الا حديثا .. قد أكون متماديا في الجرأة اذ اطلب اليك شيئا كهذا .. لكني منذ لقيتك اول مرة شعرت بأنك اهل للثقة ، فانت تبدو من اول وهلة رجلا طيب القلب ، مستعدا لأن تمد يد المساعدة في كل وقت .. حتى ليخيل الي احيانا ان السماء قد ارسلتك الي كي استطيع ان اتحدث اليك في صراحة .. لكنني تماديت في الحديث قبل ان اسألك اولا هل ترغب في الاصغاء الي ! »

ولما ابديت رغبتي في الاصغاء ، زفر زفرة حرى وشكرني قائلا :

ــ الواقع اني مدين بالقدرة على تمييز الاشخاص لزوجتي يرحمها الله .. لقد كان فقدي اياها بداية المأساة ، وان كنت اعزي نفسي احيانا بأن من لطف الله بها انها لم تعش حتى ترى الفاجعة التي حلت بابنتها ، فانها ما كانت لتتحملها . وانت لا تعلم اننا حين وقع الحادث ، منذ خمس سنوات ، لم نكن نحسب الامر سيطول الى هذا الحد ، ولاسيما اننا نشأنا نحترم الاطباء ، ونسمع كل يوم عن المعجزات التي يحققونها ! . لهذا لم اجزع كثيرا في البداية ، كما ان ايماني بالله جعلني لا اصدق انه يمكن ان يحكم على طفلة بريئة بهذه الكارثة الى الابد .. فلو كنت انا الذي اصبت لفهمت حكمة شيء كهذا . فلقد ارتكبت في حياتي شرورا كثيرة .. اما هي ــ وهي المخلوقة البريئة ــ فان عقولنا لتعجز عن ادراك حكمة تقييدها الى مقعدها القاسي ، مدى الحياة !

ومسح محدثي العرق الناضح على شعره المجعد بظهر يده ، ثم استطرد فقال :

ــ « اننا لم نترك طبيبا سمعنا عنه الا استدعيناه ! . وكم اجتمعوا وتشاوروا باللاتينية ونصحوا باشياء كثيرة ثم اخذوا اجرهم ومضوا .. وبقيت الحال على ما هي عليه !... وحين تبينوا عقم علاجهم كانوا يهزون اكتافهم ثم يوصون بالصبر ! .. والآن لم يبق مثابر على معالجتها رافضا الاذعان لليأس ، غير واحد فقط .. هو الدكتور كوندور ! . انه ليس ذا مؤهلات علمية كثيرة ، او خبرة طويلة ، لكنه انسان عظيم ولا شك . فهو لا يشغل نفسه

بالحالات العادية التي يستطيع اي طبيب معالجتها ، وانما يقصر اهتمامه على الحالات العسيرة التي ييأس منها الاطباء الآخرون . وهو لا يطلق الامل حتى اللحظة الاخيرة ، بل يحيا ويموت مع كل مريض من مرضاه ، غير طامع في مال او شهرة لنفسه ! . انه لا يفكر في نفسه بل في الآخرين ، في اولئك الذين يتألمون .. اوه ، انه رجل رائع ! » .

وبلغ الانفعال بالشيخ حدا جعل عينيه المتعبتين تتألقان في حدة ، ثم واصل كلامه في حماسة قائلا « نعم انه رجل رائع ، ينظر الى كل حالة كأنها واجبه الاوحد .. بل انه حين يعجز عن ان يفعل شيئا يكاد يعد نفسه مسؤولا عن الكارثة ! .. هل تريد مثلا على ذلك ؟ . لقد زارته يوما امراة تشكو ازدياد ضعف بصرها ودنوها من مرحلة العمى الكامل ، فوعدها بالشفاء ، ولما عجز عن انجاز وعده وحلت بها الكارثة لم يسعه الا ان يتزوجها ! . تصور طبيبا شابا يتزوج امرأة عمياء تكبره بسبعة اعوام . . . ولا تملك مالا ولا جمالا ؟ ! .. انها الآن مخلوقة متعوسة تعد حملا ثقيلا على عاتقه ، فوق انها لا تعترف البتة بجميله ! .. من هذا المثل تستطيع ان تعرف اي رجل هو ، ومبلغ سعادتي بالعثور عليه ، على شخص يعنى بابنتي كما افعل انا نفسي ، حتى لقد تذكرته في وصيتي ! .. فلئن كان هناك انسان يستطيع ان يشفي ابنتي فانه هو ذلك الانسان .. عسى الله ان يوفقه ! »

وضم الأب المفجوع راحتيه في حركة ابتهال .. ثم دنا بمقعده مني .. ومضى في كلامه فقال :

ــ « والآن اصغ الي يا سيدي الملازم ، فاني اريد ان اسألك معروفا ! . لقد حدثتك عن مبلغ عطف الدكتور كوندور على ابنتي ، وعلى .. ولكني اخشى ان يكون شعوره هذا النبيل قد حمله على ان يخفي عني الحقيقة . انه دائما يعدني ويؤكد لي ان طفلتي سوف تشفى يوما ما .. لكني كلما سألته عن موعد حلول هذا اليوم تهرب من الجواب موصيا اياي بالصبر .. ولهذا اريد ان استوثق من الامر . وانا كما ترى شيخ متقدم في السن ، ومريض ، ويهمني ان اعرف هل سأعيش حتى ارى ابنتي تشفى ، وهل سوف تشفى حقا ؟ .. وصدقني يا سيدي الملازم اني لا اطيق العيش على هذا المنوال ، ولهذا اريد ان اعرف الحقيقة ، لأني لن استطيع تحمل هذا الشك بعد الآن ! »

وغلبه تأثره فنهض ومضى الى النافذة ! . وادركت انا انه يحاول بذلك ان يخفي دموعه لأنه ــ مثل ابنته ــ يأبى ان يكون هدفا للشفقة ! .. ثم اخرج منديلا من جيبه واخذ يمسح دموعه متظاهرا بانه يجفف عرقه ، ولكني لمحت اثر البكاء في احمرار جفونه ، وبعد ان ذرع الغرفة مرتين او ثلاثا اخذ نفسا عميقا ، كما يفعل السباح قبيل قفزه الى الماء ، ثم عاد الى مقعده واستأنف كلامه فقال :

ــ اغفر لي هذه الاطالة . لقد اردت ان اقول لك : ان الدكتور كوندور قادم من فينا غدا ليرى اديث . فهو يأتي كل اسبوعين او ثلاثة ليفحصها ثم يعود بقطار المساء .. وقد لاح لي انه لو اتيح لشخص اجنبي عن الاسرة ان يسأله ! في غير اهتمام كبير ــ عما يرجى للمريضة في المستقبل ،

وهل ستشفى يوما - ومتى .. فلعله يصدقه الجواب ، لأنه في هذه الحالة لن يشعر بحاجة الى مراعاة احساس السائل الغريب كما يراعي احساسي انا مثلا ، بوصفي والدها المسن المريض ! .. فهل تقبل ان تؤدي لي هذه الخدمة ؟

* * *

وما كان لي ان ارفض ، وقد وقف الأب المكلوم امامي دامع العين ، يتلقف الجواب من شفتي وكأن قضاء الله فيه ! . وهكذا وعدته باجابة كل ما طلب ، فمد الى يديه شاكرا واردف في انفعال : « كنت اعلم .. كنت اعلم انك ستقبل .. واعدك بان احدا غيري في الوجود لن يعلم يوما بأمر هذه الخدمة الجليلة التي سوف تؤديها لي ! »

فقلت له : « لكنها ليست خدمة جليلة .. انها عمل بسيط ! »

فقال : « بل انها خدمة على اعظم جانب من الاهمية . واني ليسرني ان اؤدي لك يوما اية خدمة في مقابلها .. اني اعرف كثيرا من الشخصيات البارزة في مختلف الوزارات ، وفي وزارة الحرب بالذات ، وفي هذه الايام يحتاج كل شاب الى من يسنده ويأخذ بيده ! »

واخجلتني حماسته في العرض ، ومواجهته اياي ــ لأول مرة منذ بداية الحديث ــ بنظرة مباشرة في عيني .. بينما امتدت يده تتلمس النظارة التي كان قد وضعها جانبا ، وثبتها على انفه باصابع مرتعشة .. ثم غمغم اخيرا : « لعله يحسن بنا ان نعود الى البيت قبل ان تثور شكوك ابيث بشأن سبب خلوتنا وتأخرنا ، فانها منذ اصيبت غدت مرهفة الاحساس الى اقصى حد ! »

ووجدنا الفتاة تنتظرنا في الصالون ، فوق مقعدها الطويل . ولم نكد ندخل حتى حدجتنا بنظرة فاحصة كأنما ارادت ان تنفذ بها الى اعماق سريرتنا لتقف على سرنا المشترك .. فلما لم نرو غليلها بالافصاح عن شيء ظلت بقية السهرة نافرة منطوية على نفسها !

* * *

كانت مهمة تافهة كما وصفتها تلك التي عهد الهر (كيكسفالفا) الي في القيام بها ، ولكنني مع هذا عجزت عن ادراك الاهمية المعنوية التي صارت لها بالنسبة لي ، فما من شيء يزيد ثقة المرء بنفسه ويسهم في تكوين شخصيته ، اكثر من ان يجد نفسه ــ على غير انتظار ــ امام مهمة عليه ان يؤديها بمجهوده الشخصي وعلى مسؤوليته الخاصة .

ولم تكن المسؤولية ذاتها غريبة علي ، فلقد طالما جابهت في عملي الوانا من المسؤوليات ، لكنها كلها كانت في نطاق محدود ، تتصل بواجباتي الحربية وتعتبر تنفيذا لتعليمات مكتوبة او مطبوعة ، او لتقاليد مرسومة في [illegible] .. اما المهمة التي كلفني بها الهر

(كيكسفالفا) فلم تكن موجهة الي باعتباري ضابطا بل باعتباري انسانا طيبا جديرا بالثقة .. على ان هناك حقيقة واحدة لم تغب عن ذهني هي ان هذا الرجل الغريب عني تماما قد اختارني — دون جميع اصدقائه واقربائه — كي انقذه من محنته ! .. وقد ادخلت هذه الثقة على قلبي من الغبطة اضعاف ما ادخلته عليه جميع عبارات الثناء التي تلقيتها من رؤسائي او اصدقائي .

على ان غبطتي تلك شابها شيء من الاستنكار ، بل الذعر ، عندما تنبهت فجأة الى ان شفقتي على الفتاة المنكوبة لم تتجاوز الناحية السلبية الجامدة.. والا فكيف جاز ان اتردد على هذا البيت اياما بل اسابيع متوالية ، بغير ان اوجه يوما الى احد افراده السؤال الطبيعي الذي هو اول ما يرد على الذهن في ظروف كهذه .. هذا السؤال هو : « هل الفتاة المسكينة الكسيحة ستظل هكذا دائما ؟ .وما رأي الاطباء في حالتها ؟ »

نعم ، انني لم استفهم قط من اليونا ، او من الهر كيكسفالفا ، او من طبيب المعسكر ، عن مصير الفتاة التي ازورها واقضي السهرة في ضيافتها كل ليلة ! .. وانما تلقيت عاهتها البشعة على انها امر واقع لا مجال للتفكير فيه .. واخيرا جاء حديث ابيها معي عن عذابه الطويل وحيرته بصددها اشبه بطعنة سكين في قلبي ، جعلتني افيق فجأة من سباتي وغفلتي فاتساءل : « هل يمكن ان تشفى الفتاة من شللها الرهيب وتعود فتمشي وترقص وتركب الخيل وتنطلق ضاحكة في المروج الخضراء ؟ »

وكأنما اسكرتني هذه الفكرة ، فلذ لي ان اتخيل ثلاثتنا وقد امتطينا جيادنا ورحنا نركض بها وسط الحقول .. ثم اتخيلها وقد خفت لاستقبالي عند الباب في موعد كل زيارة ، سعيدة مرحة ، حرة بدلا من انتظارها مقيدة الى مقعدها في الصالون !

وهكذا رحت احصي الساعات الباقية على موعد حضور الطبيب ، في لهفة شديدة لعلها تفوق لهفة كيكسفالفا نفسه ، ولبثت ارتقب اللحظة التي القى فيها الدكتور كوندور فامطره باسئلتي في شأن اديث .

* * *

وفي اليوم التالي حرصت على ان افرغ من عملي مبكرا ، ثم هرعت الى القصر قبل موعدي المألوف .. فاستقبلتني اليونا قائلة : « ان الطبيب قد وصل ، وانه في خلوة مع اديث منذ حوالي ساعتين ، يفحصها ويجرب معها بعض الاختبارات الدقيقة .. فجلسنا نلعب الشطرنج في انتظار فراغ الطبيب من مهمته .. ومضى وقت قبل ان نسمع وقع خطوات تقترب ، ثم دخل علينا (كيكسفالفا) والدكتور (كوندور) وهما لا يزالان منهمكين في الحديث .. فوجدت صعوبة في اخفاء شعوري بخيبة الامل عند وقوع بصري على الطبيب الذي اطنب مضيفي في اطرائه

والاشادة بعمله وخلقه .. فقد توقعت ان ارى رجلا ذا طلعة مهيبة ، وعين حادة نفاذة ، وهيئة توحي بالثقة وتنم على الذكاء اللماح .. ومن ثم غاص قلبي حين رأيتني انحني تحية لشخص قصير بدين اصلع الراس قصير النظر ، تبعثر على سترته الغبراء رماد السجاير بكثرة ، واعوج رباط رقبته فوق قميصه . وبدلا من النظرة الحادة طالعتني من عينيه نظرة بليدة فاترة تطل من خلف نظارة معدنية رخيصة مثبتة على انفه ! .. وقبل ان يفتح كيكسفالفا فمه ليقوم بتعريف كل من الى الآخر . مد الطبيب الي يده في تكاسل ، ثم جلس على مقعد مريح وهو يقول مواصلا كلامه :

ـ اخيرا يجد المرء فرصة ليستريح ! .. ثم دعني اصارحك يا صديقي اني اكاد اموت جوعا ، وحبذا لو اعد لنا جوزيف المائدة فورا او اسعفني ببعض الشطائر مؤقتا .. اني دائما انسى ان قطار بعد الظهر هذا لا تلحق به عربة طعام .. آه ، هذا هو جوزيف يفتح باب غرفة المائدة .. مرحى مرحى جوزيف ، انك دائما دقيق في مواعيدك ! »

ودون اية كلفة ، تقدمنا الطبيب الى المائدة فجلس بغير ان ينتظرنا ونشر منشفته على صدره وشرع يشرب الحساء في لهفة وفي صوت مسموع ، بينما راحت عيناه القصيرتا النظر تختلسان النظرات الى زجاجات النبيذ في شراهة .. ثم طلب من الساقي قدحا من البيرة لفتح الشهية ، وبعد ان تجرعه مرة واحدة ، اجهز على الطبق الثاني الذي قدم له على الفور ، وبقي مستغرقا في الاكل الى حد شغله عن ان يوجه كلمة الى احد منا .. وبدأت شراهته تثير اعصابي ، ربما لاني يئست من ان افوز بطائل ، في صدد الموضوع الذي يهمني ، من هذا المخلوق السوقي الذي لا يفكر في اكثر من الطعام والشراب ! .

وبين حين وآخر كان يقطع حركة المضغ والبلع ليلقي اسئلة وتعليقات تافهة لا تحتاج الى جواب ، بينما تجاهلني انا تجاهلا تاما ، قابلته بمثله فلزمت الصمت المطلق ! .. وحين انتقلنا اخيرا الى الصالون . حيث كانت اقداح القهوة تنتظرنا ، القى الدكتور كوندور جسمه المكتنز على مقعد « ابيث » الخاص ، الذي كان مزودا ومبطنا بالوسائد المريحة والمساند الجانبية .. ثم تناول ثلاث لفافات من السجاير الفاخر ، ووضع لفافتين منها على طبق قدح القهوة ، كمدد احتياطي ! .. وبعد ان افرغ في جوفه الفنجان الثاني من القهوة اطلق من فمه صوتا اشبه بصوت الخنزير الذي التهم وجبة دسمة .. ثم التفت الى كيكسفالفا قائلا في تهكم وهو يغمز بعينه ويتمطى متثائبا :

ـ انك تبدو نافذ الصبر في انتظار سماع تقرير عن الحالة . ولكن كان ينبغي ان تتذكر اني لا احب الخلط بين الطعام والعمل ، هذا الى اني كنت جائعا ومتعبا الى اقصى حد .. فقد لبثت واقفا على قدمي منذ الساعة السابعة والنصف صباحا .. والآن يا صديقي ..

وهنا سكت ريثما جذب نفسا طويلا من السجاير ثم اطلق حلقات من الدخان الازرق في الهواء ثم قال : « الآن نستطيع ان نتحدث .. ان كل شيء يسير سيرا مرضيا : تمرينات المشي

وتمرينات مد الساقين .. كلها تتحسن تحسنا ملموسا .. وانما الشيء الوحيد الذي وجدته متغيرا قليلا ــ وارجو الا تقلق البتة يا صديقي العزيز ــ هو حالتها النفسية ! »

وبرغم استدراك الطبيب ، بدا على كيكسفالفا الانزعاج ، حتى اهتزت الملعقة في يده ، وقال مقاطعا : « تغيير ؟ . ماذا تعني ؟ .. اي نوع من التغيير ؟ »

فقال الطبيب : « لم اقل انه تغيير الى اسوأ . لا تحمل كلامي اكثر مما يحتمل .. انا نفسي لا اعلم حتى الآن ما حدث ، لكني لحظت ان شيئا ما ليس على ما كان ينبغي .. شيئا لا يمت الى مرضها بل الى نفسها ، حتى لقد شعرت اليوم ، لأول مرة ، كأن زمامها قد افلت من يدي الى حد ما .. ويحسن ان نعالج الموقف بصراحة ونكشف جميع اوراقنا ، فقل لي يا صديقي بكل اخلاص وصدق : هل دفعك قلقك على ابنتك الى استقدام طبيب آخر لفحصها اثناء غيبتي ؟ . وهل فحصها طبيب ما بعد زيارتي السابقة ؟ »

فصاح كيكسفالفا في استنكار وكأنه اتهم باثم فظيع : « كلا ! . واقسم لك بحياة ابنتي ! »

فقال الدكتور كوندور : « حسنا جدا . هذا يكفي فوفر ايمانك المغلظة . اني اصدقك بغيرها واعتبر المسألة منتهية .. واذن لا بد ان هناك عاملا آخر احدث ذلك التغيير ! »

ومرة اخرى صاح الأب جزعا : « ولكن ماذا بها ؟ ماذا تقصد بقولك انها تغيرت ؟ »

فقال الطبيب : « يا عزيزي انك تعقد الامور بجزعك هذا . اقسم لك بشرفي ان ليس ثمة داع للقلق ، والا لما جلست هكذا احدثك عن الامر من مقعدي المريح وانا اجرع خمرك المعتقة ! .. ولهذه المناسبة هذا الكونياك رائع حقا ! »

ثم اضطجع في مقعده ، واغمض عينيه لحظة ، واستطرد فقال : « انه لمن الصعب حقا ان اشرح وجهة نظري .. فانها تدور حول الصلة الروحية التي تنشأ بين المريض وطبيبه ، ذلك المزيج من الثقة والشك الذي يتبادلانه ، والذي يكون في « مد وجزر » .. ان الامر يشبه ــ مع الفارق ــ امر الجواد الذي يقترضه منك شخص لبضعة ايام اخرى ! .. ولقد لاحظت اليوم مثلا ان ايديث تبدي شيئا من « المقاومة » لتمريناتي واختباراتي ، وتعرب متذمرة عن شكها في ان تكون لها اية فائدة او نتيجة .. وهذه الظاهرة تحدث منها لأول مرة ! .. على اني لا اقصد ان هذا التمرد منها يدل على سوء حالتها ، بل انه ــ على العكس ــ قد يكون من اعراض ازدياد رغبتها في الحياة ولهفتها على الشفاء .. ويخطىء من يظن اننا معشر الاطباء نرحب بالمريض المستسلم ، فان استسلامه قد يعوق العلاج ، في حين ان تمرد الاخر قد يحدث المعجزة التي تتم الشفاء ! .. لذلك اكرر لك اني لست قلقا البتة ، بل اني اذا فكرت الآن في تجربة علاج جديد فاني اكاد اكون واثقا بأن الفتاة سوف تبذل مجهودا نفسيا جبارا كي تشفى ! .. لست ادري اذا كنتم تفهمون كلامي ؟ »

وهنا اندفعت انا قائلا بغير وعي : « نعم .. بلا شك » ، وكانت الكلمة الاولى التي اوجهها الى الطبيب منذ وقع عليه بصري ، فقد بدا الامر لي واضحا كل الوضوح .. اما الآب فقد ظل يحدق في الفضاء بعينين لا تريان .. وقد شعرت بانه لم يفهم شيئا من كلام الطبيب لسبب بسيط هو ان مخاوفه كلها ، كانت مركزة في سؤال واحد هو « هل تشفى ابنته يوما ؟ ومتى ؟ » . وقد قرأت في عينيه انه يود لو يلقي على الطبيب مزيدا من اسئلته ، لولا خشيته من ان يضايقه ! وانتهز الطبيب فرصة الصمت القصيرة فنهض وهو يقول :

« احسب ان في هذا الكفاية اليوم .. واذا حدث ان اظهرت ابيث في الايام المقبلة شيئا من العصبية ونفاد الصبر فلا تنزعجوا ، فانني لن البث ان اضع يدي على العامل المجهول .. وفي انتظار ذلك ارجو منكم ان تضبطوا اعصابكم ولا تظهروا للمريضة ادنى قلق او اضطراب .. والآن دعوني انصرف ، وارجو الا تستدعي سيارتك لتقلني فانني ارغب في المشي قليلا كي استنشق شيئا من الهواء النقي واستمتع بالمطر الرائع ! »

وهنا تذكرت مهمتي ، فانتهزت الفرصة وزعمت اني مضطر لليقظة مبكرا ومن ثم ينبغي ان انصرف بدوري .. فأضاء الأمل عيني الكهل وهو يرمقني من وراء ظهر الطبيب بنظرة ذات معنى !

* * *

لم نكد ـ الدكتور كوندور وانا ـ نبلغ السلم المؤدي الى الحديقة حتى اخذنا بمنظر يبهر الابصار .. كان القمر المكتمل اشبه بقرص من الفضة المجلوة قد علق في السماء المرصعة بالنجوم ، والحصباء تبرق مثل البرد بين صفي الاشجار المتاخمة للممر ، والتي ينطرح امام كل منها ظلها ، فتبدو هي اشبه بالزجاج في الضوء ، وظلالها مثل اشباح في الظلام ..

والسكون الساجي يشمل الحديقة الغارقة في فيض من السنا الثلجي .. فسرنا صامتين ، ماخوذين بروعة الطبيعة المحيطة بنا ، حتى مرقنا من باب الحديقة الخشبي ودلفنا الى الطريق .. وعندئذ التفت هو الي قائلا ، في بساطة لم أتوقعها منه :

« مسكين كيكسفالفا ! .. اني الوم نفسي لكوني اجبته بخشونة ، لكنه كان خليقا بأن يمطرني بمائة سؤال وسؤال في الموضوع نفسه ... وقد كنت من الاجهاد والتعب بحيث لم احتمل مزيدا .. والواقع ان الذي يرهقنا ويجعل الحياة شاقة علينا ، في مهنتنا هذه ، ليس الحاح المرضى انفسهم واسئلتهم ـ فهذه كلها امور مقبولة منهم بحكم مرضهم ، عدا ان لنا في الرد عليها جعبة لا تفنى من المسكنات والاكاذيب البيضاء ـ وانما الذي يضايقنا حقا الحاح أقارب المرضى واصدقائهم ، فهم يحاصروننا كما لو كان مريضهم هو وحده الذي ينبغي ان

نفكر فيه ولا نهتم بسواه ! .. وقد افهمت كيكسفالفا اكثر من مرة ان عندي في المدينة حالة خطيرة يتأرجح صاحبها بين الحياة والموت منذ ايام ، وتتطلب مني اليقظة المستمرة .. ومع ذلك فهو لا يفتأ يتصل بي بالتليفون كل يوم ليمطرني باسئلته التي لا تنتهي ويحاول ان ينتزع مني باي ثمن كلمة تبعث الامل في نفسه .. وانا اول من يدرك ضرر هذا القلق المستمر عليه ، ومن حسن الحظ انه لا يقدر مدى هذا الضرر !

واحسست بانقباض مفاجيء ... اذن فالحالة سيئة حقا ؟ .. لقد امدني كوندور ، بهذه العبارة ، بالمعلومات التي كنت ابغي استيفاءها منه . ولم يبق الا ان استحثه على ان يزيدني علما بالتفصيلات .. فقلت له : « لا تؤاخذني يا سيدي الطبيب .. لكني لم اكن احسب ان ايديث في حالة سيئة الى هذا الحد ؟ ! » .

فقاطعني فورا في دهشة : « ايديث ؟ ماذا تعني ؟ .. اني لم اقل شيئا عن حالة ايديث .. وانما عنيت اني قلق على كيكسفالفا نفسه .. الم تلحظ مدى انحلال صحته خلال الاشهر الاخيرة ؟ ! »

فقلت : « اني لم اتشرف بمعرفة الهر فون كيكسفالفا الا منذ اسابيع فقط »

فقال : اذن ليس في وسعك ان تلمس التغير الكبير الذي طرأ عليه . اما انا فيزعجني حقا ان أرى نحوله ، وبروز عظام يديه وشرايينه ، ولون بشرتهما الذي يذكرني بايدي الموتى .. والواقع ان امثال كيكسفالفا من الرجال الذين عاشوا اقوياء نشطين ، هم الذين يضرهم ابلغ الضرر ان يستسلموا لعواطفهم ، ويعتبر من نذر الخطر على حياتهم ان ينقلبوا من قساة عنيدين الى شفيقين رقيقي القلوب ! ..وقد فكرت منذ امد في فحصه وتحذيره سوء العاقبة لكني خشيت ان ينقلب قصدي علي فيقتله الوهم والخوف .. قبل ان يقتله الضعف والمرض ! .. ولعلك تقدر انه ليس من اليسير على مثله ان يشعر بدنو شبح الموت منه وقرب فراقه لوحيدته اذا كان سيخلفها وحيدة في الدنيا كسيحة لا حول لها ولا طول ! .. كلا يا سيدي الملازم ، لقد اخطأت فهمي .. فليست ايديث موضع اهتمامي الآن بل هو ابوها .. واخشى ان تكون ايامه على الأرض معدوده ! »

وصدمني قوله ، فان شيئا كهذا لم يخطر ببالي من قبل ، ولم اكن قد فجعت طيلة حياتي في اي قريب او صديق لي ، فلم استطع ان اتصور كيف يمكن لشخص كنت اتناول الطعام معه واتحدث واشرب .. ان يشرق عليه الصباح التالي فاذا هو جثة هامدة في كفنها ! .. وادركت من الوخزة التي طعنت قلبي على الاثر اني قد تعلقت فعلا بكيكسفالفا .. فقلت في نوبة انفعالي واشفاقي : « يا له من امر محزن ان يموت مثل هذا الرجل النبيل الكريم الطيب ... بل الارستقراطي الاصيل حقا ! »

وهنا توقف كوندور في مكانه ، وقد بدت عليه الدهشة الهائلة وقال لي وهو يكاد يكذب سمعه : « نبيل ؟ .. ارستقراطي ؟ .. اعذرني يا سيدي الملازم ، ولكن .. احقا تعني كيكسفالفا بهذه الاوصاف جادا ؟ »

فخيل لي . من فرط استنكاره ، اني قد تفوهت بحماقة ما .. فاجبته في شيء من الحيرة : « اني احكم عليه بوحي من خبرتي الخاصة .. فمنذ عرفته لست في جميع تصرفاته وحركاته دلائل الجلال والاصل العريق .. »

لكني توقفت عن الكلام من تلقاء نفسي ، حين لمحت امارات الاستغراب تتزايد على وجه محدثي ، وهو واقف تجاهي ، وتلمع في عينيه خلف نظارته السميكة .. حتى لقد خلت نفسي امامه كحشرة صغيرة تحاول التملص تحت عدسة (ميكروسكوب) ضخم ! .. ثم استانف الطبيب كلامه فقال :

ـ يصعب علي ان اصدق انك رغم تكرر زياراتك للقصر ، في هذه البلدة الصغيرة التي تسري فيها الشائعات وتعرف الاخبار بسرعة هائلة ، لم تصادفك مناسبة تسمع فيها من احد الاهالي او من زملائك الضباط ملاحظة او تعليقا يتنافى مع حسن ظنك في (نبل) هذا الرجل .. وهذا يزيدني اقتناعا بسذاجتك ! .. والواقع انني طالما اتهمته بالمغالاة في وصفه اياك ، وشككت بعض الشيء في حماسته لك ، فلقد عجزت عن ان اصدق حقا انك لم تتردد على داره من بادىء الامر الا تكفيرا عن سقطتك الاولى ، وبدافع العطف الخالص على ابيث والصداقة البريئة للأسرة ! .. بل لقد حدثت نفسي بانك واحد من اثنين : اما شاب بعيد النظر يحاول ان يظفر بصيد دسم او حدث ساذج العاطفة استجاب ، كما لا يستجيب غير الشباب وحدهم ، الجاذبية مغامرة من المغامرات المفجعة الخطيرة .. وعلى اية حال فلست ارى مبررا لأن تخجل من الصداقة الخالصة التي اظهرتها له ولابنته ، او تدع اقاويل الناس تؤثر في صلتك بالاسرة .. فان تلك الاقاويل لا تنطبق على الشخص الرقيق الحنون المستحق للعطف والرثاء .. الذي صاره « كيكسفالفا » في هذه الايام !

وكان الدكتور كوندور يتكلم وهو يمشي الى جواري ، دون ان ينظر الي .. ثم لزم الصمت دقائق ، وقد بدا عليه التفكير والتردد ... واخيرا ابطأ الخطا والتفت الي قائلا : « اصغ الي يا سيدي الملازم .. ان المعلومات او « الايحاءات » المبتورة هي مبعث اكثر الشرور في هذه الدنيا .. وقد يكون لساني انزلق باكثر مما كان ينبغي ان اقول ، فاثار فضولك الى حد لن تقوى معه على مقاومة شوقك الى استفسار من الناس عن المزيد .. ولما كنت اخشى ان تجيء المعلومات التي قد يفضون بها اليك مخيبة لآمالك .. او تجد حرجا في المداومة على زيارة قوم لا تعرف عنهم شيئا .. فاني اضع نفسي تحت تصرفك ، اذا كان يهمك ان تعرف المزيد عن صاحبنا ! »

فلما اجبته مرحبا بمعلوماته ، نظر في ساعته ثم قال : « امامنا قبل موعد قطاري ساعتان ، في وسعنا ان ننفقهما في هذا الحديث .. في اي مكان هادىء تختاره ! »

تاريخ غريب

وفي مقصورة منعزلة بأحد المقاهي المعدة لخلوة العشاق .. حدثني الطبيب فقال :
ــ لعله يحسن بنا ان نترك الآن صديقنا الارستقراطي الهر فون كيكسفالفا ، فعندما بدأت القصة لم يكن يوجد رجل بهذا الاسم ، يملك الضياع الواسعة ويرتدي السترة السوداء والنظارة ذات الاطار المذهب ! .. لم يكن يوجد غير غلام يهودي ذي عينين نفاذتين وكتفين رقيقين ، يعيش في قرية صغيرة تعسة على الحدود الهنغارية السلوفاكية ، ويدعى (ليوبولد كانيتز) .. وكان كانيتز يعيش من حراسة جياد الفلاحين او عرباتهم وهم يحتسون الخمر في حانة القرية .. او يحمل للنسوة سلالهن اثناء عودتهن من السوق ، مقابل حفنة من البطاطس مثلا !

« اما والد كيكسفالفا ــ او بالاحرى والد « كانيتز » هذا ــ فكان يملك حانة متواضعة خارج القرية يؤمها قطاع الاخشاب والحونية كي يشرب كل منهم قدحا او اثنين من الخمر الرخيصة تدفىء اجسادهم وتعينهم على اجتياز سهول « الكربات » المكسوة بالجليد .. واحيانا كانت الخمر تصعد الى رؤوسهم فيتشاجرون ويحطم بعضهم مقاعد الحانة ومناضدها على رؤوس بعضهم .. وفي احدى هذه المشاجرات اصيب صاحب الحانة بصدمة قضت على حياته بعد مرض طويل ، دون ان يترك وراءه مالا تعيش عليه اسرته ، فاضطرت زوجته الى احتراف

غسل الثياب والقيام بمهمة القابلة في حالات الولادة التي تتعرض لها نساء القرية ، او بيع بعض البضاعة في الطرقات . بينما كان ليوبولد ابنها يسير معها حاملا بضاعتها على ظهره .. وفيما عدا ذلك كان الغلام يكسب بعض الدراهم من اي عمل بسيط يصادفه ، ويطوف بقرية بعد قرية لتوزيع منتجات احد الحوانيت .. في السن الذي يلعب فيها الصبية « البلى » ولا يعرفون شيئا من هموم الحياة كان (كانيتز) قد ذاق الكثير منها وعرف لكل جزء من درهم قيمته ! .. ثم تعلم القراءة والكتابة على يد رئيس الطائفة اليهودية في القرية ، فلما بلغ الثالثة عشرة استطاع ان يؤدي بعض الاعمال الكتابية لاحد المحامين ، وبعض الاعمال الحسابية وكشوف الضرائب لاصحاب الحوانيت الصغيرة .. ولكي يوفر كل قطرة من وقود الاضاءة صار يجلس كل ليلة تحت مصباح الاشارة الواقع على شريط السكة الحديدية كي يقرأ بقايا صحيفة ممزقة بغية الاستزادة من المعرفة والمعلومات العامة !

« فلما بلغ سن العشرين هجر القرية الى (فينا) حيث استطاع الحصول على عمل في احدى شركات التأمين ، الى عشرات الاعمال الاضافية المنوعة التي كان يقوم بها في اوقات فراغه بنشاط وهمة نادرين ، مما جعله يشبه (السمسار) او الوسيط في كل ما يصلح للوساطة من اعمال تجارية وغير تجارية .. وسرعان ما بدأ الاهالي يتنبهون الى نشاطه ثم يشعرون بحاجتهم اليه ، فقد كان مخزنا للمعلومات لا ينضب معينه ، يعرف كل شيء معرفة الخبير المطلع . فاذا ارادت ارملة ان تزوج ابنتها وجدت فيه نعم الوسيط للزواج .. وان رغب شخص في المهاجرة الى امريكا مثلا وجد عنده المعلومات و(الاستمارات) اللازمة وتيسير اجراءاتها .. وكان الى ذلك يشتري ويبيع الثياب القديمة والساعات والتحف الاثرية .. ويقدر قيمة الاراضي والمنقولات والجياد ويستبدلها لعملائه .. ويعقد القروض المالية للضباط ومن اليهم .. الخ — وكانت دائرة اعماله واختصاصاته تتسع عاما بعد عام !

« لكن ذلك كله ما كان ليعود عليه بثروة يعتد بها لولا تقتير صاحبنا الشديد في نفقاته .. من ذلك انه لم ينفق على ملبسه ومظهره طيلة عشرات من السنين غير ثمن هذه السترة السوداء والنظارة ذات الاطار المذهب اللتين تراهما عليه اليوم ، واللتين كانتا بمثابة رداء التنكر الذي اخفى تحته رواج احواله وانتقاله من مرتبة الوسيط البسيط الى مرتبة « المقاول » والراسمالي ! .. كان يعنيه ان يصير غنيا ، لا ان يبدو في مظهر الغنى !

« وبقدر شراهته في جمع المال كانت شراهته في زيادة معلوماته .. لم يكن يكف عن القراءة والدراسة في كل دقيقة تفيض من وقته اثناء حله وترحاله .. درس كتب القوانين التجارية والصناعية كي يستغني عن المحامين في اعماله ، وتتبع جميع المزادات الكبيرة في باريس ولندن باهتمام تاجر العاديات المحترف ! . وجعل من نفسه خبيرا في كل الصفقات المالية على اختلافها .. وهكذا تطور عملاؤه من فئة الفلاحين الى فئة المزارعين ، ثم فئة ملاك الاراضي الارستقراطيين ، وما يلبث ان صار يفاوض في بيع حاصلات مزارع كبيرة او غابات شاسعة ،

وفي بناء المصانع او تاسيس النقابات ، او التعاقد لتوريد ما يلزم للجيش ، وغير ذلك .. وصارت السترة السوداء والنظارة المذهبة تشاهدان اكثر فاكثر في اروقة دور الوزارات .. وبلغت ثروته نحو ربع مليون ريال ـ وربما نصف مليون ـ كل ذلك والناس ينظرون اليه نظرتهم الى الوسيط البسيط .. حتى اتيح له ان يضرب الضربة الكبرى فيتحول من « ليوبولد كانيتز » النكره المغمور الى « الهر فون كيكسفالفا » .

* * *

« .. وهذه المعلومات التي سردتها عليك وقفت عليها من غير صاحبها .. اما القصة التالية فقد رواها لي هو شخصيا على اثر اجراء جراحة خطيرة لزوجته ، اثناء انتظارنا للنتيجة واجفين في احدى غرف المستشفى ، بين الساعة العاشرة مساء ومشرق الفجر .. ومن ثم استطيع ان اؤكد لك صحة كل حرف منها ، ففي تلك الظروف لا يكذب الانسان عادة .. ! »

ورشف كوندور نبيذه في بطء وتأمل ، ثم اشعل سيجارا آخر مضى يتابع دخانه بنظرات حالمة .. واخيرا انتزع نفسه من شروده في حدة واستطرد فقال : « تبدأ القصة في قطار بطيء يسير من بودابست الى فينا .. وكان صاحبنا ـ رغم بلوغه الثانية والاربعين ، ودبيب المشيب في سالفيه ـ لا يزال يقضي اكثر لياليه في الأسفار ضنا باوقاته النهارية الثمينة ان تضيع في القطارات .. ولست في حاجة الى القول بانه كان يركب دائما في عربات الدرجة الثالثة ! .. وكان في اسفاره برنامج لا يتغير ، فهو يفرش على المقعد الخشبي الصلب خرقة سميكة بالية ، ثم يخلع سترته ونظارته ، ويرتدي سترة من صوف « التريكو » ، ويدلي قبعته على عينيه كي تحجب عنهما النور .. ويقبع هكذا في ركن العربة حتى يغلبه النعاس ـ وكان قد تعلم منذ صباه ان الانسان ليس في حاجة الى السرير كي يقضي الليلة ، او الى الراحة كي يستطيع ان ينام !

« لكنه في هذه المرة لم ينم ، فقد نمى الى سمعه حديث خافت يدور بين ثلاثة من جيرانه في العربة .. حديث اطار النعاس من عينيه ، فقد كان ينصب على المال ! .. كان احد الثلاثة يقول لمرافقيه « ان المحتال الماكر قد ربح من هذه الخدعة البسيطة ستين الف ريال في غمضة عين ! » .. وهنا راح (كانيتز) يحدث نفسه متسائلا : « ستون الفا ؟ .. من الذي ربحها ؟ وكيف واين ؟ .. وسرعان ما كان في اتم يقظة ، وكأن « دوشا » مثلجا قد بدد من حواسه كل

ميل الى النوم ، اذ غدت مرهفة لسماع قصة الستين الف ريال . ومن ثم جذب القبعة على عينيه اكثر من ذي قبل ، كيلا يلحظ رفاقه انه يقظان ، وانتهز فرصة كل ارتجاجة من ارتجاجات القطار كي يدنو بجسمه من المتحدث تدريجيا ، حتى لا تفوته من حديثه كلمة ، برغم ضجيج القاطرة .. وكان هذا ! ـ كما يبدو من كلامه ـ كاتبا في مكتب محام بفينا ، يروي في غيظ قصة مخدومة المحظوظ الذي ربح ذلك المبلغ الضخم دون عناء .. وبرغم ان الحديث كان مبتور

البداية ، فقد استطاع (كانيتز) ان فهم مضمونه بفضل انزلاق لسان المتحدث باسم الاميرة (اورورفار) التي كانت الصحف قد رددت اسمها كثيرا بصدد قضية مشهورة كانت بطلتها .. وساحاول ان الخص لك وقائع تلك القصة فيما يلي :

« كانت (اورورفار) اميرة روسية ثرية هاجرت من اوكرانيا على اثر وفاة زوجها .. ثم فجعت بوفاة طفليها الاثنين في ليلة واحدة بتاثير مرض السعال الديكي ، فامتلأ قلبها بالكراهية القاتلة لبقية اقاربها الذين يتطلعون الى ساعة موتها كي يقتسموا تركتها الضخمة ، فامتنعت عن مقابلة اي فرد منهم او فض اي خطاب يرسله اليها ـ ولعل حقدها على هؤلاء ورغبتها في

النكاية بهم كان عاملا نفسيا اعان على اطالة عمرها حتى بلغت الرابعة والثمانين ؟ ـ ولم تكن الاميرة ، بعد فواجعها الثلاث ، تطيق البقاء في قصرها بضيعة (كيكسفالفا) اكثر من شهرين كل عام .. اما بقية السنة فكانت تقضيها متنقلة بين مشاتي اوروبا ومصايفها الفاخرة : (نيس) و(ومنترو) و(كان) و(اكس ليبان) وغيرها .. حيث كانت تنفق عن سعة وبذخ وتستنفذ كل المتع التي يتحها لها ثراؤها العريض . وكانت لها تابعة ـ بمثابة وصيفة ـ تلازمها في كل تنقلاتها ، فتطعمها وتزينها وتعزف لها البيانو وتقرا لها الروايات الفرنسية الشائقة .. ثم تتحمل منها ، علاوة على كل هذه المتاعب ، توبيخها ونهرها ، بل وضربها اياها احيانا ، كلما ادارت (الفودكا) او الكونياك رأسها ! .. وكان اهالي تلك المصايف جميعا يعرفون الاميرة المتغطرسة وتابعتها النحيلة ذات العينين الشاحبتين التي تتبعها كظلها ، وتسير خلفها مع كلابها ، ولا تخفي خجلها من عجرفة مولاتها المبتذلة ، وان كانت تخشاها كما تخشى الشيطان !

« وكانت الاميرة قد اصيبت ـ في سن الثامنة والسبعين ـ بالتهاب رئوي حاد ، أثناء اقامتها بأحد فنادق (نيريتيه).. وتسرب النبأ الى اقاربها فهرعوا من بلادهم الى حيث احتشدوا في الفندق يطاردون الاطباء باستفساراتهم ويتعجلون موت مورثتهم !.. لكن الحيزبون شفيت آخر الامر ، فتفرق الاهل عائدين من حيث اتوا .. ورشت الاميرة بالمال خدم الفندق وسعاته كي يعيدوا على مسمعها ما قاله اقاربها فأيدت روايتهم ظنونها في مطامعهم الاشعبية ، فقد قيل لها انهم تشاجروا كعصبة من الذئاب حول من يأخذ ضيعة (كيكسنفالفا ، ومن يفوز بضيعة (اورزفار). ومن يستولي على الجواهر ، ومن تكون من نصيبه املاكها في اوكرانيا ، وقصرها في (اوفترستراس) .. الخ .. فأبرقت الاميرة على الاثر الى محاميها في بودابست كي يوافيها ، وبحضور طبيبين شهدا بامتلاكها لقواها العقلية حررت وصية جديدة ، ظلت في حرز حريز بعد ذلك ستة اعوام كاملة ، حتى وافى الموت اخيرا صاحبتها ففتحت .. واذا هي توصي فيها بجميع املاكها لتابعتها الانسة (انيت ديتزينوف) فيما عدا ضيعة « اوكرانيا » واموالها النقدية فقد تركتها لمجلس بلدية المدينة التي ولدت فيها كي يبنى بها كنيسة .. واوضحت الموصية في ختام وصيتها انها قد حرمت اقرباءها جميعا (لانهم لم يصبروا عليها حتى الموت !)

وصعقت الوصية اقرباء الاميرة ، فجندوا المحامين ورفعوا الدعاوى طالبين الحكم ببطلان الوصية باعتبار انها كتبت اثناء مرض الموت ، حين لم تكن صاحبتها متمتعة بكامل وعيها .. الى آخر الحجج القانونية والمزاعم المألوفة في هذا الصدد .. ولكن دون جدوى فقد خسروا قضيتهم في مرحلتيها الاوليين ، ولم يكن ثمة شك انهم سوف يخسرونها امام محكمة النقض ايضا

« والان نعود الى (كانتيز) وهو يستمع متناوما للحديث الذي يجري بجانبه في عربة القطار .. فقد كان يعرف الكثير عن ضيعة « كيكسفالفا » منذ بدء اشتغاله بأعمال الوساطة فسمع كاتب المحامي يذكر ان اقرباء الاميرة انتهزوا فرصة غياب محامي الوارثة في فينا لحضور قضية اخرى صغيرة ، وزار وفد منهم غريمتهم الانسة (انيت) وافلحوا في التأثير

عليها والتلويح لها بالراحة وهدوء البال والخلاص من مشاكل القضايا والمنازعات امام المحاكم ، في مقابل عقد تسوية خاصة معهم قبل موعد نظر النزاع امام محكمة النقض .. وقبلت الساذجة اقتراحهم فوقعت على التسوية المعروضة وبذلك فرطت بجرة قلم في اكثر من نصف الثروة التي ورثتها ..! وطبعا كان في الامكان اثبات بطلان هذه التسوية التي لم تتم بحضور محضر قضائي مختص ، والتدليل على ان الوارثة حين وقعت عليها كانت تحت تأثير عصبة الاقرباء المدلسين .. لكن هؤلاء عرفوا من اين تؤكل الكتف ، فسارعوا الى شراء سكوت محاميها عن اتخاذ اي اجراء ضدهم في مقابل ذلك المبلغ الدسم ، الستين الف ريال !.. وهكذا لم يبق الان للوارثة الحمقاء من الثروة الضخمة التي آلت اليها غير ضيعة كيكسفالفا ، وهي التي لن تلبث ان تفرط فيها بدورها فيما اعلم .. فان شخصا من رجال الاعمال يدعى « بتروفيك » يعتزم استئجارها منها بمبلغ زهيد !»

« وعند هذا الحد تشعب الحديث الى موضوعات اخرى ، ولكن بعد ان سمع كانيتز ما فيه الكفاية لكي يسيل لعابه .. فقد كان اعرف الناس بالكنوز والتحف التي يحتوى عليها قصر كيكسفالفا ، منذ توسط في التأمين عليها لدى احدى الشركات قبل عشرين عاما . وكان بينها اوان من الخزف الصيني المزخرف والحرير المشغول خلفها جد الاميرة الذي كان سفيرا لروسيا في (بكين).. وهي وحدها تساوي في نظر عشاق التحف من الامريكيين مبالغ طائلة ، فلو أمكنه الحصول عليها بثمن مناسب ، في زحمة انتقال ملكيتها من مالك الى آخر لكانت صفقة رابحة حقا ، لاسيما وهو يعرف (بتروفيك) الذي يقال انه سوف يستأجر القصر ..

« وهكذا صح عزم صاحبنا على ان يتسلل من القطار في اقرب محطة الى الضيعة ، وكان مقدرا ان يبلغها في منتصف الساعة الثالثة صباحا ، اي بعد نحو نصف ساعة .. وفي تمام الساعة السابعة غادر غرفته بفندق القرية متجها الى القصر ، بعد ليلة قضاها مؤرقا مثل القائد المقدم على معركة لا يطمئن الى نتيجتها !

« وتلاحقت دقات قلبه وهو يطرق باب الحديقة الرئيسي ، دون مجيب .. فمضى يطوف ببقية الابواب التي تتخلل سور الحديقة ، ويدقها بيده ، ويصفق ، ويصيح .. ولكن دون جدوى . وضاعفت من قلقه خشيته ان يكون (بتروفيك) اللعين قد هرع الى (بودابست) ليعقد صفقته مع الوارثة السانجة بغير ابطاء !.. واخيرا لمح امراة تسقى اصص النباتات داخل غرفة زجاجية تقع في طرف الحديقة ، فطرق على الزجاج بيده ، واشار للمرأة كي تفتح له احد الابواب .

واقبلت هذه اخر الامر تتعثر في مشيتها خجلا ، او ترددا .. وكانت امراة نحيلة جاوزت طور الشباب الاول ، ترتدي قميصا بسيطا قاتما و « مريلة » قطنية ، وتمسك في يدها مقص الحديقة الكبير نصف مفتوح فصاح بها نافد الصبر : (انكم تتركون الزائر ينتظر طويلا على الباب .. ولكن اين بتروفيك ؟)

«فاجابت المراة في تلعثم : (من ؟ آه ! تعني بتروفيتش ؟. اني لم اره ، ولكني احسب انه قد ذهب الى فينا ، وزوجته تأمل ان يعود الى هنا في المساء)

« وعز على كانيتز ان يقضي ليلة اخرى في الفندق ، ينفق فيها نفقات اخرى ، دون وثوق من النتيجة !.. ولعن سوء الحظ الذي جعل الرجل يختار هذا اليوم بالذات للتغيب عن البلدة ! وعاد يسأل المراة : (هل استطيع في انتظار ذلك ان القي نظرة على القصر من الداخل ؟ اليست المفاتيح معك ؟. هيا اذن ولا تخشي شيئا ، فلن اخطف منقولات من القصر وألوذ بالفرار ..!)

« وبعد مناقشة سقيمة تثير الاعصاب سمحت المراة له بالدخول ، فتبعها الى داخل القصر وهو ساخط على المحضر الذي ترك القصر في حراسة مثل هؤلاء الخدم الاغبياء !.. وعند الباب الداخلي بدا على المرأة التردد والارتباك ، من جديد .. فصاح بها وقد نفد صبره : (هيا اسرعي ، فليس عندى وقت اضيعه .. ماذا تصنعين انت هناك بربك ؟)
« فوقفت المراة مذعورة في مكانها بلا حراك ، ثم اجابت وقد احمر وجهها : (اني .. اعني « كنت » تابعة الاميرة)

« فتراجع صاحبنا برغمه خطوة الى الخلف ، وهتف بها مأخوذا : (اتقصدين انك انت الانسة انيت ديتزينوف ؟). فأجبات بلهجة الخائفة ، وكأنها تهمت بجريمة : (نعم .. أنا هي !)

« ولاول مرة في حياته احس كانيتز بالارتباك والبلبلة ، فخلع قبعته وغير لهجته وهو يردف قائلا : (ارجو المعذرة .. ارجو المعذرة يا آنسة .. لكن لم يقل لي احد انك وصلت .. لم اكن اظن . ارجو ان تغفري لي .. اني انما جئت لكي).. وتردد برهة ، كان ارجو ان تغفري لي .. عليه ان يختلق فورا سببا كاذبا لحضوره .. وما عتم ان استطرد فقال :(جئت بشان التامين

على القصر . لقد زرت هذا المكان مرارا اثناء حياة الاميرة الراحلة ، ولكن لسوء الحظ لم يقدر لي ان اتشرف بمقابلتك .. اني لم اجيء الا من اجل التأمين ، كي استوثق من ان كل شيء باق في مكانه .. واجبنا يقتضينا ذلك .. ولكن لا داعي للاستعجال)

« فقالت له : (لابأس !. في وسعك ان ترى بنفسك ان كل شيء باق في مكانه !).. فشكرها كانيتز بانحناءة مؤدبة ودلفا كلاهما الى الداخل .. وتبين صاحبنا صدق قولها ، وفيما هما يطوفان بأنحاء القصر كان الماكر يحدث نفسه قائلا : (يجب ان اظفر بصداقتها ، ولا ادعها تفلت من يدي !.. فلأشغلها بالحديث المتواصل ..)

« وأثناء الحديث راح يستدرجها الى الافضاء بالمعلومات التي تهمه ، فقال لها وهو يبدي اعجابه بالمناظر المحيطة بالقصر : (لكنك ستقيمين بيننا هنا فيما احسب ؟)
« واذ ذاك جاوبته على الفور : (انا ؟..كلا !. وماذا افعل وحدي في قصر فسيح مثل هذا ؟. اني سأغادره توا عقب انتهاء الاجراءات الرسمية)

« واختلس كانيتز نظرة اليها ، كانت المليونيرة الساذجة اشبه بقشة ضئيلة وسط الحجرة الفسيحة .. وفيما عدا شحوبها الشديد وهيئتها المذعورة كان الناظر اليها يستطيع ان يقول انها حسناء !.. وبحكم خبرة كانيتز بالطبائع البشرية أدرك توا انه امام مخلوقة ليس لها ارادة خاصة بها ، مخلوقة عاشت دهرا في مركز التابعة لغيرها بحيث صار من المستحيل عليها ان تجد الشجاعة الكافية لاتخاذ قرار بوحي ارادتها المستقلة .. وبحيث افزعها اكثر مما سرها ان ترث هذه الثروة الطائلة ، التي تجثم على قلبها كالحمل الثقيل !

« وبوحي خبرته ــ طيلة عشرين عاما ــ بوسائل الاغراء والاقناع في المسائل المالية ، بادر كانيتز الى الضرب على الوتر الذي لمس من المرأة ميلا اليه ، فقال لها : (لعلك محقة فيما اعتزمته .. فان ضيعة شاسعة مثل هذه لاتدع لمالكها لحظة واحدة يستريح فيها من متاعب المعاملات مع الزراع والجيران ومصلحة الضرائب والمحامين .. الخ ــ وادارتها تتطلب يدا حازمة تحسن البطش بالطامعين ، وحتى لو كان لك هذه اليد الحديدية فان الامر يقتضيك كفاحا طويلا شاقا).

« وامنت هي على كلامه مقتنعة بصحته ، بينما كان عقله يفكر بلا توان في اسلم السبل واسرعها الى تحقيق مطامعه والظفر باستئجار هذه الضيعة قبل ان يظفر به (بتروفيك).. وهكذا استمر في ادخال الرعب الى قلب المرأة حتى تقبل اي مبلغ يعرضه عليها ، مستغلا قلة خبرتها باستثمار الاموال ، وعجزها عن ان تساومه او تقاوم احابيله .. وهكذا مضى في ثرثرته متظاهرا بانه يتحدث عن غير غرض شخصي ، بينما كان كل عصب وكل خلية في مخه توازن وتدبر وتفكر بسرعة هائلة !

« وأصغت له المرأة مطرقة الرأس... وفجأة رفعت عينيها وزفرت زفرة حارة بدا كأنها خرجت من اعماق قلبها ، ثم قالت كالحالمة : (نعم .. ان هذه الضيعة حمل ثقيل .. آه لو استطعت بيعها !) »

وهنا سكت الدكتور كوندور فجأة ، ثم استأنف كلامه بعد قليل فقال :

ــ ينبغي أن اقطع حديثي ياسيدي الملازم كي اوضح لك ماكان لتلك العبارة الواحدة القصيرة التي فاهت بها المراة من صدى في نفس صديقنا كانيتز !.. لقد ذكرت لك انه روى لي هذه القصة خلال اظلم ليلة في حياته ، ليلة وفاة زوجته ، اي في ساعة من تلك الساعات التي لاتمر بالانسان اكثر من مرتين او ثلاثا طيلة العمر ، والتي يتوفق فيها اكثر الناس تحفظا الى كشف دخيلة نفسه لشخص ما . واني لاذكره ــ كما لو كان نلك بالامس ــ وهو يهمس لي بهذه القصة في صوت منفعل ، دون توقف ، كأنما يريد ان ينسى في غمرة حديثه أن زوجته تموت في غرفة اخرى من المصحة ، ولغرق حواسه في طوفان لا ينتهي من الكلمات !.. لكنه لم يكد يبلغ من قصته هذا الجزء ، الذي نطقت فيه المرأة بتلك العبارة ، حتى شحب وجهه وغص حلقه من انفعال الذكرى برغم انقضاء نحو ستة عشر عاما على نلك التاريخ ! وراح يكرر عبارة المرأة مرة بعد مرة باللهجة التي نطقتها بها : (آه لو استطعت بيعها !).. لقد ادرك كانيتز في تلك اللحظة ان فرصة وصفقة العمر كله قد لاحت له ، بل القت بنفسها بين يديه ، بحيث لم يبق عليه غير ان يغلق عليها قبضته : نعم في وسعه ان يشتري الضيعة الهائلة لا ان يستأجرها فقط !

« ومضت الافكار تتسابق في ذهنه وهو ماض في ثرثرته المتعمدة قائلا لنفسه : (يجب ان اشتريها فورا ، قبل ان يصل بتروفيك او سواه من المنافسين .. ولن ابرح هذا المكان الا وانا مالك كيكسفالفا الاوحد المحظوظ .. فلأقطع على المرأة خط الرجعة ولا ادعها تتملص من قبضتي !»

« وبتلك القدرة الغامضة التي تواتي المرء في لحظات نادرة من اليقظة الذهنية المرهقة للاعصاب ، مضى الماكر يفكر في مصلحته الخاصة في الوقت الذي يتحدث فيه الى المرأة حديثا مضادا لتلك المصلحة قائلا لها : (تقولين انك تريدين بيعها .. ان البيع يا آنسة امر سهل ، لكن البيع بسعر مرتفع فن قائم بذاته ، وهو النقطة الهامة في الموضوع .. انه يتطلب العثور على شخص امين يعرف المنطقة والارض والاهالي .. لا واحد من اولئك المحامين الذين يورطونك في اجراءات طويلة معقدة .. ثم ينبغي ان تجدي من يدفع لك الثمن نقدا ، ــ لا سندات او اوراقا مالية معرضة لتقلبات الاسواق) ــ وفيما هو يتكلم هكذا كان يدير الحسبة في رأسه قائلا : (في وسعي ان ادفع في الضيعة اربعمائة الف ريال ، او اربعمائة وخمسين الفا على الاكثر .. فان الصور والتحف التي في القصر تساوي وحدها نحو مائة الف .. هذا عدا القصر نفسه

والمزرعة !.. ولكن يجب ان استوثق اولا مما اذا كانت الضيعة محملة برهن ، وما اذا كانت المرأة قد تلقت عرضا محدد الرقم ، كسعر لها).. وفجأة القى كانيتز على محدثته هذا السؤال (هل لديك ـ واغفري لي يا آنسة هذا السؤال ـ فكرة تقريبية عن السعر ؟). فأجابته فورا وهي ترمقه بعينين زائغتين : (كلا !).. وساءه هذا ، فقد كان يعلم ان الجهلة بقيمة ما يملكون اصعب الناس عادة في التعامل ، لانهم لايكفون عن استشارة كل من هب ودب في شأن السعر ، وبذلك يرتفعون به الى اكثر مما يساوي عادة !.. لكن كانيتز لم ييأس ، بل واصل استفساراته فقال : (لكن لابد انك تعرفين اذا كانت الضيعة مرهونة او لا ، وبأي ثمن قدرت عند فرض الضرائب عليها .. افلم يذكر لك محاميك شيئا في هذا الصدد ؟)

« فقالت له : (آه !.. لقد ذكرتني .. منذ ايام كتب لي المحامي شيئا له صلة بتقدير الثمن او الضرائب .. نعم ، معك حق .. لكنه كتب بالهنغارية ، التي لا اعرف منها حرفا . واذكر الان انه اوصاني بتكليف احد بترجمتها ، لكني نسيت الامر كله من شدة انشغالي وارتباكي . لابد ان الاوراق كلها في حقيبتي ، فلو تكرمت بالصعود معي الى غرفتي فسأريك كل شيء .. هذا الا .. الا اذا كنت قد اثقلت عليك بمشكلاتي الخاصة !)

« وارتجف كانيتز من فرط الانفعال .. ان الثمرة تسقط في حجره بسرعة لا تحدث الا في الاحلام .. ان المرأة توشك ان تعرض عليه مستنداتها التي تحوي تقدير ممتلكاتها ، وبذلك تعطيه الكلمة العليا في الموضوع !

« وانحنى لها في تواضع قائلا : (اؤكد لك يا انسة انه يكون من دواعي سروري لو استطعت تقديم نصيحة نافعة لك في هذا الشأن ، فان لي ـ ولا فخر ـ خبرة كبيرة في هذه المسائل .. وقد طالما لجأت الاميرة الي ملتمسة مني ارشادها في بعض الامور المالية !)

« وصعدا الى غرفتها ، حيث جعلت المرأة تنبش اوراقها حتى عثرت على الورقة المطلوبة فاعطته اياها ، وكان المحامي يخطرها فيها بانه قد نجح ، بوساطة صديق له من ذوي النفوذ ، في الحصول من مصلحة الضرائب على تقدير استثنائي منخفض للضيعة ، يبلغ مائة وتسعين الف ريال ، في حين انها تساوى اكثر من ثلاثة او اربعة اضعاف هذا المبلغ !

« وخفق قلب كانيتز ، واصفر وجهه .. هذا يؤيد تقديره هو لقيمة الضيعة بنحو ستمائة او سبعمائة الف ريال ، عدا التحف التي يجهل المحامي قيمتها الحقيقية !.. اذن كم ينبغي ان يعرض على المرأة ؟. تراقصت الارقام وسبحت امام عينيه .. بينما بلغ سمعه صوت المراة تسأل في لهفة : (اليست هي الورقة المطلوبة ؟)

« فقال لها : (انها هي .. وفيها يخطرك المحامي بان قيمة الضيعة مائة وتسعون الف ريال .. اعني قيمتها الاسمية طبعا ؟)

« **فقالت** : (قيمتها الاسمية ؟.. وماذا يعني ذلك ؟)

« ورأى صاحبنا ان فرصته لاقتناص الصفقة قد حانت .. فان لم ينتهزها ضاعت الى الابد !.. ووجد نفسه يجيبها وهو يقمع انفاسه اللاهثة قائلا : (القيمة الاسمية هي القيمة الرسمية المشكوك فيها ، وهي تختلف دائما عن القيمة الحقيقية للمبيعات .. فالمرء لايستطيع ان يجزم قط بامكان تحصيل المبلغ الذي قدرت الضريبة على اساسه كاملا .. قد يحدث هذا احيانا ، بل قد يحصل المشتري على اكثر من المبلغ المذكور ، لكن ذلك امر نادر لا يمكن الاعتماد عليه . انه اشبه بالمقامرة ، كما في البيع بالمزاد العلني مثلا .. اعني انه في حالة بيع هذه الضيعة يمكنك الحصول على ثمن فعلي لا يقل عن مائة وخمسين الف ريال ..!)

« وجمد الدم في عروق كانيتز ، حين التفتت اليه المرأة تسأله في حدة جعلته يرتجف هلعا : (كم الف ريال ذكرت ؟).. ولعله خشي ان تكون قد فطنت الى خدعته الكاذبة ، ولهذا فكر في ان يرفع السعر خمسين الفا اخرى ؟.. لكن صوتا داخليا اهاب به ان يصمد ، ويجرب حظه !.. فقال مكررا ، ونبضات قلبه تدق اذنيه بشدة : (مائة وخمسون الفا .. واعتقد ان الثمن الفعلي ينبغي الا يقل عن ذلك !)

« قالها وقد كاد قلبه يكف عن الخفقان ، ونبضه يتوقف !.. وبعد لحظات ـ خالها دهرا ـ تساءلت المرأة في لهجة المأخوذة : (حقا ؟.. هل تعتقد بامكان الحصول على كل هذا المبلغ ثمنا للضيعة ؟)..»

« وكان على كانيتز ان يبذل جهدا للسيطرة على اعصابه قبل ان يجيبها بلهجة المقتنع : (نعم يا انسة .. استطيع ان اتعهد لك بذلك . ويجب الا تقبلي ثمنا اقل من هذا ؟..»

ومرة اخرى قطع الدكتور كوندور حديثه ، فحسبته يتأهب لاشعال سيجارة .. ولكنه بدلا من ذلك خلع نظارته ثم اعادها الى مكانها في انفعال ، وبعد ان مر بيده على شعره .. رمقني بنظرة طويلة قلقة واضطجع في مقعده ، ثم استأنف كلامه فقال :

ـ قد اكون افضيت لك باكثر مما ينبغي ، او اكثر مما كنت اريد على اية حال .. لكني اعتقد انك لن تسيء فهمي ، فلئن كنت قد صارحتك بالحيلة التي خدع بها كيكسفالفا المرأة الساذجة التي وثقت به ، فلم يكن قصدي من ذلك ان احرضك ضده بحال .. فان الشيخ التعس الذي تعشينا معه الليلة ، هذا الشيخ المريض النفس والجسد ، والذي هو على استعداد لان يهب اخر فلس من ثروته كي يرى ابنته قد شفيت .. لم يعد ذلك الآثم الذي ارتكب تلك الخدعة المنكرة ، وانا آخر من يضمر له اليوم شعور الاتهام والتحقير .. بل انني في هذه الاونة نفسها التي يحوجه يأسه فيها الى عطف الناس ، تبدو لي اهمية وقوفك على الحقيقة مني انا رأسا ، بدل سماعها مشوهة من افواه الشائعات !.. وأول حقيقة ينبغب ان تذكرها دائما في هذا الصدد هي ان صاحبنا لم يذهب الى (**كيكسفالفا**) في ذلك اليوم وفي نيته ان يظفر في الضيعة ذاتها عن

طريق الغش والتدليس ، وانما كان كل همه ان يشتري بعض التحف التي يستطيع الاتجار فيها والربح منها .. واذا هو يفاجأ بتلك الفرصة الفريدة ، التي ما كانت عقليته التجارية لتسمح له بتركها تفلت من يده .. فكان طبيعيا ان يتشبث بها !..

« ولست اريد ان اطيل ، لذلك اغفل بعض التفصيلات التي لاتؤثر في جوهر القصة .. وحسبك ان تعلم ان الساعات التي تلت ذلك الموقف الذي رويته كانت احفل ساعات حياته بالإنفعالات الحادة المختلفة .. كيف لا وقد لاحت في سماء حياته فرصة الظفر ـ خلال اربع وعشرين ساعة على الاكثر ـ بثروة تفوق ما اقتناه طيلة اربع وعشرين سنة من الكد المتواصل !.. ثم هو الى ذلك لم يكن في حاجة الى اغراء ضحيته او مطاردتها ، بل كانت ضحيته هي التي تسعى بملء ارادتها الى براثنه ، وتلحق اليد التي تمسك لها السكين !.. وادرك (كانيتز) ان الخطر الوحيد الذي يهدده بفشل الصفقة قد يأتي من جانب اي شخص اجنبي

تلتقي به المرأة وتسأله النصح ، ومن ثم جعل همه ان يشدد عليها حصاره حتى يتم اجراءاته قبل ان يتدخل في الامر ، او يعود بتروفيك !.. وكان عليه اثناء ذلك الا يفضح اهتمامه باتمام الصفقة لمصلحته الشخصيه .. وهكذا دبر خطته الجريئة « النابوليونية » لاغتصاب « قلعة » كيكسفالفا قبل وصول جيوش العدو !.. والحظ دائما شريك متطوع لخدمة المغامر الجسور ، فقد تدخل في الموضوع عامل اخر يسر المهمة لكانيتز من حيث لايشعر ، هذا العامل هو رغبة الوارثة التعسة في الخلاص من الضيعة باسرع ما يمكن ، بسبب الجفاء الظاهر والبغض الشرير الذي استقبلها به كل من كانت له صلة بالقصر ، من الخدم والزراع والجيران والحارسين !.. بحيث ادركت المسكينة من اول لحظة انها لن تستمع بساعة واحدة من السلام او الراحة في القصر .. وهكذا لم يكد كانيتز يقترح عليها ـ واجفا ـ ان تصحبه في اليوم نفسه

الى (فينا) حيث يعرف شخصا يبحث عن صفقة مماثلة .. حتى قبلت المراة على الفور هذا العرض شاكرة لكانيتز ما بدا لها من انه تطوع لمعاونتها تطوعا املته المروءة والشهامة ، وبادرت الى نصائحه في شأن افضل الوسائل لاستغلال المبلغ الذي سوف تقبضه ، ووجوب الابتعاد عن التعقيد الضار الذي يجلبه تدخل المحامين في هذه المسائل !

« ولم يكد يقترب موعد قيام قطار الساعة الرابعة الذاهب الى فينا ، حتى غادر الاثنان القصر الى المحطة ، فحجزا مقعدين في عربة الدرجة الاولى ـ لاول مرة في حياة كانيتز !ـ وفي فينا قادها صاحبنا الى فندق محترم احتل كل منهما غرفة منه .. وكان عليه ان يهرع الى محاميه وشريكه في كثير من الصفقات (جولينجر) كي يدبر الامر معه ، لكنه خشي ان تتصل في غيبته بمحاميها او تلقي من يبدل رايها ، فاقترح عليها ان تقضي السهرة في مشاهدة احدى روايات الاوبرا .. وبعد ان اجلسها في مقعدها واطمان الى انها لن تبرحه قبل انقضاء اربع ساعات ، خف لزيارة محاميه لكنه لم يجده في مكتبه ولا في داره ، فمضى يبحث عنه حتى عثر عليه في احدى الحانات .. وهناك شرح الامر له ، واعدا اياه بمكافأة قدرها الفا ريال اذا اعد

العدة للتوقيع على عقد الصفقة امام الموثق الرسمي في الساعة السابعة من مساء اليوم التالي .. ثم اسرع عائدا الى الاوبرا ليصحب ضحيته الى الفندق .. وفي مخدعه هناك عانى ليلة ثانية طويلة بلا نعاس ، فكلما اقترب من هدفه ازداد قلقه وخوفه من ان يتبدد حلمه في اخر لحظة !.. وهكذا ظل طيلة الليل يدبر الاجراءات التي يعتزم اتخاذها في الغد لاتمام محاصرة العدو : فأولاً

ينبغي الا يتركها وحدها لحظة واحدة ، او يدعها تسير على قدميها في الطريق ، او تقع عيناها على صحيفة من الصحف .. ولكن الذي حدث ان كل هذه المخاوف والاحتياطات كانت عقيمة ولا داعي لها ، فان الضحية نفسها لم تكن تريد الفرار ، فسارت وراءه كما تسير النعجة الغبية الى الذبح وحول عنقها شريط احمر !.. ومضى الاثنان يتنقلان بسيارة مأجورة بين مختلف الادارات والبنوك ، وهي تطيعه طاعة عمياء كالطفلة وتوقع على ما يقدمه لها من اوراق ومستندات دون ان تقرأ محتوياتها .. وكأنها تبغي الانتهاء من كل ما له صلة بالمال ومتاعبه كي تعود فتجلس في غرفة هادئة لتقرأ او تغزل الصوف او تعزف على البيانو !

« وفي الموعد المحدد اجتمعا بالمحامي والموثق الرسمي فوقع الطرفان على العقد وتبودل تسليم الثمن وصكوك ملكية الضيعة ، ثم اودعت ثروة المرأة النقدية احد البنوك المشتغلة بتوظيف الاموال لاستغلالها في عملية تدر عليها ايرادا سنويا منتظما قدرة ستة الاف ريال في السنة . في الوقت الذي ضاعف فيه كانيتز ثروته ثلاثة اضعاف بجرة واحدة من قلمه ، وصار منذ تلك اللحظة مالك (كيكسفالفا) وسيدها الاوحد !

وكان كانيتز قد علم من المرأة خلال النهار انها تعتزم الرحيل عقب اتمام الاجراءات الى حيث تقيم مع بعض اقربائها في اقليم (وستفاليا). فاستفسر لها عن موعد القطار الذي يقلها الى هناك ، وعلم انه يغادر فينا في الساعة التاسعة والثلث من صباح اليوم التالي .. وهكذا استقر الراي على ان تبيت المراة ليلة اخرى في الفندق .. فلما ودعه الموثق والمحامي على اثر التوقيع على العقد ، وخلا الى ضحيته ، احس رهبة خفية !.. لست اعني ان ضميره قد استيقظ فجأة فندم على فعلته ، وانا اريد ان اقول : ان شعوره نحو المراة تبدل على حين غرة ، فلم تعد هي بالنسبة له بمثابة الخصم الذي يحتال عليه كي يجبره على التسليم .. بل انكمشت في نظره

الى امراة ساذجة مسكينة تسير الى جانبه في هدوء ومسالمة . وصدقني ان شيئا لم يثقل على قلب (نابليون كانيتز) في ساعة انتصاره الاعظم السريع اكثر من ان ضحيته قد يسرت له سبيل الانتصار عليها فلم تقاومه مقاومة تذكر .. والمرء حين يظلم شخصا او يسيء اليه يلذ له ان يوحي الى نفسه ، لكي يريح ضميره ان هذا اخطأ في حقه !. لكن كانيتز لم يجد ما يتهم به ضحيته ، فقد سلمت نفسها له معصوبة العينين ، ولم تكف طيلة الوقت عن ان ترمقه بنظرات الثقة بل الشكر !.. فماذا يقول لها الان وهو سائر الى جانبها .. ايهنئها على بيع الضيعة ، او بعبارة اصح على (فقدانها)؟. وازداد احساسه بالحرج ، فجعل يمني نفسه بقرب وصولهما الى الفندق ، والخلاص من رفقتها الى الابد !

« وبعد ان سارا مسافة صامتين ، وقد بدت على كليهما سيماء التفكير .. سعلت المراة قليلاً ثم ابتدرته قائلة : (لا تؤاخذني !. اني اريد قبل سفري ان اسوي كل الامور التي بيننا ، فاشكرك اولا من اجل كل المتاعب التي تجشمتها بسببي .. ثم ارجو ان تصارحني بالمبلغ الذي انا مدينة به لك في مقابل هذه المتاعب !). وكان ذلك اكثر مما يستطيع الرجل ان يحتمل .. فانتابه شعور المعتدي حين يضرب كلبا بقسوة فيعود الكلب بعد قليل وهو يهز ذيله كي يلعق – في توسل ومذلة – اليد التي ضربته !. وشكرها محتجا ومعتذرا ، وقد أحس بعرق الخجل ينضح من جسمه .. وكانا قد بلغا الفندق ففكر كانيتز في ان يدعوها الى العشاء او الى سهرة في احد المسارح .. لكنها قطعت عليه حبل تفكيره حين مدت اليه يدها قائلة : (اعتقد انني ينبغي ألا آخذ من وقتك اكثر مما اخذت .. والواقع انه قد ساءني ان تضيع يومين كاملين في تصريف مشكلاتي ، فما من شخص آخر يقدم على التضحية بمصالحه الخاصة الى هذا الحد .. ولم يحدث قط من قبل ان اظهر لي احد كل هذا العطف والمعونة ، ولا تصورت لحظة واحدة ان في الامكان تسوية كل تلك المسائل المعقدة بهذه السرعة وهذا التوفيق .. فأشكرك كل الشكر !)

« اخذ كانيتز يدها الممدودة في يده ، ولم يملك نفسه من النظر الى وجهها وكانت حرارة عاطفتها قد اذابت الكثير من خجلها واجفالها ، واضرمت الحمرة في قسماتها التي كانت في العادة شاحبة متهيبة ، فبدت اشبه بالطفلة في ابتسامتها الشاكرة ونظرة عينيها الزرقاوين المعبرتين .. وحاول كانيتز ان يجد شيئا يقوله ، ولكن قبل ان يتكلم كانت قد ودعته ومضت ، خفيفة الخطوة ، يحدوها الجلال والثقة ، شأن من ألقت عن كاهلها عبئا ثقيلا وتحررت من اغلاله !

« وهكذا خلف الحمل الوديع جزاره .. فاحس كانيتز بانه كالمضروب على راسه بفأس !.. وقف ذاهلا بضع دقائق يحدق في مدخل الفندق الذي اختفت وراءه المرأة .. واخيرا حمله تيار الزحام في غمرته الى حيث لايدري ، وعبارة الشكر الاخيرة التي وجهتها اليه ، تدوي كالطبل في اذنيه !. ولم يكن احد قد وجه اليه مثل هذه العبارة من قبل ، ولا نظر اليه انسان مثل نظرتها المنطوية على العرفان بالجميل !. في حين انه خدعها وخانها ابشع خيانة !

« وتوقف في طريقه مرارا ليمسح العرق عن جبينه .. وفجأة طالع في مرآة محل رجالي صورته هو ، فحدق في وجهه كما يحدق الانسان في صورة مجرم نشرتها احدى الصحف ، ليرى اين يبدو الاجرام في قسماته : في ذقنه الذي يمثل الميل الى المشاكسة ، او في شفته القبيحة ، او في عينيه القاسيتين ؟.. وفجأة تذكر عيني المرأة التي تركته لتوه .. اين من هاتين العينين الزرقاوين المضيئتين اللتين تشعان بالايمان والاخلاص ، عيناه الشرهتان القلقتان المقرحة اجفانهما !؟.. واين من شخصيتها الطاهرة المهذبة شخصيته الملتوية المعقدة ؟!.. ومضى يحدث نفسه قائلا : (انها تخان ولا تخون !.. انها من ذلك الصنف الساذج الذي يباركه

الله !. وان حيلي وخدعي كلها لم تجلب لي سعادة وسلاما كما جلب لها استسلامها !. وهكذا احس كانيتز انه ، في يوم انتصاره الاعظم ، اكثر تعاسة منه في اي يوم سابق !)

« واخيرا شعر بالجوع ، فدخل مقهى وطلب شيئا ليأكله .. لكن كل قضمة صارت تثير ، ومضى يحدث نفسه : (ماذا اصنع بهذه الضيعة وانا لست من الزراع ؟.. وهل يعقل ان اعيش وحدي في قصر يضم ثماني عشرة حجرة ؟!.. ماذا افعل بكل هذا ؟. كان غباء مني ان اشتري الصفقة لحسابي الخاص .. وماذا لو اكتشفت المرأة انني لست الوسيط بل الشاري ؟.. فلأردها اذا شاءت ، واحتفظ لنفسي بعشرين او عشرة في المائة من قيمتها .. ان في وسعها دائما ان تستردها اذا ندمت يوما على بيعها !)

« وتمكنت الفكرة من راسه ، فاعتزم ان يقابل المراة في صباح اليوم التالي قبل موعد قيام القطار كي يعرض عليها هذا الامر .. واذا انتهى الى هذا الحل خيل اليه انه سوف ينعم بليلة ينامها ناعم البال ، بعد الليلتين اللتين قضاهما مؤرقا حتى الصباح .. لكن رجاءه خاب ، فقد بقي مسهدا تدوي في اذنيه عبارتها (اشكرك كل الشكر !)... ولم تنتصف الساعة الثامنة من الصباح حتى كان في ردهة الفندق يسأل عن الانسة (ديتزينوف) حاملا لها على ذراعيه باقة فاخرة من الازهار ، وصندوقا من الشيكولاته الغالية !

ــ « وقيل له انها في حجرة الطعام تتناول الافطار .. فمشى نحوها وكان ظهرها الى الباب ، حتى بلغ مائدتها .. فوضع حمله امامها قائلا في شيء من الاضطراب : (تذكار بسيط لمناسبة سفرك)..فأجفلت وصار وجهها في حمرة القرمز ، فان احدا قبل ذلك لم يفكر في اهدائها مثل هذه الباقة .. فقالت في حياء عذب : (أوه !. مالزوم كل هذا ؟. انها اجمل من ان استحقها !).. ورمقته بنظرة تفيض شكرا .. ولم يدر هو هل انعكاس الورود الحمراء ، ام صعود الدم الى وجهها ، هو الذي لون وجنتيها بصبغة قانية جعلتها تبدو حسناء برغم انها خلفت نضرة الشباب ؟

« ودعته الى الجلوس ، فجلس ، وقال لها : (اذن .. انت ذاهبة حقا ؟). وكان في صوته رنين الاسف ، فاجابت وهي تخفض راسها في لهجة التسليم الذي لاينطوي على فرح او اسى : (نعم)... وعلم ان اقرباءها الذين تزمع الاقامة معهم هم امراة في حكم ابنة العم وزوجها ــ الذي لم تره قط ــ وكانا قد كتبا اليها يرحبان باقامتها معهما في مزرعتهما الريفية الصغيرة !

فسألها : (ماذا اعتزمت ان تفعلي في تلك البقعة النائية ؟)

« واجابته بأنها لا تدري !. وكان في جوابها فتور وحيرة وعدم استقرار ذكرته كلها بحاله هو ، وحياة (التشرد) التي يحياها بلا بيت ولا اسرة ولا هدف !.. فقال لها : (لكن الانسان

ينبغي ان يتجنب السكنى مع الاقرباء .. وانت في غير حاجة الان الى ان تدفني نفسك في بقعة مثل تلك البقعة النائية !)

« فقالت : (اني لانظر الى الامر حقا في شيء من القلق .. ولكن ماذا عساي ان افعل ؟)

« وتنهدت .. ثم رفعت اليه عينيها الزرقاوين كمن تلمس عنده النصيحة .. هاتان هما العينان الصافيتان اللتان ينبغي ان تكونا للمرء !.. وفجأة .. اقتحمت الطريق الى لسانه فكرة ، او لعلها رغبة ، فقال لها : (لم لاتبقين اذن هنا ؟).. ثم اضاف بصوت خافت : (معي)

« واجفلت وحدقت فيه .. وعندئذ فقد ادرك انه فاه بقول ماكان ينبغي ان يفوه به !. لقد افلتت العبارة منه دون ان يزنها كعادته ويمحصها .. بل دون ان يعترف لنفسه بانه يريد النتيجة التي تترتب عليها .. وصعد الدم دافقا الى وجنتي المراة ، فخشي ان تكون قد اساءت فهم قصده ، ففسرته بانه يريدها خليلة له .. ومن ثم سارع ينفي من ذهنها شبهة الاهانة فقال لها موضحا : (اعني تبقين .. كزوجة لي ؟)

« واختلجت شفتاها ، وخيل اليها انها توشك ان تنفجر باكية او غاضبة !.. ثم نهضت فجأة وغادرت القاعة لا تلوي على شيء !

« كانت تلك احرج لحظة في حياة صاحبنا ، فقد ادرك فيها مدى الحماقة الجنونية التي ورط نفسه فيها .. لقد اهان واذل وخدش احساس المخلوق الوحيد الذي وثق به ثقة عمياء ، وشكره من صميم قلبه .. والا فكيف يجرؤ ـ وهو الجشع الرث الهيئة ـ ان يطلب يد مثل هذه المخلوقة المهذبة التي نشأت وعاشت في اكرم بيئة ؟.. انها اذن لعلى حق في ان تفر هكذا اشمئزازا !.. ومن عجب ان احس ازاء ذلك بالارتياح !. وقال لنفسه : (لقد عرفت حقيقتي اخيرا ، وعاملتني بالاحتقار الذي انا جدير به ، وهذا خير من ان تشكرني على خدعتي الدنيئة . لقد تلقيت عقابي العادل .. فانه لمن العدل ان تفكر في منذ الان بمثل الاحتقار الذي اكنه لنفسي !)

« ولكن لم تمض لحظات حتى ظهرت على عتبة الباب من جديد ، وعيناها مغرورقتان بالدموع .. واقبلت نحوه بحالة من الانفعال الشديد ، بحيث تشبثت بظهر الكرسي لحظة قبل ان تستطيع الجلوس .. ثم تنهدت في هدوء وقالت دون ان ترفع عينيها : (اغفر لي .. اغفر لي خشونتي .. لكني في الواقع فوجئت بكلامك . كيف تستطيع ان ؟. انك لا تعرفني .. لا تعرفني بتاتا !)

« وكان هو من الارتباك بحيث لم يجد جوابا حاضرا في ذهنه .. وان سره ان فرارها المفاجىء لم يكن عن غضب واستنكار ، بل عن خوف ودهشة !.. ومضت دقائق لم يجد احدهما خلالها الشجاعة على ان يكلم صاحبه ، او ينظر اليه .. لكنها لم تغادر (فينا) في ذلك الصباح ، فقد بقيا معا من الصباح حتى ساعة متاخرة من الليل .. وبعد ثلاثة ايام كرر على مسمعها

العرض .. ولم ينقض شهران حتى كانا زوجين ! » .

وسكت الدكتور كوندور قليلا ، ثم استطرد فقال : « فلنتناول كأسا اخيرة ، لقد اوشكت القصة ان تنتهي ، وانت ترى مما سلف ظلم الشائعات التي تنسب الى صديقنا انه اغرى الوارثة بالزواج منه كي يظفر بالضيعة والقصر ، فالواقع انه ظفر بهما قبل ان تخطر بباله فكرة الزواج ، ولم يكن قرانه بها صادرا عن اية مصلحة ذاتية .. ولعل هذا ما جعله قرانا سعيدا غاية السعادة ، برغم ان الزوجين كانا ضدين في الطباع ، بل ربما بسبب ذلك ... كما يقول علماء النفس !

« وكان رد الفعل المباشر للاتفاق على الزواج ان خشي كانيتز ان تقف خطيئته على ماضيه القذر ، فصفى جميع اعماله التي يشوبها اي زيف ، وحاول تنقية صفحته بكل ما وسعه من جهد ... ثم ابتاع بالمال لقب (فون كيكسفالفا) الارستقراطي العريق وخلع عنه اسم المرابي اليهودي المقوت (كانيتز) ... وكأنما خلع عليه الاسم الجديد نبلا حقيقيا ، فقد عاش بعد الزواج يعامل زوجته بكل احترام وتقدير وتلطف ، محاولا ان يمحو من الوجود شخصيته القديمة ... وكان لهذه المعاملة الكريمة ــ التي لم تألفها « آنيت » طيلة سنوات عبوديتها لسيدتها السابقة الثرية ــ اجمل الاثر في نفسها وصحتها فأينع شبابها من جديد ، وتفتح حسنها الذي كان ذابلا .. وان لبثت عاما كاملا ، بل ربما اثنين ، عاجزة عن ان تقنع نفسها بأن المرأة المضطهدة المنبوذة التي كانتها قد صارت موضع الحب والاحترام والاعزاز ، كبقية السيدات !... وهكذا لم يتذوق الزوجان السعادة الحقة الخالصة الا بعد ان ولدت لهما طفلتهما (ايديث) .

وعاشا خمسة عشر عاما او نحوها معيشة قوامها البساطة والعزلة عن الناس .. وخلال تلك الحقبة عكف (كيكسفالفا) على ادارة الضيعة والمطحن ومصنعي السكر والكحول ، بهمة حازمة ونشاط لا يفتر .. حتى اصيب بالكارثة الاولى القاصمة للظهر : مرضت زوجته بالسرطان وماتت على منضدة الجراحة في احدى مصحات فينا ، وهناك عرفته وعرفتها لاول مرة !.. ولن استطيع ان اصف او اصور لك اليأس الذي اعتراه حين عرف ان لا امل في شفائها ..

ولن انسى نظرته المجنونة وهو ينعتنا صارخا على اثر موتها بأننا قتلة سفاحون !

« وكانت تلك هي نقطة التحول في حياته .. فمنذ ذلك اليوم تغيرت نظرته الى الامور ، وكفر بالمال ، الاله الوحيد الذي عبده منذ طفولته !.. ولم يعد يعنيه من دنياه غير شيء واحد هو ابنته !... فجلب لها المربيات والخدم ، واعاد تجديد قصره وتزويده بجميع وسائل الترف .. وصار يأخذ (ايديث) ــ وهي في التاسعة او العاشرة من عمرها ــ الى نيس وباريس وفينا ، ويغدق عليها المال بغير حساب ، ويغول في ذلك غلوه من قبل في جمع المال وادخاره .. لهذا لم يكن غريبا ان يبدو لك اليوم ارستقراطيا كريما ، فمنذ سنوات كف عن ان يلقي بالا الى الكسب

او الخسارة .. ومنذ اكتشف ان ملايينه كلها لم تستطع ان تشفي له زوجته ، تعلم ان يحتقر المال !

« ومهما اطنب فلن استطيع ان اصف لك بالتفصيل كيف عبد الرجل ابنته ودللها .. وكانت في الواقع تستحق ذلك ، فقد شبت فتاة رائعة الحسن حميدة الخلق ، أخذت عن امها عذوبتها وعن ابيها ذكاءه .. ومن ثم اترك لك ان تقدر مبلغ الصدمة التي اصيبت كيكسفالفا حين دهمته الكارثة الثانية ، فسقطت ابيث من فوق ظهر جوادها واصيبت بالشلل !.. ولكن يكفي ان اذكر لك انه لم يدع طبيبا من اطباء العالم المشهورين في هذا الباب الا استقدمه واغدق عليه المال بغير حساب ، لعله يفلح في شفائها !.. وقد روى لي زميل منذ ايام ان المسكين يتردد كل اسبوع على مكتبة الجامعة حيث ينفق الساعات في تقليب كتب الطب والتنقيب فيها عسى ان يجد في احدها شيئا ذا فائدة نكون قد نسيناه او اهملناه !.. بل انه خصص منحا وهبات سخية لرجال الدين وصناديق النذور في حالة شفاء الفتاة !

« لست اذكر لك كل هذه التفصيلات السخيفة حبا في الثرثرة ، وانما رغبة في ان تفهم الى اي حد يجد الشيخ التعس بعض العزاء عن كارثته كلما عثر على شخص يستمع اليه ويفهم احزانه واشجانه او على الاقل يحاول ان يفهمها .. والواقع انك يا عزيزي الملازم تفعل خيرا حين تدخل شيئا من المرح والبهجة والشباب الى ذلك البيت الحزين .. وقد رويت لك الآن ما رويت من اسرار الرجل الخاصة خشية ان تسمع من افواه الناس شائعات خاطئة ومحزنة تؤثر في صلتك بالاسرة المنكوبة !.. ووثوقا مني في كتمانك للامر واعتباره سرا بيننا ! » .

* * *

لم أجد ما اقول تعليقا على هذه القصة المؤثرة اكثر من كلمة واحدة نطقتها مغمغما فقلت له : « نعم . بلا شك ! » . ولم اكن قد تفوهت قبلها بحرف منذ بدأ الدكتور كوندور يسرد قصته ، التي لم يقتصر اثرها في نفسي على اثارة دهشتي البالغة وقلب فكرتي عن كيكسفالفا رأسا على عقب ، او كما يقلب القفاز ظهر البطن .... بل تعدى ذلك الى اظهاري على مبلغ غفلتي وسذاجتي ، انا الذي ترددت على قصره عشرات المرات دون ان اسأل عن مصدر ثروته ، ودون ان ادرك ان عينيه الذكيتين البراقتين ليستا عيني نبيل هنغاري ، بل ان نظرتهما الحادة المتعبة في آن واحد تمثل الكفاح المفجع الطويل الذي هو طابع الجنس اليهودي !... اما الان ففي اقل من لحظة ومضت في ذاكرتي مئات الملاحظات والوقائع الصغيرة التي تتفق مع هذه الرواية والتي فاتني ان افهم مدلولها في حينها !

وكأنما ادرك الدكتور كوندور ما يدور في خاطري ، فمال علي وقال وهو يربت عل يدي بيده الصغيرة الناعمة : « انك ما كان يمكن ان تعرف الحقيقة يا سيدي الملازم ، فلقد نشأت في بيئة

مختلفة تماما ... عدا انك الان في السن التي لا يكون المرء قد تعلم فيها بعد ان يرتاب في كل شيء مخالف للمألوف . وليس عيبا ان تخدعك الحياة في هذه السن بين حين واخر ، بل انها لنعمة كبرى الا تكون قد صارت لك بعد تلك العين الفاحصة المتشككة ، وان تستطيع ان تنظر الى الاشياء والناس لاول وهلة نظرة بريئة واثقة .. ولولا ذلك ما امكنك ان تقدم للشيخ البائس وابنته الكسيحة ما قدمت من معونة رائعة .. كلا ، لا داعي لان تندم او تخجل ، فقد تصرفت بوحي الغريز احسن تصرف واسلمه ! » .

وكان موعد القطار الراحل الى فينا قد اقترب ، فنهض الطبيب .. ونهضت انا معه وانا احس احساسا غامضا ان هناك امرا كنت اود لو أحدثه في شأنه وهو ماض في سرد قصته ، لولا اني لم اشأ ان اقاطعه .. ثم نسيته تماما ! ... وحين خرجنا الى الطريق رفع كوندور بصره الى السماء وقال : « كيف فاتني ان استنتج ذلك حين رأيت القمر متألقا اكثر من المألوف ؟.. سوف تهب بعد قليل عاصفة رعدية شديدة .. فلنسرع بالمسير والا فاجأتك قبل عودتك . اما انا ففي وسعي ان اصل الى المحطة قبل هبوبها ! » .

وكان على حق .. فان الهواء برغم سكونه كان قاتما معفرا ، وانسحب الآتية من الشرق تتسابق فوق المساكن الهاجعة ، وتحجب القمر الشاحب المحتضر بين الحين والحين .. وفي الافق البعيد تومض سهام من البرق الخاطف يعقبها في كل مرة دوي خافت مكتوم ، كزمجرة الحيوان الغاضب !.. وعاد كوندور يستحثني قائلا : « فلنسرع ففي العجلة النجاة ، لقد تصلبت ساقاي من طول الجلوس ! » .

وذكرتني عبارته هذه عن تصلب ساقيه بما كنت اريد ان اسأله بشأنه ، وكأن ضوءا مفاجئا قد غمر وعيي فبدد ظلام النسيان !.. انها المهمة التي كلفني بها كيكسفالفا ، والتي من اجلها حرصت على الخروج في رفقة الطبيب . انه السؤال الخالد : « هل ينتظر للفتاة الكسيحة شفاء في يوم من الايام ؟ » .. وهكذا ابتدرت مرافقي ونحن نذرع الشارع المقفر من الناس سائلا : « لا تؤاخذني يا سيدي الطبيب اذا عدت الى الموضوع الذي كنا نتحدث فيه ، كي القي عليك سؤالا يلح على خاطري منذ زمن ، وفي وسعك انت دون غيرك ان تجيبني عنه .. اريد ان اسألك : هل هذا الشلل الذي اصاب ايديث مرض مؤقت او داء عضال لا شفاء منه ؟ » .

ورفع الدكتور كوندور راسه في شيء من الحدة ، ولمعت نظارته في وجهي حتى اني اجفلت من قوة نظرته التي خلتها تتغلغل في الى ما تحت الجلد .. ثم قال وهو يخفض راسه ويستأنف خطاه السريعة . « كان يجدر بي ان اتوقع منك هذا السؤال ، فهو دائما يأتي في النهاية .. مرض يشفى او لا يشفى ، ابيض او اسود .. كأنما الامر بهذه البساطة !.. ان اي طبيب يحترم نفسه ينبغي الا ينطق حتى بكلمتي (سليم) او (مريض) لانه يوجد حد فاصل تنتهي عنده الصحة ويبدأ المرض .. ولن تستطيع ان تسمع مني يوما كلمة (غير قابل للشفاء) ... ولقد اخطأ نيتشه كل الخطأ حين قال : ان الطبيب يجب الا يحاول شفاء الذي لا يشفى ! » ... فان

العكس تماما هو الصواب ، لاني ارى ان اهم ما يجب على الطبيب ان يسعى الى شفاء المرض الذي جرى الناس على الاعتقاد بأنه لا يشفى .. والطبيب الذي يسلم مقدما بعجزه عن تحطيم مثل ذلك الاعتقاد السائد هو طبيب يتنصل من واجبات مهنته ويرفع راية الاستسلام قبل ان تبدأ المعركة !.. وطبيعي انه من الاسهل بالنسبة لكل طبيب ان يختص بمعالجة الامراض القابلة للشفاء ، والتي لا يقتضيه الامر فيها اكثر من ان يصف دواء او علاجا قرأه في كتاب او سمعه في درس .. اما انا فأرى ان هذا الطبيب كالكاتب الذي لا يكتب غير الكلام المعاد بدلا من ان يخضع للكلمة المكتوبة افكارا ساد الاعتقاد بانها غير قابلة لان تكتب او مثل الفيلسوف الذي

يردد افكارا سبق ترديدها مائة مرة ، بدلا من ان يستكشف مناطق الافكار غير المعروفة او غير القابلة لان تعرف ! وبالنسبة لعلم يتطور ويتقدم كل يوم ـ كالطب ـ لا يليق ان يقال عن اي مرض : انه غير قابل للشفاء . وانما الصواب ان يقال . انه مرض لم يعرف له شفاء حتى الان في نطاق معلوماتنا الحالية المحدودة !.. ففي كل يوم تكتشف وسائل لعلاج امراض كانت حتى الامس القريب بل حتى اليوم السابق مستعصية على العلاج .. ولا شك ان مئات من الحالات التي نعجز اليوم عن شفائها قد يعرف لها غدا او بعد غد دواء !.. لذلك لا توجد في نظري امراض لا تشفى ، وليس من عادتي ان ايأس قط من شفاء حالة ما او مريض من المرضى ، ولا ان انطق بهذه بكلمة الخاطئة (غير قابل للشفاء) .. مهما تكن الظروف .

« ولتقريب الامر الى ذهنك اسرد عليك مثلا واقعيا حدث لي انا نفسي ، وما زالت ذكراه تؤلمني حتى اليوم .. فمنذ اثنين وعشرين عاما ، وانا طالب في السنة الثانية بكلية الطب ، وفي مثل سنك الان ، مرض ابي ذات يوم ـ وكان طيلة حياته صحيحا قويا موفور النشاط وكنت احبه الى درجة تقرب من العبادة .. واتفق الاطباء على تشخيص مرضه بأنه « البول السكري » . وهو من اخبث الامراض التي يمكن ان تصيب انسانا ... ففيه يتوقف الجسم ـ لسبب غير مفهوم ـ عن امتصاص الغذاء ، ولا سيما الدهن والسكر ، فيذبل الانسان ويموت موتا بطيئا ، من الجوع !.. وفي تلك الايام لم يكن الطب يعرف علاجا لهذا المرض ، فكان المريض يتعرض لعذاب المنع من اكثر المأكولات ووزن كل قدر ، من الالوان الباقية المباحة ، في الميزان بالجرام !.. ومع ذلك لا يجني من ذلك كله غير تأجيل النهاية المحتومة عامين او ثلاثة على الاكثر .. ولك ان تتصور مبلغ جزعي وقتئذ على ابي ، ولجوئي الى كل طبيب وكل كتاب طب في متناولي ، بحثا عن علاج لحالته .. ولكن دون جدوى ، فقد خرجت من ابحاثي كلها بأن مرضه (غير قابل للشفاء !) .. ومنذ تلك اللحظة ابغضت هذه الكلمة اللعينة ، التي كان معناها ان اقف مكتوف اليدين وانا اشاهد اعز انسان علي في هذه الدنيا يموت ميتة ادعى للرثاء من ميتة

الحي الفاقد الادراك .. وقد مات ابي فعلا قبل تخرجي من كلية الطب بثلاثة اشهر !

« والآن اصغ الي .. اول امس اعلن احد علمائنا في اجتماع الجمعية الطبية نجاح التجارب التي اجريت في معامل امريكا وقطر او قطرين آخرين بغية اكتشاف خلاصة لاحدى الغدد تشفي من البول السكري .. وقد اكد العالم المذكور في ختام كلمته انه لن تمر عشرة اعوام

حتى يصبح هذا المرض « قابلا للشفاء » .. ومثل آخر اسوقه لك : ففي ايام دراستنا الطب وزعت علينا نشرة مطبوعة تحذرنا مرض الزهري على اساس انه غير قابل للشفاء .. اما الان فقد صار هو بدوره من الامراض التي تشفى .. واذن فان (نيتشه) و(شومان) و (شوبرت) وغيرهم من ضحاياه التعساء لم يموتوا بمرض لا يشفى ، بل بمرض لم يكن يشفى في العصر الذي عاشوا فيه !.. لذلك تجدني في كل مرة تعرض لي فيها حالة يئس منها الاطباء الاخرون وهم يهزون اكتافهم ، يشتعل قلبي غضبا لجهلي بعلاج قد يكتشف غدا او بعد غد .. وفي الوقت نفسه يفيض قلبي املا في ان استطيع انا ، او غيري ، كشف ذلك العلاج في الوقت المناسب لانقاذ مريضي ! .. ولم لا ؟.. ان كل شيء ممكن ، حتى المستحيل .. وحيثما يقف الطب اليوم امام باب مغلق يفتح له احيانا باب اخر على غير انتظار .. وحينما تفشل وسائلنا الحالية ينبغي ان تبذل المحاولات لاستكشاف وسائل جديدة .. بل حيثما يفشل العلم توجد دائما فرصة حدوث معجزة !. نعم ، فالمعجزات تحدث حتى اليوم في عالم الطب ، متحدية كل منطق وتجربة ، واحيانا يستطيع المرء ان يصنعها بنفسه .. والا ، فهل تعتقد اني كنت لاعذب هذه الفتاة واعذب نفسي لو لم يخامرني الامل في امكان ان اصنع لها شيئا ، واشفيها في النهاية ؟... اعترف بأن حالتها عسيرة عنيدة !.. وانني استغرقت حتى الان سنوات عديدة دون ان اصل بعد الى النتيجة التي ارجوها ، لكني لن ايأس او اتخلى عن النضال ! »

اصغيت اليه بانتباه وفهمت كل ما قال .. لكني ـ وكأنما اصبت بعدوى الالحاح من كيكسفالفا ـ وجدتني اطلب جوابا اكثر دقة وايضاحا .. فسألته : « اذن ... انت ترى احتمال حدوث تحسين . اعني انك قد حققت شيئا من التحسين ، اليس كذلك ؟ » .

وهنا سكت الدكتور كوندور ، وكأنما ضايقه سؤالي ، ثم توقف عن المسير والتفت الي قائلا : « لعل الافضل ان اصارحك بحقيقة الموقف .. كلا !.. اني لم اصل الى تحقيق شيء البتة مما رجوت وقد جربت معها انواعا شتى من العلاج لم تأت بنتيجة حتى الان . واذا كانت الفتاة قد شعرت احيانا بتحسن في حالتها فما ذلك الا نتيجة الايحاء الذاتي الذي هو خير معين لنا نحن الاطباء على كسب الوقت وتمكين المريض من الصبر على مرضه حتى نهتدي الى العلاج الشافي له .. وصدقني انها ليست مهمة سهلة ان ابتكر كل حين وسيلة جديدة لتخدير اعصاب المريضة وايهامها بأنها في تحسن مطرد ، طيلة خمس سنوات كاملة !.. ولكن لا تحسب اني في اعماق نفسي قد يئست من حالتها .. كلا !.. بل اني ارفض الاستسلام للفشل حتى لو استمر سنة اخرى ، بل خمس سنوات !... وقد حدث اني قرأت امس فقط مقالا في صحيفة طبية باريسية عن حالة شلل مماثلة اصيب بها غلام في الرابعة عشرة وبقي طريح الفراش عاجزا تماما عن الحركة ، عامين كاملين .. حتى تمكن البروفيسور « فيينو » من معالجته خلال اربعة اشهر علاجا ادى الى استطاعته صعود السلالم بكل سهولة ويسر .. وقد كتبت فورا الى البروفيسور اسأله مزيدا من الايضاحات عن الطريقة التي وصل بها الى هذه النتيجة كي ارى ما يمكن تطبيقه منها على ايديث !... ومن هذا ترى اني ابعد ما اكون عن اليأس ، بل اني ما

زلت اتعلق بكل قشة يحملها التيار ، وقد يكون لنا بعض الامل في هذا العلاج الجديد .. وعلى كل حال احسبني قد ثرثرت اكثر مما ينبغي » .

وكنا قد اقتربنا من المحطة ، فرأيت ان القي على محدثي سؤالا واحدا اخيرا ، فقلت له : « اذن .. انت تعتقد ان .. » ، لكنه قطع كلامي قائلا : لست اعتقد شيئا .. وليس في الامر ما يحتمل اي استنتاج !. ماذا تريد مني اكثر مما قلت ، اني لست على اتصال تليفوني بالله سبحانه وتعالى ... فاعتبر اني لم اقل لك شيئا البتة ولا ابديت اي راي في الموضوع ... ولست اعدك بشيء على الاطلاق .. والآن كفى نقاشا في هذا الامر ، وشكرا لك على مرافقتك اياي ولتعد مسرعا قبل ان يغرقك سيل المطر المقبل » .

« ثم تركني ومضى مهرولا الى داخل المحطة دون ان يصافحني !



اكسير الامل

صح ما تنبأ به الدكتور كوندور عن الحالة الجوية ، فسرعان ما بدت نذر العاصفة ، وبدأت السحب السوداء تتلاطم فوق قمم الاشجار ، والبرق يومض بين حين واخر فاغلقت ابواب المتاجر والدور ، وجميع النوافذ وخلت الطرقات من المارة ، فحثثت السير كي اصل الى غرفتي قبل ان ينهمر المطر !

وما كدت اصل الى باب المعسكر حتى لمحت شبحا يبرز من ظل احدى الاشجار ، فحسبته شبح امرأة من نساء الليل اللاتي اعتدن انتظار الجنود في الظلام ، ثم فطنت الى ان خطوات ذلك الشبح المجهول تتبعني مسرعة ، فالتفت الى الوراء حانقا ، وومض البرق في تلك اللحظة فجأة ، فتبينت على ضوئه وجه الشبح ، وكدت لفرط دهشتي الا اصدق عيني ، فهتفت به قائلا :

عجبا !.. الهر فون كيكسفالفا هنا ؟ . ماذا اتى بك ياسيدي ؟ الم اتركك على اهبة النوم منذ ثلاث ساعات ؟ !

فقال : « هذا صحيح ، لكني لم استطع ان انام قبل ان .. »

فادركت ما يريد ، وقلت له : « ينبغي ان تعود الى البيت على عجل .. الا ترى بوادر العاصفة المخيفة ياسيدي ؟ » .

فقال « ان معي سيارتي ، وهي تنتظرني وراء المعسكر ! »

فقلت : « حسنا ! اذن اسرع .. اسوع قبل ان يعوقك سيل الامطار »

واذا رأيت تردده جنبته من ذراعه في غير توقير كي اقوده الى سيارته .. لكنه افلت ذراعه مني قائلا : « انتظر لحظة .. لحظة فقط . ماذا قال لك ؟ »

وتحققت ان لهفته على معرفة النتيجة هي التي دفعته الى الترصد لي عند باب المعسكر منذ ثلاث ساعات ، برغم سوء حالة الجو ، كي يسألني عن رأي الطبيب .. فقلت له مطمئنا :

ـ كل شيء على ما يرام .. كل شيء سوف يعود سيرته الاولى .. وغدا اقص عليك ما قاله الطبيب .. اما الآن فيجب ان تسارع الى سيارتك كي تنجو من العاصفة !

فغمغم قائلا : « حسنا ! » . وتركني اقوده واستحثه مسافة عشر خطوات ، او عشرين على الاكثر ، ثم جذب ذراعه بقوة من يدي وعاد يقول : لحظة واحدة ! هناك على تلك المقعد ! لست استطيع السير ! »

وكان يترنح حقا كالثمل بحيث لم ار بدا من تركه يستريح فتهالك على المقعد الخشبي وهو يلهث !

لقد اضنى الانفعال وطول الوقوف قلبه الضعيف ، فاستند الى ظهر المقعد في حالة انهيار .. وادركت انه سوف يتعذر علي تقويته على النهوض من مكانه ما لم ابادر بتقوية روحه المعنوية وادخل الطمأنينة على قلبه المنزعج .. ولكن بم اطمئنه والحقيقة التي صارحني بها الطبيب موجعة لا تبعث على الامل ؟ !

وفي غمرة حيرتي ، لم اجد غير ان اجمع شتات العبارات المشجعة التي تضمنها حديث الطبيب . واعدتها على سمعه موجزة ، وختمتها بتلك العلاج الجديد الذي شفى صبيا كسيحا في مثل حالة (ابيث) خلال اشهر معدودات . وكان لكلامي من الوقع الحري على الاب المنكوب ما اغراني بالمغالاة في تطمينه ، فأخذت اعزز توكيدي واسرف في الوعود ، وهو يردد في لهفة قوله : « اتعتقد تلك ؟.. هل قال الطبيب هذا ؟! » .

فقلت له في لهجة المقتنع : « نعم ، انها ستشفى قريبا تمام الشفاء ! »

فتنفس الصعداء وقال : « شكرا لله !.. شكرا لله ! »

وخلال تلك كانت العاصفة تزداد عتوا وشدة ، حتى بدأت الاشجار ترزح تحت وطأتها وهي تئن وتتقصف ، فقلت له وأنا ادفعه الى النهوض : « هيا .. يجب ان تعود الى بيتك حالا » .

وفي هذه المرة اطاعني بلا مقاومة ، فسار معي الى السيارة في نشاط ملحوظ ، وكأنما قوته كلماتي .. واحسست بالارتياح وهو يبلغ سيارته في امان واطمئنان ! ـ وقلت احدث نفسي : « اخيرا سوف ينعم المسكين بنعاس شهي عميق لا يشوبه كابوس او أرق وانزعاج »

وفيما انا انشر الغطاء على ركبتي الشيخ المحطم خشية ان يصيبه برد ، اذا هو يفاجئني بامساك كل من يدي ، وقبل ان انتبه واستطيع منعه كان قد اهوى بفمه على كل منهما وقبلها قبلة الشكر والامتنان !. ثم هتف والسيارة تنطلق به : « الى غد !.. الى غد ! »

وقفت هنيهة جامدا في مكاني لكن بوادر المطر كانت قد بدأت تتساقط وتشتد .. فانطلقت اقطع الامتار الباقية التي تفصلني عن باب المعسكر عدوا ، ثم هرعت الى غرفتي وانا انفض الماء عن ثيابي .

وفي عصر اليوم التالي توجهت الى القصر كعادتي ، فاستقبلني « جوزيف » كبير الخدم قائلا في حماسة : « هل اقود سيدي الملازم الى البرج توا ؟ ان الآنستين تنتظران هناك ! » .

ولحظت في لهجته لهفة غير عادية ، فمضيت الى السلم وانا اسائل نفسي عما هنالك .. وحين اقتربت من السطح سمعت انغام موسيقى عذبة ، يصاحبها غناء من اصوات نسائية جميلة .. فلما ارهفت انني تبينت ان الموسيقى صادرة من فونوغراف عادي ، اما الغناء فبعضه بصوت (اليونا) الرائع الشجي ، الناعم كذراعيها .. وبعضه بصوت فتاة اخرى حسبتها صديقة دعتها (اديث) لتناول الشاي معنا .. وشد ما كانت دهشتي حين وصلت الى الشرفة فلم اجد فيها غير الفتاتين ، واذا الصوت الفضي العذب صوت اديث !

ووقفت بالباب ذاهلا ، وكأني فاجأت الفتاتين عاريتين !

من كان يصدق ؟!.. اديث العليلة اليائسة من حياتها ، تغني بذلك الصوت القوي الجميل الذي لا يصدر الا عن الاصحاء الاقوياء ؟!. ترى ما الذي اسكرها بخمرة هذا الانشراح العجيب والبهجة العاتية ؟!

وزاد في دهشتي ان واحدة منهما لم تبد ادنى ارتباك حين وقع بصرهما علي ، بل هتفت اديث ببساطة : « تعال » . ثم اشارت الى اليونا ان تغلق الفونوغراف .. وعادت تخاطبني في شوق ظاهر قائلة : « اخيرا ؟. اخيرا ؟.. لكأني انتظرك منذ اجيال !.. والان اسرع وقص علي كل شيء ، بالحرف الواحد ، فلقد كان ابي منفعلا من فرط فرحته الى درجة انه تخبط في سرد القصة .. تصور انه جاء الى غرفتي حوالي الساعة الثانية او الثالثة صباحا ـ وكنت يقظى بسبب العاصفة ـ فعجبت اذ وجدته يضحك ويقهقه ، ويكاد يرقص وسط الحجرة كتلميذ المدرسة حين يستخفه السرور بالنجاح ! وحين روى لي الحديث حسبته يحلم ، او انا التي احلم .. ولكن دعنا من ذلك وتعال قص علينا القصة بحذافيرها .. قل لنا ماذا يكون هذا العلاج الجديد ؟!

وكما تداهم احدنا موجة قوية من امواج البحر فيحاول عبثا تثبيت قدمه على الارض ، حاولت انا ان اكافح امواج الحيرة الشديدة التي تولتني على الاثر .. ادركت توا انني انا الذي كنت الموحي للفتاة بهذا الايمان بالشفاء

وفيما انا افكر في جواب مضت الفتاة تستحثني : « ما بالك تتردد .. لعلك تقدر اهمية كل حرف من هذا الحديث بالنسبة لي .. والان قل لي : « ماذا قال لك كوندور ؟ »

فأجبتها مكررا ، كي اكسب الوقت : « ماذا قال لي ؟.. انه .. كان .. متفائلا جدا .. وهو يأمل ان يحصل في الوقت المناسب على نتائج مرضية .. واذا كنت لم اخطىء الفهم فهو يقترح تجربة علاج جديد يقوم الان بالتحري عن تفصيلاته .. وعلى اي حال يمكنك ان تفهمي منه حقيقة الامر .. »

وبدا انها لم تلحظ محاولتي التنصل من الموضوع ، او لعل لهفتها اعمت بصيرتها ، فقد قالت معلقة : « لقد قلت منذ زمن ان العلاج الحالي لا جدوى منه ، ان المريض يعرف حالته اكثر من سواه .. اتذكر ما قلته لك يوما من سأم كل هذه الوسائل من تدليك وحمامات كهربائية وجهاز جراحي ؟ انها بطيئة جدا . فكيف استطيع الانتظار هكذا دهرا ؟ لقد نزعت الجهاز هذا

الصباح ، بغير ان استأننه .. ولن تصدق مبلغ الارتياح الذي شعرت به .. لقد امكنني السير بسهولة اكثر .. ولكن قل لي بسرعة ، ما هو علاج هذا البروفيسور الفرنسي ؟ وهل اسافر الى هناك او يمكن العلاج هنا ؟ اني امقت المصحات المزدحمة بالمرضى والعجزة .. وكم من الزمن يستغرق الامر ؟ هل صحيح ما قاله ابي عن نلك الغلام الذي شفاه البروفيسور خلال اربعة اشهر ، بحيث صار بعدها يصعد السلم ويهبطه ويتحرك بملء حريته ؟.. تكلم ، ما بالك تجلس هكذا كالدمية المحنطة ؟.. اسرد لي الحديث بأكمله . متى يبدأ الدكتور كوندور هذا العلاج ، وكم من الزمن يستغرق ؟ »

ورأيت الا ادعها تستسلم لهذا اليقين المضلل ، فقلت في اسلوب حذر : « ما من طبيب يستطيع ان يجزم سلفا بمدة العلاج ، ولست اعتقد ان في الامكان تحديد شيء من نلك الان .. ثم ان الدكتور كوندور لم يتحدث في الامر الا بصفة عامة . قال ان المفروض ان نلك العلاج يؤدي الى نتائج باهرة ، لكن لكل حالة فردية ظروفها .. وعلى اية حال يجب ان ننتظر حتى يحضر هو ... »

لكن الفتاة في فورة حماستها تجاهلت « ضعف » لهجتي قائلة : « يا فتاي العزيز ، انك لا تعرف كوندور .. انه لا يجزم عادة بشيء ، من فرط حذره الشديد وتحوطه في الكلام .. لكنه اذا وعد (نصف وعد) فكن على ثقة من انه سوف يفي به .. وانت لا تعلم مبلغ حاجتي الى الارتكان على قرار نهائي في هذا الشأن ، فلقد ضقت ذرعا بالصبر الذي اوصوني به الى اجل غير مسمى .. ولو قيل لي اليوم ان علي ان اصبر ستة اشهر اخرى او حتى سنة كاملة فاني استطيع ان اوطن نفسي على نلك .. ولكن شكرا لله من اجل وصولنا الى هذه المرحلة .. انك لا تستطيع تصور مدى الارتياح الذي احسه منذ امس .. لكأني لم أبدأ حياتي الا الان !.. وقد خرجنا هذا الصباح الى المدينة بالسيارة ــ لا تدهش ــ فما دمت قد قطعت اكثر المرحلة ولم يبق امامي غير القليل فأني اخجل بعد اليوم من ان يراني الناس او يرثوا لحالي ، بل سأخرج للنزهة كل صباح .. وقد دبرنا لغد ــ الاحد ــ نزهة ممتازة ، وطبعا ستكون لديك عطلة فتذهب معنا الى المزرعة .. انني لم ارها منذ اربع سنوات او خمس سنوات ، وسوف تدهشك المفاجأة التي اعددناها لك ! »

ثم التفتت الى اليونا وسألتها ضاحكة : « هل ابوح له بالسر الان ؟ »

فضحكت اليونا واجابت : « نعم ، فلنكف عن ان تكون بيننا اسرار منذ اليوم »

فقالت اديث : حسنا ! اصغ الي إذن ايها الصديق العزيز .. كان ابي يريد ان تذهب بالسيارة ، لكني تذكرت ما قاله لي جوزيف يوما من ان الاميرة العجوز الحمقاء التي كانت تملك القصر قبلنا كانت تخرج دائما في عربتها التي تجرها الجياد ، عربة السفر الجميلة ذات اللون الزاهي .. وكانت تحرص على ان تسرج فيها جيادها الاربعة حتى لو خرجت الى مكان قريب ، لا لشيء الا لكي يعلم كل من يراها انها الاميرة ، فان احدا غيرها لم يكن يجرؤ على الخروج (بمظاهرة) كهذه !.. وكم سيكون طريفا ان نخرج فيها نحن مرة على تلك الصورة ، ولاسيما ان الذي سيقودها هو الحوذي نفسه !.. اننا ما زلنا نحتفظ بالشيخ المسن ، وان بقي بلا عمل منذ ابتعنا السيارة .. وقد كاد يطير فرحا حين اوصيناه امس باعداد العربة للخروج !.. وهكذا

ترى إننا دبرنا كل شيء وسوف نستيقظ مبكرين وانت سوف تقضي الليلة هنا بطبيعة الحال ـ لا تحاول ان ترفض فسنعطيك حجرة مناسبة ونحضر حاجياتك اللازمة لك من المعسكر .. كن ظريفا ولا تحرمنا هذه المتعة !.. »

وهكذا اندفعت ابيث في الثرثرة بلا حساب ، وانا اصغي اليها متعجبا من التغير الذي طرأ على نفسيتها وصوتها وحديثها ووجهها !.. كانت الفتاة التي امامي مخلوقة اخرى ، كأنها ثملة ، ذات عينين وضاءتين ضاحكتين وفم جذاب مرح .. وكأنما سرت عدوى مرحها الي فأحسست مثل ثملها ونشوتها المحمومة .. ولم لا ينجح في حالتها العلاج الذي نجح في حالة غيرها ، فتشفى هذه الصبية الغريرة الظريفة المشرقة التي فاض قلبها حبورا لتفكيرها في الشفاء ؟.. وهل من اللياقة ان ابدد نشوتها التي غمرت كيانها كله ، لاعنبها بالشكوك من جديد ؟.. لقد تعذبت المسكينة بما فيه الكفاية !

وكما يتحسس الخطيب لسماع العبارات الجوفاء التي نطق بها هو نفسه ، وجدتني اتأثر بشعور الثقة الذي ولدته في نفوس الجميع مغالاتي في تطمينهم !.. فلما انضم كيكسفالفا الينا بعد حين الفانا في ابهج حال ، نضحك ونثرثر وندبر امور المستقبل كما لو كانت ابيث قد شفيت فعلا .. حتى لقد تحدثنا في اختيار المدرب الذي سوف يعلم الفتاة ركوب الخيل من جديد بعد شفائها !

ولكن لم اكد اخلو الى نفسي في غرفتي بعد انتهاء السهرة حتى سمعت طرقة خفيفة على جدار قلبي ، طرقة تحذير كأنها تقول اليست آمال الفتاة كلها من وحي المغالاة ؟ او لا يجدر بي ان اصد تيار هذا التفاؤل الخطر ؟.. لكني ابيت ان اعترف لوعيي بهذه الحقائق ، وقلت لنفسي : « لم اشغل نفسي بالتفكير في هذا الامر ؟. وماذا لو اسرفت في احياء موات الامال ؟ ان اكاذيبي التي ولدتها الشفقة قد اسعدت الفتاة الى حد كبير !.. وما اسعاد مخلوق شقي بالذي يعد جريمة بأية حال !

* * *

استيقظت في صباح اليوم التالي على صوت ضحكات مرحة تنبعث من الخارج ، فتطلعت من النافذة لاجد الجمع كله قد التف حول العربة العتيقة الفاخرة ، التي صنعها لجد الامير اوروزفار ـ منذ اكثر من مائة سنة ـ صانع عربات البلاط الامبراطوري ، فجاءت تحفة في الصناعة والزركشة ، محلاة باللوحات الزيتية على جانبيها والستائر الحريرية على نوافذها ، والمرايا الصغيرة ، والمناضد التي تطوى وتقام ، وقوارير العطور المثبتة على جدرانها من الداخل .. الى اخر هذه الكماليات ووسائل الراحة اللائقة بالامراء !

ورأيت الخدم يضعون في مخزن العربة ادوات المائدة الفضية ومفارشها الانيقة ـ وكلها تحمل شعار اسرة اوروزفار ـ ثم الوان الطعام والشراب المختلفة المعدة للاكل في اي مكان ، بعد تسخينها بهمة مساعد الطاهي الذي اتخذ مكانه الى جوار الحوذي ، وكان هذا قد ارتدى ثيابه التقليدية المحلاة بالقصب !

وسرى نبأ الرحلة « التاريخية » في المنطقة كلها ، فخرج القرويون في ثياب يوم الاحد الزاهية الى الطريق العام كي يروا تلك المظاهرة العجيبة .. وهكذا ، بعد ان تناولنا الافطار ، اتخذنا مقاعدنا في العربة .. ثم نفخ الحوذي في البوق ، بالطريقة التقليدية وضرب الهواء بسوطه محدثا مثل صوت الطلق الناري .. وانطلقت العربة بنا الى الطريق العام ، حيث استقبلنا طيلة المسافة بتحيات الاحترام والتبجيل من الكبار ، وصيحات التهليل والغبطة من الصغار .. وثملت الفتاتان ـ ايث واليونا ـ بخمر المغامرة الجديدة والشمس المشرقة والهواء النقي العذب .. وعلى الجانبين ترامت الحقول .. حقول الحنطة الذهبية المتماوجة الهامات مع تموجات الهواء .. حتى وصلنا الى اول قرية في الطريق ، وكانت اجراس كنيستها تدق معلنة بدء الخدمة الدينية ، فأقترحت ايث ان نتوقف لنحضر « القداس »

ورحب بنا القوم ترحيبا كبيرا ، وقد رأوا في دخولنا كنيستهم الصغيرة المتواضعة تشريفا لهم .. وحين رأوا ايث تتوكأ على ذراعي اليونا وجوزيف بدا عليهم التأثر الشديد ، الذي يصيب البسطاء دائما كلما رأوا ان الكوارث لا تحجم عن ان تضع قبضتها الثقيلة على الاغنياء احيانا !.. وسرت الهمسات بين عجائز النساء ، وخف بعضهن الى احضار عدد من الوسائد المريحة كي تستند اليها ايث حيث اجلست ، في احد مقاعد الصف الاول !

وهزت يقيني بساطة القوم ، وتقواهم الظاهرة ، وايمانهم الخالص .. لكني لم البث ان شردت بذهني عن جو العبادة الى تأمل ايث الجالسة بجانبي ، فقد كانت تصلي بحرارة غير عادية ، وهي تكاد تنتفض انفعالا .

وحين عدنا الى العربة واستأنفنا رحلتنا ، ظلت ايث مستغرقة في التفكير ، فلذنا جميعا بالصمت ، احتراما لصمتها ورعاية لمشاعرها .. حتى وصلنا الى المزرعة ، وهناك اعد لنا القوم استقبالا خاصا ، فأقبلوا يركضون بجيادهم في سرعة عنيفة مثل قبيلة من البدو والاعراب تغير على غيرها .. ثم اطلق قائدهم صفارة خاصة فلانت قبضاتهم على اعنة جيادهم واصطفوا حولنا في صفين منتظمين رافقا عربتنا حتى بلغنا جميعا دار « العمدة »

وبعد ان طفنا بانحاء المزرعة ورأينا حظائر الجياد الحديثة الولادة العاجزة عن قضم قطع السكر التي تقدم لها .. اعد الغداء لنا في الخلاء ، واعاننا النبيذ المعتق على ان نسترد مرحنا السابق بل نمعن فيه .. وكانت ايث اكثرنا مرحا وضحكا وانشراحا ، بحيث كدت انسى اني عرفتها من قبل فتاة كسيحة تعسة !.. وحين ادخلت هي بعد الغداء الى دار العمدة لتستريح انطلقت اجرب جياد المزرعة واركض بها واحدا بعد الاخر في الفضاء الفسيح وقد تولاني شعور « بالحرية » لم يكن لي به عهد من قبل

واختار لنا الحوذي للعودة طريقا آخـر يخترق غابة صغيرة رطبة منعشة الهواء .. وفي احدى القرى التي مررنا بها فوجئنا باكثر من عشر عربات قد سدت الطريق تماما في وجهنا ، ولم يكن الحوذي ينفخ في بوقه حتى اقبل بعضهم على صوته .. وعلمنا ان اغنى الزراع في القرية يحتفل بزواج ابنه ، وان الاهالي جميعا قد ذهبوا الى ساحة الاحتفال للمشاركة فيه بالرقص والغناء والهرج .. وسرعان ما سرى نبأ وصول الهر « كيكسفالفا » واسرته فجاءنا ابو العريس يلهث ويرجونا ملحا ان نقبل دعوته الى تناول كأس من نبيذ مزرعته الخاص ، نخب صحة

العروسين .. ولم نجد ما يدعونا الى رفض دعوته فسرنا الى ساحة الرقص بين نظرات الاحترام من الاهلين جميعا

وافسح لنا اقارب العروسين طريقا الى المائدة الرئيسية ، حيث شربنا نخبهما وسط مظاهرة من التهليل .. ثم قدم لنا العروسان وانحنت العروس تحيي كيكسفالفا في ارتباك ظاهر ، ثم قبلت يد ابيث في احترام .. وجو العرس يثير دائما مشاعر العذارى وينعش روح « التضامن » الغامض بينهن وبين بنت جنسهن التي تزوجت وهكذا رأينا ابيث تجذب العروس اليها وتعانقها في تأثر ، ثم خطر لها خاطر مفاجيء فنزعت من احد اصابعها خاتما غير باهظ الثمن ووضعته في اصبع العروس ، التي اضطربت لهذه الهدية غير المنتظرة فلمعت في عينيها دموع الفرح والشكران .. ومرة اخرى احاطنا اهل العروسين ومدعويهم بمظاهرة من التحيات الشاكرة الحماسية ، وراحت ام (العريس) تنتقل في ارجاء المكان ثملة بالشرف الكبير الذي حظي به عرس ابنها !

وعلى اثر ذلك صافح كيكسفالفا اصحاب العرس ورجاهم الا يجعلوا وجودنا يعطل برنامج احتفالهم ، ثم اومأ الى رئيس جوقة « الغجر » الموسيقية كي يبدأ العزف .. ولم يكد يستهل عازف الكمان المقطوعة الاولى بنغم كمانه حتى ذرت الموسيقى كل تحفظ في مهب الرياح ، وانطلق الشباب الى حلبة الرقص في نشوة نارية ضارية !.. ونظرت ابيث الى الجمهور الصاخب السعيد بعينين تلمعان ببريق الانفعال ، ثم احست بيدها على ذراعي ، وقالت بلهجة آمرة : يجب ان ترقص انت ايضا » .. ولحسن الحظ لم تكن العروس قد اندمجت بعد في زحمة الراقصين . كانت لا تزال تختلس النظرات الى الخاتم المهدى اليها !. فأومأت اليها داعيا الى الرقص ، واذ ذاك احمر وجهها حياء وزهوا بهذا « الشرف » ، وتركتني اخاصرها مرحبة .. وحذا « العريس » حذونا فدعا اليونا الى مراقصته .. واحتدم الرقص حاميا عنيفا بهيجا ، كما لم يحتدم في القرية الوادعة من قبل ..!

لكن جعبة المفاجآت التي انطوى عليها ذلك اليوم لم تكن قد فرغت بعد .. اذ لم تلبث ان اقبلت احدى عجائز الغجر ، مدفوعة بسخاء هدية ابيث الى العروس ، فعرضت على الضيفة الكريمة ان تكشف لها طالع مستقبلها . واغرى الفضول هذه بالقبول ، فركعت الغجرية امامها وتناولت كفها تفحصه . وكل من زار هنغاريا يعرف اولئك الغجريات يبشرن دائما من يرين طالعه بأشياء سارة مفرحة ، كي يظفرن بأجر سخي .. لذلك ادهشني ان ألحظ على وجه الفتاة وهي تصغي الى همس محدثتها سحابة من القلق والكآبة .. وحين فرغت المرأة من كلامها اومأت ابيث الى ابيها كي يقترب ، فلما فعل اسرت اليه ببضع كلمات اخرج الرجل على اثرها من جيبه مبلغا ــ ولثمت طرف ثوب ابيث كالمأخوذة ثم جعلت تغمغم ببضع تمائم وادعية غامضة وهي تمسح قدمي المشلولة بيديها .. وحين فرغت ابتعدت مسرعة كمن تخشى ان يؤخذ منها المال الذي اعطيته !

واقلقني ان ارى مسحة الشحوب الذي كسا وجه ابيث ، فهمست لابيها على الفور :

« يحسن بنا ان نذهب » . ونهضنا على الاثر .. فتوقفت جوقة الموسيقين عن العزف واشترك افرادها في توديعنا مع جميع الحاضرين

وفي العربية جلست ابيث في مواجهتي ، وكانت لا تزال ترتجف من رأسها الى قدمها ، شأن الواقعة تحت تأثير نوبة انفعال عاطفي شديد .. وفجأة اخذت تنشج نشيجا عصبيا عنيفا ، ينم عن الفرح الطاغي .. كانت تبكي ثم تضحك على التوالي !.. اذن فلا بد ان الغجرية الخبيثة قد بشرتها بشفاء قريب ، وحين حاولنا تهدئتها عارضت في اصرار وقالت : « دعوني !.. دعوني !.. اني اعلم ان المرأة دجالة .. ولكن لم لا أخدع نفسي .؟ لم لا اتعلق بالوهم ولو مرة »

برقيــة سريعــة

كان الليل قد هبط حين وصلنا الى القصر عائدين من رحلتنا .. فدعاني القوم الى البقاء لتناول العشاء ، لكني اعتذرت !

لقد شعرت بأنني نلت كفايتي من السعادة طيلة اليوم ، وخشيت ــ ان بقيت ــ من حدوث اي شيء ينتقص من سعادتي هذه .. وهكذا انصرفت مبكرا ، وسرت في طريق المعسكر وقد خلت نجوم السماء ترنو الي بنظرات حانية ، ونسمات المساء العذبة تشدو في اذني !

كنت في تلك الحال من النشوة النفسية التي يود المرء فيها لو يعانق كل شجرة من اشجار الطريق ويتحسس جذعها وكأنه يتحسس جسم محبوبته .. ويدخل كل بيت فيجلس الى قاطنيه الغرباء كي يفضي اليهم بذات نفسه ، ويلقي عن صدره وقلبه بعض ما يفيضان به من سعادة عارمة !

وحين وصلت الى المعسكر وجدت تابعي واقفا ينتظرني امام باب غرفتي فرأيت ان اشركه بدوره في سعادتي ، فمنحته بشيء من المال يشرب به هو وفتاته بضعة اقداح من البيرة ويقضيان سهرة لطيفة ... لكني لم اكد امد يدي الى جيبي حتى رفع يده الى رأسه بالتحية العسكرية وابتدرني بقوله : « توجد برقية باسم سيدي الملازم »

وشعرت بانقباض لا علم لي بسببه ، وساءلت نفسي : ترى من يكون على ظهر البسيطة ذلك الذي يريد مني شيئا عاجلا يستدعي ارسال برقية ؟.. وفضضت المظروف باصابع مرتعشة ، فاذا فيه : « طلب مني ان ازور كيكسفالفا غدا . قابلني في الحانة الساعة الخامسة ــ كوندور »

لم اكد التهم السطور ببصري حتى افقت من نشوتي بسرعة البرق ، وتبدد هنائي الحالم في لمح البصر .. وفي اقل من ثانية ادركت ما لبثت ساعات طويلة ارفض الاعتراف به لنفسي : وهو ان سروري وطربي لم يكونا غير سكرة ولدتها اكذوبة !.. وانني بفعل ضعفي ومغالاتي في شفقتي قد اثمت فخدعت نفسي وغيري .. وها هو ذا الدكتور كوندور قادم ليناقشني الحساب ، وسوف ادفع ثمن الساعات الهنيئة التي استمتعنا بها جميعا !

وفي دقة الملهوف وجدتني اصل الى باب الحانة قبل الموعد الذي حدده لي الطبيب ، ولم يلبث قليلا حتى وصل قادما من المحطة في عربة يجرها جوادان ، فاتجه من فوره نحوي وابتدرني قائلا : « كنت اعلم اني استطيع الاعتماد على مراعاتك للميعاد .. ولعله يحسن بنا ان نجلس في الركن الذي اجتمعنا فيه تلك المرة ، فان الامور التي سنتناقش فيها ينبغي الا يسمعها احد ! »

وبدا لي الطبيب غير الرجل الهادىء « البليد » الذي عرفته في المرة السابقة .. كان يعروه شيء من الانفعال المكضوم وهو يتقدمني الى المقصورة المنعزلة ويخاطب الساقية التي هرعت الينا ، قائلا في جفاء ملحوظ : « اعطنا لترا من النبيذ ، مثل تلك الليلة ، ودعينا في خلوة تامة حتى نطلبك ! » . ثم التفت الي ــ عقب جلوسنا مباشرة وقبل ان تحضر الساقية ما طلب ــ قائلا : « ينبغي ان ادخل في الموضوع رأسا ، وبسرعة ، والا توهم القوم في « كيكسفالفا » اننا نعبر كل صنوف المؤامرات .. لقد لقيت عناء كبيرا في التخلص من سائقهم الذي كان مصرا على ان يأخذني اليهم فورا .. ولكن فلابدأ من البداية :

فوجئت صباح امس ببرقية هذا نصها : « ارجو ايها الصديق العزيز ان تحضر في اقرب فرصة . كلنا ننتظرك بفارغ الصبر . لك ثقتنا الكاملة وشكرنا العميق ــ كيكسفالفا » .. ولم افهم سببا واضحا لهذا الاستدعاء الفجائي ولما يمض على فحصي للمريضة غير بضعة ايام ، وكذلك لم افهم سر توكيد الرجل لثقته بي في البرقية ، او الداعي الى شكره العميق لي !.. لكني برغم ذلك اهملت الامر ، حاسبا انها نزوة جديدة من نزوات الاب الملهوف .. اما الذي صدمني حقا فهو الخطاب الطويل الذي تلقيته من اديث بالبريد العاجل هذا الصباح .. وفيه تذكر لي بلهجة النشوة المجنونة انها احست منذ البداية انني الانسان الوحيد على الارض الذي يستطيع انقاذها .. وانها تعجز عن وصف السعادة التي غمرتها حين عرفت اننا قد بلغنا اخيرا على حسن استعدادها لتنفيذ اي علاج اصفه بغير ابطاء ، مهما تكن صعوبته .. وان كانت ترجوني ان ابدأ باستعمال العلاج الجديد فورا ، لانها شديدة اللهفة على بلوغ نتيجته المرجوة !.. وكلاما كثيرا اخر لا يخرج عن هذا المعنى !..

« وقد القت هذه الرسالة ما يكفي من الضوء على الموضوع كله ،

فأدركت توا ان شخصا ما لا بد قد ثرثر على مسمع من الفتاة او ابيها بحديث العلاج الجديد الذي استنبطه البروفيسور فيينو .. وهذا الشخص لا يمكن ان يكون غيرك انت يا سيدي الملازم !

ويبدو انني اجفلت ، بالرغم مني ، حين واجهني بهذا القول .. فقد استطرد في لهجة حازمة : « كلا ! ارجو الا تدعنا نطيل المناقشة في هذه النقطة ، فاني لم افه لانسان غيرك

بحرف واحد عن علاج البروفيسور فيينو .. فاذا كان آل كيكسفالفا قد باتوا يعتقدون ان شلل ساقي اديث سوف يشفى بقدرة قادر خلال بضعة اشهر فانت وحدك المسئول عن اعتقادهم هذا !.. لكنني لست بسبيل لومك او تحميلك المسئوليات ، فقد اخطأت انا بدوري اذ لم اتخذ جانب الحذر في حديثي معك ، ولا سيما انه ما كان في وسعك طبعا ان تعرف ما عرفته انا – بالخبرة – من ان للمرضى واقربائهم لغة خاصة ينبغي ان يخاطبوا بها ، وانهم كثيرا ما يترجمون كلمة (ربما) بكلمة (يقينا). بحيث يجب ان يقطر لهم المرء الامل تقطيرا ، بمنتهى الحذر ، والا صعد التفاؤل الى رؤوسهم فورا كالخمر الرديئة وأصابهم بما يشبه الجنون !

« ولكن ما حدث قد حدث ، فلنغلق باب الحديث في تحديد المسئولية ، فما طلبت مقابلتك اليوم كي القي عليك محاضرة في هذا الشأن .. وانما كل ما في الامر انني رايت من واجبي – وقد تدخلت في عملي – ان أوضح لك حقيقة الموقف الراهن ، ولهذا سألتك أن نلتقي !»

ورفع كوندور راسه ، لاول مرة وحدجني بنظرة مباشرة .. لكن نظرته كانت خالية من التحامل ، بل انها على العكس كانت مفعمة بالشفقة والرثاء ! حتى لكأن صوته قد لان وازداد رقة حين استطرد فقال :

– اعلم يا عزيزي الملازم ان ما سأقوله لك الان سوف يؤلمك .. لكن – كما قلت لك – لا وقت لدينا للعواطف !.. لقد تلقيت اليوم رد البروفيسور فيينو على استفساري عن علاجه الجديد ، فاذا هو يؤكد نجاحه في نحو ثلاث حالات حتى الان ، لكنها جميعا – لسوء الحظ – لا يمكن مقارنتها بحالة اديث .. فالعلاج المذكور ناجع في شفاء امراض النخاع الشوكي الناشئة عن السل ، وفيها يمكن اعادة اعصاب الحركة الى القيام بوظائفها الاولى على خير ما يرام .. اما في حالتنا ، حيث الجهاز العصبي الرئيسي متأثر بالاصابة فان جميع طرائق البروفيسور فيينو ، كالرقاد بلا حركة داخل مشد من الصلب ، واستخدام اشعة الشمس ، والتمرينات الخاصة التي ابتدعها .. كل ذلك لايجدي فتيلا !.. هذا ما أردت ان أوضحه لك ، كي تفهم الموقف الراهن على حقيقته . ولعلك الان تقدر مدى تهورك حين بعثت في صدر الفتاة التعسة ذلك الامل الكاذب في انها ستشفى خلال اشهر وتستطيع ان ترقص وتجري وتتحرك مثل سائر الناس .. او بعبارة اخرى انك قد وعدتها بالشمس والقمر والنجوم ، وما أحسب الا انها ستناقشك الحساب بصدد تحقيق هذه الوعود !»

احسست كاني تلقيت ضربة حادة بفأس على راسي !. وطبيعي انني شعرت بحافز يدفعني الى الدفاع عن نفسي ، والتنصل لو من بعض المسئولية على الاقل .. لكن الكلمات التي خرجت من فمي جاءت متخاذلة وكانها دفاع تلميذ مذنب !. قلت : « لكنني ان كنت تفوهت بحرف الى كيكسفالفا فان ذلك لم يكن الا بدافع .. بدافع .»

فقطع الدكتور كوندور كلامي قائلا : « اعلم ذلك .. لقد اغتصب الكلام منك ، انتزعه انتزاعا !.. انني اعرف الناس بالحاحه اليائس الذي يحطم جميع خطوط دفاع محدثه .. نعم ، انا اعلم انك لم تضعف الا بتأثير شفقتك عليه ، وهي انبل الدوافع .. ولكن احسبني حذرتك من هذا الخطر من قبل ، فالشفقة سلاح ذو حدين .. وكل من لا يتقن استعماله يجب ان يكف يديه – وقبل كل شيء : قلبه – عن لمسه !.. في البداية فقط تكون الشفقة – كالمورفين –

مسكنا يخفف الام المريض ، ولكن مالم تعرف بالضبط مقدار الجرعة التي تعطيه اياها منه ، ومتى تكف عن اعطائها ، فان المسكن ينقلب سما قاتلا !.. وكما يدمن الجهاز العصبي « المورفين » فيظل يصرخ في طلب المزيد منه كل حين ، وكذلك تدمن النفس « الشفقة » فتصرخ في طلب المزيد منه يوما بعد يوم ، حتى تطلب في النهاية اكثر مما يمكن للانسان ان يعطي !.. وحين تاتي تلك اللحظة ينبغي للمرء ان يتوقع من المريض مقتا وكراهية يفوقان ما كان يناله منهما لو لم يقدم لمريضه يد المساعدة على الاطلاق ، منذ البداية !.. نعم يا عزيزي الملازم ، يجب ان يزن الشخص شفقته بالقسطاس ، والا احدثت من الضرر اضعاف ما كان يحدثه عدم المبالاة !.. هذه حقيقة نعلمها جيدا نحن الاطباء ، كما يعلمها القضاة والمرابون وغيرهم ، فلو اطلق الجميع العنان لشفقتهم لانقلب نظام الكون .. وها انت ذا ترى بنفسك ما احدثه ضعفك من اضرار !»

وكان علي ان ادافع عن نفسي فقلت : « لكن .. لا يستطيع الانسان ان يترك غيره فريسة لليأس .. وعلى اية حال فما كان هناك ضرر في محاولتي ان ..»

لكن الطبيب قطع كلامي وقال في حدة : « لاتنس يا عزيزى ان العبرة بالنتائج وليس بالدوافع ، فما جدوى ان تكون الدوافع نبيلة والنتائج سيئة ؟.. ان الشفقة ذاتها لا غبار عليها ، لكن هناك نوعين من الشفقة : الاول هو النوع الضعيف ، العاطفي ، الذي لا يزيد على كونه لهفة القلب على التخلص باسرع ما يمكن من الشعور الاليم الذي تخلفه رؤية شقاء انسان اخر .. وهذا النوع من الشفقة هو بمثابة رغبة غريزية في تحصين النفس ضد آلام الغير .. والنوع الثاني ــ الذي يعتد به ــ هو النوع غير العاطفي ، الذي يعرف ماهو منصب عليه .. ويغري صاحبه بأن يصمد ــ في صبر واحتمال ــ الى اقصى حدود طاقته وربما الى ابعد من ذلك !.. ولا يستطيع المرء ان يعين احدا بشفقته ما لم يمض في الشوط الى نهايته القصوى المريرة ، مستعينا بمعين لا ينضب من الصبر .. بل ما لم يوطن النفس على التضحية بذاته في هذا السبيل ..»

وشابت صوت محدثي مرارة ظاهرة ، ذكرتني فجاة بما قاله لي كيكسفالفا يوما عن زوجة كوندور العمياء ، التي وعدها برد بصرها اليها فلما عجز عن ذلك تزوجها ، بدافع التفكير .. لكنها بدلا من ان تعيش مقدرة لجميله نغصت عيشه وجحدت فضله !

لكن الطبيب ايقظني من افكاري بوضع يده على ذراعي في رقة ، ثم قال لي : « عفوا ، لم اقصد ان اقسو عليك ، فان استسلامك لعواطفك امر يحدث لكل انسان .. فلننتقل من هذه البحوث النفسية الى الحلول العملية ، وعلينا ان نعمل في هذا السبيل متضامنين .. واول مهمة تواجهنا الان هي ان ننتزع من اذهان القوم كل امل في علاك البروفيسور فيينو ، وكلما اسرعنا في ذلك كان افضل .. لا انكر انها ستكون صدمة قاسية عليهم ، لكننا لا نستطيع ان ندع وهما مثل هذا ان ينتعش وتتعمق جذوره في نفوسهم ، وفي استطاعتك ان تترك لي مهمة معالجة الموضوع بكل ما في وسعي من لباقة وحكمة .. اما بالنسبة لك فلعلك تقدر ان اسهل تخلص يبرىء ساحتي هو ان اوقع اللوم كله عليك ــ وبحق ــ فاذكر انك قد اسأت الفهم او غاليت في التخيل !.. لكنني لن افعل ذلك ، وانما افضل ان آخذ المسئولية كلها على عاتقي وان كنت

اصارحك بانك لن تسلم تماما من التعرض لذكرك ، فانت تعرف كيكسفالفا والحاحه الرهيب ، وما لم اتخذك بمثابة شاهد في (القضية) فاني لن افلح في اقناعه بالحقيقة ، لانه سيظل يحاورني ويداورني بطريقته المعهودة وبمثل هذا الجدل ، فيقول لي : « لكنك وعدت صديقك الملازم بكيت ؟». او يقول : « لكن صديقنا الملازم قال كذا !» كيما يخدع نفسه يتصور ان هناك بقية من امل !.. والان علينا ان نبادر بهدم القصر الذي شيده القوم في الهواء باسرع ما يمكن والا كانت الطامة الكبرى !»

واطرق الدكتور كوندور هنيهة ، كمن ينتظر موافقتي .. لكني لم اجرؤ على مواجهة نظرته ، فان ذكريات اليوم السابق جعلت تتسابق في مخيلتي : تذكرت التغير الذي طرأ على اديث ، والسعادة التي اشرقت من محياها ، وضحكاتها ودعاباتها .. كيف ابدد كل ذلك بضربة قاصمة ؟!.. كيف اعيدها الى اليأس القاتل الذي لم يكد يمضي يوم واحد على نجاتها من قبضته ؟. كلا ، لن استطيع ان اسهم في هذا الاثم !.. ومن ثم قلت لمحدثي ، في تخاذل : « اليس في وسعنا ان .. ان ننتظر بعض الوقت قبل ان نفتح باب الحديث في الموضوع مرة اخرى ؟.. ولو بضعة ايام ؟. فاني لاحظت امس ان الفتاة قد وطنت نفسها على تجربة ذلك العلاج الجديد ، وان هذا الامل قد امدها بالقوة النفسية التي كنت تتحدث عن احتياجها اليها .. بل لقد خيل الى انها استطاعت السير بسهولة اكثر من ذي قبل .. فلو تركنا الامر على هذه الصورة في البداية ، لربما غنمت الفتاة بعض الفائدة !»

فقال مقاطعا : « صه !.. انك تكاد تزج بنفسك في صميم الطب : والواقع ان الفكرة التي تقترحها ليست خرقاء من اساسها ــ اعني من وجهة النظر الطبية طبعا !ــ بل لقد فكرت فيها انا فعلا على اثر تلاوتي لرسالة اديث ، فكرت في ان نستغل هذا الايمان الوطيد بالشفاء ، الذي غرسته دون قصد في اعماق الفتاة ، فنرسلها مثلا الى مصحة طبيب من اصدقائي .. وهناك نوهمها باننا نستخدم معها العلاج المستحدث : وعندئذ لا بد ان يحدث الامل ، وتغيير الهواء والمناظر ، أثرا وقتيا قد يغري الفتاة بان تمطرنا حينا برسائل الشكر والامتنان !.. ولكني ــ كطبيب ــ ينبغي ان افكر في النهاية لا في البداية فحسب .. وان احسب حساب رد الفعل الذي لا بد ان يعقب مثل هذه الامال العارمة ، المغالى فيها ..!

فقلت له : « لكنك تبدو مقتنعا بان ذلك سوف يحدث تحسنا جوهريا في حالة الفتاة ؟»

فقال : « بلا شك .. في البداية سوف يحدث تقدم ملحوظ ، ولاسيما ان النساء عادة يستجبن سريعا للمؤثرات العاطفية والاوهام .. ولكن فكر فيما عساه ان يحدث بعد بضعة اشهر ، حين تستنفذ القوى النفسية طاقتها وتفقد اثرها فتحس المريضة انها بعد كل ذلك الانتظار والاجهاد والانفعال المتواصل ، والضغط على الاعصاب .. لم تكد تقترب خطوة من الشفاء ، الشفاء الصحيح الكامل الذي انتظرته كحقيقة آتية لاريب فيها !.. تخيل الكارثة التي تحدثها خيبة الامل هذه ولا سيما لفتاة مرهفة الاحساس !.. وكيف يمكن ان تعطي اديث ثقتها لي ، او لاي طبيب اخر ، بل لاي انسان في الوجود ، بعد ان تتبين اننا خدعناها على هذه الصورة المؤلمة ؟.. كلا يا عزيزي ، ان الحقيقة مهما تكن قاسية ارحم من ذلك المصير .. وفي الطب ، كثير ما يكون استخدام السكين اكثر الوسائل رأفة بالمريض !.. كلا ، لن استطيع

تحمل مسئولية هذه الخطة بضمير خالص .. وتستطيع ان تدبر الامر بنفسك .. فهل تواتيك الجرأة على سلوك هذا السبيل لو انك كنت مكاني ؟»

فأجبته دون تردد : « نعم ». لكنني تبينت في اللحظة التالية مبلغ تهوري في هذا الجواب ، فاردفت حذرا : « اعني لو اني كنت مكانك لارجأت المصارحة بالحقيقة حتى تتحسن حالة الفتاة بعض الشيء .. اغفر لي يا سيدي الطبيب ، قد يبدو ذلك في نظرك جرأة او غطرسة ووقاحة مني ، ولكن لو اتيح لك ان تلمس كما لمست انا خلال الاسابيع الاخيرة مدى حاجة مثل هؤلاء المرضى الى عون وسند يقوي من عزائمهم ونفسياتهم ، لوافقتني على رأيي .. نعم ، ينبغي ان تعرف الفتاة الحقيقة ، ولكن ليس الان .. بل عندما تصبح قادرة على تحملها !. اتوسل اليك يا سيدي الطبيب .. ليس الان .. ليس الان !.»

فقال الدكتور كوندور : « ومتى اذن ؟.. ثم من الذي يتولى هذه المهمة ؟ انها لابد ان تعرف الحقيقة يوما ، واخشى ان تكون خيبة املها حين تعرفها فيما بعد اقسى واخطر مائة مرة منها لو عرفتها الان .. فهل تود حقا ان تاخذ على عاتقك مثل هذه المسئولية ؟»

فقلت : « نعم !».. قلتها في لهجة حازمة ، متأثرا باشفاقي من الحرج الذي اواجهه لو وافقت الطبيب على رايه فاضطررنا للذهاب من فورنا كي نصارح القوم بالموقف !.. ثم اردفت قائلا :

ــ سآخذ هذه المسئولية على عاتقي الى النهاية ، فانا واثق من الفائدة العظمى التي سوف تجنيها ايث لو تركناها فترة من الوقت تنعم باملها القوي في الشفاء .. وإذا اقتضى الامر في النهاية ان اصارحها باني غاليت في وعودي ، فانا على اتم استعداد للاعتراف بنصيبي الكامل من مسئولية هذه المغالاة .. وانا على ثقة من انها سوف تفهم عذري وتقدر موقفي ..!

فقال متعجبا : « لكنك تحمل نفسك مسئولية فادحة ، والغريب في الامر حقا انك تصيب الناس بعدوى ثقتك العمياء هذه ، الشبيهة في قوتها بالايمان الديني !.. فلقد اصبت بها اول الامر آل كيكسفالفا ، وها أنت ذا الان تصيبني بها انا الان تدريجيا !.. حسنا ، اذا كنت مستعدا حقا للاضطلاع بعبء هذه المسئولية الخطيرة ، فأنت وشأنك . وفي هذه الحالة قد نستطيع المغامرة بامهال الفتاة اياما اخرى حتى تهدأ سورة انفعالها .. ولكن دعني اذكرك يا سيدي الملازم بانك لو فعلت ذلك الان فلن يكون من حقك ــ بل لن تستطيع ــ التراجع !.. ومن ثم استحلفك ان تتدبر الامر في روية ، فان من اعثر الاشياء ان تسترد ثقة انسان بعد ان يكتشف انك خدعته !.. والان ، قبل ان اعدل عن مصارحة القوم توا بالحقيقة ، هل تعاهدني وتعدني بأنك لن تخذلني فيما بعد ، وبأنني استطيع الاعتماد عليك »

ولما عاهدته على ذلك بدا عليه الارتياح وقال :

ــ حسنا ، فلنؤمل خيرا ، وان كنت شديد القلق من جراء هذا التأجيل . والان سأذكر لك الى اي حد سوف اتمشى معك . اني سأنصح للفتاة بالذهاب الى مصحة (انجادين) التي يديرها صديق لي ، ولكني سأصارحها بان علاج البرفيسور فيينو لم تثبت فائدته المحتمة بعد ، وان عليها الا تنتظر معجزة من ورائه !. فان شاء القوم بعد ذلك ان يتعقلوا بالامال الكاذبة اعتمادا

على وعودك فعليك انت ان تواجه الموقف ، والان ينبغي ان اسرع اليهم قبل ان يزعجهم ابطائي !» وخرجنا من الحانة الى حيث كانت العربة تنتظره امام البيت .. وحين اتخذ مقعده وتأهبت العربة للمسير تحركت شفتاي وهممت بان اناديه كي يعود .. لكن الجياد سبقت صوتي الى الانطلاق !

وبعد ثلاث ساعات وجدت في غرفتي بالمعسكر رسالة كتبت على عجل بخط مضطرب ، وقد احضرها سائق سيارة كيكسفالفا .. وكان فيها : « احضر غدا مبكرا بقدر ما تستطيع . عندي انباء مهمة لك . لقد حضر الدكتور كوندور الليلة ، وسوف نسافر خلال عشرة ايام .. اني سعيدة غاية السعادة ــ ايديث »



حطـام معركــة

ما الذي اوقع في يدي نلك الكتاب بالذات في تلك الليلة بالذات ؟. كنت قد تبينت انني متعب مجهد ، بحيث يغلب الا استطيع النوم سريعا ولا التفكير في صفاء .. فرايت ان استعين على النعاس بواحد من تلك الكتب القليلة التي أقتنيها في مناسبات متفرقة ، بدافع الشفقة على بائعيها الجائلين ، وحملتها معي كلما نقلت من معسكر الى معسكر دون ان اقرأ منها شيئا .. ووقع اختياري على كتاب « الف ليلة وليلة » لان قصصه الساذجة التي احتفظ بذكرى مشوهة لها منذ صباي ، لها اثر منوم اكثر من سواها .. وهكذا تمددت في فراشي وبدأت اقرا في تكاسل . قرات اولا قصة شهرزاد والملك الذي عشقها .. ثم مضيت في قراءة القصة بعد القصة ، حتى استرعت انتباهي قصة الشيخ الاعرج الذي كان راقدا في عرض الطريف فمر به شاب فناشده ان يحمله على كتفه لانه كسيح لا يستطيع السير على قدميه . واخذت الشفقة نلك الشاب فحمله على كتفه ومضى به وسرعان ما تبين له ان نلك المقعد المسكين ليس سوى جني شرير لايكاد يستقر فوق كتف حامله حتي يعقد فخذيه العاريين حول رقبته فيسلبه ارادته ويجعل منه عبدا خاضعا له يحمله الى كل مكان يقصده ، ولا حق له في ساعة واحدة يستريح فيها ، مهما تخذله ساقاه او يجف حلقه من الظمأ .. وهكذا يغدو الاحمق ضحية تعسة لشفقته ويفرض عليه قدره ان يحمل سيده الماكر الشرير على ظهره الى الابد ..!

وتركت القراءة ، اذ شعرت بان قلبي يخفق بشدة كأنما يوشك ان يقفز من صدري ، وتراءت لي صورة الساحر الشرير وقد اتخذ هيئة الهر فون كيكسفالفا ، بشعره الاشيب ووجهه النحيل ونظارته ذات الاطار المذهب !.. وخلت نفسي نلك الشاب الاحمق الذي استجاب لداعي الشفقة فحمل الجني على كتفيه ، بل لقد احسست ضغط فخذي (الجني) فوق رقبتي ، الى حد ضاقت معه انفاسي فسقط الكتاب من يدي وصارت اطرافي في برودة الثلج ، وشعرت بقلبي يدق بين

ضلوعي كانه يدق داخل صندوق من الخشب الصلب .. وحين غلبني النعاس زارني الشبح في منامي وظل يستحثني على المسير فلما صحوت في الصباح وقد بلل العرق شعري كنت مضني من التعب والاجهاد وكأني قطعت عشرات الاميال سائرا على قدمي ..!

وعبثا حاولت ان استعين بعملي ورفقة زملائي على نسيان تلك القصة اللعينة .. وحين اخذت طريقي بعد الظهر الى كيكسفالفا كان نلك الحمل المرذول لايزال يثقل كاهلي ، فاني في اعماق ضميري المبلبل كنت ادرك جيدا اني منذ نلك اليوم قد اضطلعت بمسئولية ذات طابع مبتكر لكنه جد مرهق ، كما ادركت ان واجبي صار يقتضيني ان اؤدي في كل مناسبة . في اصرار والحاح ، دورا تمثيليا معقدا ، واضع على وجهي قناعا زائفا صفيقا ، واكذب كل حين في هدوء المجرم المحنك الذي يفكر في كل تفصيلات جريمته ووقائعها ويحضر دفاعة عن كل حركة او سكنة من تصرفاته قبل ان يسأل ويستجوب باسابيع وشهور .. ولاول مرة في حياتي بدأت اتبين ان الضعف ـ لا الشر ولا الوحشية ـ هو المسئول عن اسوأ الكوارث التي تقع في هذه الدنيا ..!

وفي القصر جرى كل شيء كما توقعت ، او خشيت ، تماما .. لم اكد اظهر في شرفة البرج حتى استقبلت في حفاوة وترحيب .. وكنت قد حملت معي باقة من الورد كي اشغل بها انتباه القوم عني ، فابتدرتني اديث قائلة : « ما الذي دفعك الى ان تحضر لي وردا .. اني لست ممثلة اولى في مسرح ؟» ثم انتقلت على الفور الى سرد ما عندها من انباء فذكرت كيف امدها كوندور ـ نلك الطبيب المدهش العجيب ـ بشجاعة جديدة على تحمل آلامها ، وكيف يعتزمون ادخالها مصحة في جهة (انجادين) بعد عشرة ايام .. ثم اخذت تبدي عجبها لاضاعة يوم واحد بعد ان اهتدوا الى العلاج الشافي ؟ كما ذكرت انها حاولت الانتحار مرتين من قبل ، كي تضع حدا لحياتها العقيمة ، لكنها فشلت في المرتين !.. وكيف انها لاترى معنى او فائدة من التحسن البسيط المؤقت الذي كانت تجنيه من اساليب العلاج السابقة ، لان المريض اما ان يشفى واما لا رجاء في ادنى تحسن على الاطلاق !

ومضت في ثرثرتها النشوى على هذا النحو .. حتى خيل الي اني طبيب اصغي الى هذيان متهوس محموم !.. وكلما سمعتها تضحك لمناسبة ما كنت ارتجف انا فرقا ، فقد كنت اعرف ما لا تعرف هي ! اعرف انها تخدع نفسها ، ونحن نخدعها !.. وحين سكتت في النهاية انتابني شعور المسافر الذي يفيق من نومه عندما تتوقف عجلات القطار فجأة عن الضجيج .. لكني افقت لاسمعها تخاطبني : « ماذا ؟ اليس عندك ما تقوله ؟. ما بالك جامدا هكذا في مكانك وعلى وجهك هذه النظرة الغبية ؟.. عفوا !. اعني نظرتك الشاردة ؟.

« لم لا تقول شيئا ؟.. الست تشاركني سعادتي ؟»

فأجبتها وانا انتهز الفرصة لارضائها بعبارة ودية حارة تزيل كل اثر لجمودي : « كيف تتصورين شيئا كهذا ؟.. كل ما في الامر اني فوجئت على حين غرة .. وانت طبعا تقدرين نلك !.. والواقع اني مسرور لهذه الانباء !»

وأحنقني ان اسمع الصدى المتكلف البارد لكلماتي ، ولا بد انها لحظت تحرجي . فقد تغير مسلكها على الفور ، فاختفى انشراحها تحت سحابة من الكآبة المفاجئة ، كمن اوقظت فجأة

ـ في عنف ـ من حلم بهيج ، وقالت عاتبة : « لست ارى انك اظهرت سرورا كثيرا !»
وادركت الاهانة التي ينطوي عليها قولها ، فحاولت استرضاءها قائلا : « يا طفلتي العزيزة ..» لكنها انفجرت تقاطعني في حدة : « فلتكف عن مخاطبتي بهذا الوصف ..» انت تعلم اني لا اطيقه ، فانك لا تكبرني كثيرا !.. ولعله يحق لي ان ادهش لعدم اهتمامك للانباء التي اطلعتك عليها ، بينما كان ينبغي ان تسر بالعطلة الطويلة التي سوف تحظى بها ، فان هذا البيت سوف يغلق بضعة اشهر ، وهكذا يغدو في وسعك ان تعود فتجلس مع اصدقائك في المقهى وتشاركهم اللعب .. وتعتق من جلساتك المملة معنا كل ليلة !.. نعم ، استطيع ان افهم جيدا اكثر من سبب لشرودك ، فأمامك ايام ممتعة تتطلع اليها !»
وكانت لهجتها لاذعة ، بحيث رايت ان اتقي اغضابها بتكلف المزاح في جوابي ، فقلت : « ايام ممتعة ؟!.. هذا عادة ما يدور في اذهان المدنيين ، اما نحن العسكريين ضباط سلاح الفرسان فنعد يوليو واغسطس وسبتمبر احفل شهور السنة ارهاقا لنا في العمل ، بسبب المناورات السنوية التي لا تنتهي الا في أخر سبتمبر» »
فأخذت هي تكرر « أخر سبتمبر » مثنى وثلاث ورباع ، ثم تساءلت كأنما تخاطب نفسها ، وقد بدا عليها الاستغراق فجأة في التفكير : « متى اذن .. تحضر الينا ؟»
ولم افهم قصدها ، فسألتها في بساطة : « اين احضر اليكم ؟».. وعندئذ عقدت ما بين حاجبيها وقالت : « اما تكف عن هذه الاسئلة السخيفة ؟.. تحضر كي ترانا ، كي تراني انا !»
فقلت : « تعنين في (انجادين)..؟». قالت « نعم ». وعندئذ فقط ادركت قصدها ، فضحكت سخرية من نفسي !. كانت الفتاة الساذجة تجهل انها تخاطب رجلا يعتبر الرحلة القريبة الى فينا ترفا لا تتحمله ميزانيته ، برغم التخفيض الذي يمنح للضابط بنسبة خمسين في المائة !.. فضلا عن انها تطلب اليه ان يقضي اجازته كلها في جهة نائية باهظة النفقات مثل انجادين ؟
كانت الفكرة ابعد احتمالا من ان يفكر فيها مثلي !.. ومن ثم اجبتها ضاحكا : « يا لطرافة فكرتكم عن الحياة العسكرية انتم معشر المدنيين !.. انكم تتصورونها تجوالا بين المقاهي ونوادي البلياردو ونزهات في الطرقات ، بحيث اذا ما شعر المرء بالملل من عمله فما عليه الا ان يرفع اصابعه الى قبعته ويقول لرئيسه : (الى اللقاء يا كولونيل ، فلست احس ميلا الى العمل ، وسوف اعود حين اجد في نفسي هذا الميل !).. الا تعلمون ان احدنا اذا اراد التغيب ساعة واحدة كان عليه ان يقف امام رئيسه متصلب القامة وقتا طويلا كي يمن عليه بهذا الفضل ؟.. اما ان اراد اجازة ليوم كامل فلا بد في هذه الحالة من ان تموت له عمة او تقام جنازة لفرد من افراد عائلته !.. وبودي لو ارى ما يلوح على وجه رئيسي لو وقفت امامه ذات يوم لاخبره باني متشوق الى السفر في اجازة الى سويسرا !. احسب انه لا بد منهال علي يومئذ بوابل من الالفاظ والنعوت التي لا توجد في اي قاموس يصلح لان يقرأه الجنس اللطيف !. كلا يا انستي العزيزة انك تغالين في تبسيط الامور !»
ولكن لم يبد عليها انها اقتنعت بل اجابت قائلة :

ـ هذا الذي تقوله هراء !. ان كل شيء ممكن اذا وضعت تنفيذه نصب عينيك !.. فلا تصور لنفسك انك شخص لا يمكن للفرقة الاستغناء عنه .. ولهذه المناسبة يستطيع ابي ان يدبر الامر مع رؤسائك المختصين في وزارة الحرب في خلال نصف ساعة .. والواقع انك سوف تستمتع برؤية العالم الخارجي وتستريح من عملك الممل والمألوف فترة من الزمن والان كفى اعذارا ، وعدني بانك ستحضر !

وغاظني ان تتكلم ايث بهذه اللهجة ، مؤكدة استطاعة ابيها ان يملي اوامره على رجال وزارة الحرب كأنهم خدم عنده ، في حين ننظر نحن اليهم كأنهم انصاف آلهة !.. لكنني آثرت الاحتفاظ بلهجتي المازحة فقلت : « حسن جدا .. ان أمنح الاجازة بهذه السهولة ، وعلى طبق من الفضة كما تتخيلين !؟ ولكن اباك سوف يضطر ايضا الى ان يحصل على استمارة سفر ايضا ، علاوة على الاجازة !»

وحين بدا على الفتاة انها لم تفهم قصدي رايت ان اكون صريحا معها فقلت جادا : « هل فكرت حقا يا آنسة ايث فيما عسى ان تكلفني اياه رحلة كهذه ؟»

وعندئذ هتفت من فورها : « اوه ، اذن فهذا ما تعنيه ؟.. ان الامر لن يكلفك اكثر من بضع مئات من الريالات !»

وهنا لم استطع قمع غيظي ، فقد كان موضوع النقود « عاهتي » المستعصية ، او وتري الحساس الذي لا أتحمل لمسه الا برفق .. كنت في صدده احس شعورا بالنقص يعادل شعورها هي بالنقص بسبب شللها . ومن هنا اجبت في شيء من الحدة : « بضع مئات من الريالات فقط ؟. انها مسألة تافهة ، اليس كذلك ؟. ولعلك ترين من غير اللائق ان افكر فيها او اتحدث بشأنها !.. ولكن هل فكرت في مستوى المعيشة الذي تسمح به لنا مرتباتنا نحن الضباط ؟»

وبدا لي ان الفتاة ترمقني بتلك النظرة نفسها التي حسبتها نظرة احتقار ، فتملكني ميل جارف الى ان اكاشفها بفقري وحقيقة حالتي المالية .. تماما مثلما وجدت هي من قبل لذة في التشفي منا وتحدي مشاعرنا نحن الاصحاء بعرض عاهتها المؤلمة علينا في ابشع صورها والسير وسط الحجرة بعكازيها دون معاونة احد .. وهكذا وجدتني استطرد قائلا : « هل فكرت يوما في معرفة المرتب الذي يدفع لملازم مثلي ؟. فلأصارحك انا به .. انه مائتا ريال .. مفروض ان تكفي صاحبها ثلاثين يوما ، فيدفع منها اجر الطعام واللباس ومقابل اجر المسكن ، ثم يشتري منها الكماليات التي تناسب رتبته العسكرية .. هذا اذا لم يصب جواده بسوء يقتضي علاجا !.. فاذا بقي له شيء بعد ذلك فقد يستطيع ان يجلس في المقهى بين حين وحين ، واقصى ما يمكن ان يطلبه في هذه الحالة : قدح متواضع من القهوة !»

ثم شعرت لتوي بانني ارتكبت حماقة اذ اطلقت العنان لمرارة نفسي كي تنفجر وتفيض على هذه الصورة .. في مواجهة طفلة غريرة لم تسمح لها ظروفها بان تقدر يوما قيمة للمال ؟!.. وما كدت ارفع عيني اليها حتى ادركت مبلغ اثمي وقسوتي ، فقد صعد الدم فجأة الى وجنتيها فحجبت وجهها بكفيها .. وقالت في استحياء : « ومع ذلك تذهب وتشتري لي كل هذه الزهور الغالية ؟!»

وتلت ذلك لحظة عصيبة ، خيل الي انها لن تنقضي .. شعرت أنا بالخجل امامها ، وشعرت

هي بالخجل امامي !.. كان كلانا قد جرح احساس الاخر وخشي ان ينطق بكلمة اخرى .. وبعد حين استطاعت الفتاة ان تقول : يا لي من غبية حمقاء ؟ كيف جاريتك في كل هذا الهراء ؟.. انك اذا حضرت لزيارتنا فستكون ضيفنا . وهل تحسب ان ابي سيسمح لك بان تتكلف نفقات الرحلة وعلاوة على مشقة السفر للسؤال عنا ؟.. أي هراء هذا ؟!.. والان كفى حديثا في هذا الموضوع وحذار ان تنطق فيه بكلمة اخرى !»

ولكني قلت لها : « بل هناك كلمة اخرى لا بد ان تقال ، تجنبا لاي سوء تفاهم بيننا .. فلتعلمي اني لن اسمح لاحد بان يحصل لي على رعاية او امتياز خاص لا يتاح لزملائي .. انا اعلم ان نيتك حسنة وكذلك نية ابيك ، لكن هناك اناسا لا يقبلون كل خيرات هذه الدنيا .. فلا تدعينا نتكلم في هذا الموضوع مرة اخرى !»

فنظرت الي مليا وقالت : « اذن انت لا تريد ان تحضر لزيارتنا ؟»

فقلت على الفور : « انا لم اقل ذلك .. لكني شرحت لك لماذا لن استطيع الذهاب »

فقالت : « حتى لو ألح عليك ابي راجيا قبول دعوته ؟»

فقلت دون تردد : « نعم لن استطيع ذلك حتى في هذه الحالة !»

فسكتت هنيهة ثم قالت : « واذا سألتك أنا أن تحضر .. باعتبارك صديقا عزيزا ؟»

فقلت لها : « ارجو الا تفعلي فالمسألة في حكم المفروغ منها !»

ولاذت الفتاة بالصمت ، ولكني لمحت في اختلاج شفتيها ، بوادر العاصفة ! ان الطفلة المدللة لم تألف من قبل ان يتصدى لها انسان برفض طلب لها !.. وما هي الا لحظة حتى مدت يدها فاختطفت باقة ازهاري من فوق المنضدة وقذفت بها بعيدا في حنق ثم قالت وهي تصر على اسنانها منفعلة : « حسنا !.. على الاقل قد عرفت الان مدى صداقتك . انه اختبار لها جاء في اوانه !.. فلانك تخشى السنة زملائك تدمر متعة صديقة لك .. فليكن !.. لن أفاتحك في الامر مرة اخرى .. انت لا تريد الحضور .. كما تشاء اذن !».. ولبثت تكرر العبارة الاخيرة وهي تضغط بأصابعها المتقلصة ذراعي المقعد في عصبية شديدة .. ثم استطردت فقالت : « حسنا !.. ان المسألة قد انتهت عند هذا الحد ، ورجاؤنا الذليل قد رفض !.. انك ترفض ان تحضر لترانا ، حسنا .. سوف نتحمل ذلك ، وقد عشنا على ما يرام قبل ان نعرفك .. لكن هناك شيئا واحدا أريد أن تجيبني عنه بصراحة ، فهل تعدني بشرفك ان تفعل ؟»

فقلت : « نعم ، اعدك بشرفي !»

فقالت : « حسنا !.. لا تخش ان الح على (سموك) في شأن السفر !.. انما اريد ان اعرف : ما دمت لا تريد الحضور لزيارتنا هناك ـ لاي سبب من الاسباب ـ فما الذي يدفعك الى ان تزورنا على الاطلاق ..؟»

وقد كنت مستعدا لاي سؤال منها عدا هذا السؤال ، فجعلت اردده كالذاهل ، ثم قلت لها اخير :

ـ هذا امر بسيط .. بسيط جدا يا سيدتي وما كان ليحوجك الى ان تستحلفيني بشرفي !

ثم لذت بالسكوت ، لكنها هي لم تسكت ومضت تقول : « اذن .. اجب عن السؤال في الحال !»

ولم يكن ثمة سبيل امامي لمواصلة السكوت او تسويف الجواب ، على اني حرصت على انْ التزم الحذر واللباقة ما استطعت .. ومن ثم قلت لها : « ياعزيزتي .. لا تبحثي عن دوافع خفية وراء ذلك ، ولعلك تعلمين اني لست بالشخص الذي يفكر كثيرا في دوافعه الخاصة ، فلم يحدث ان سألت نفسي يوما : « لماذا ازور هذا الشخص او ذاك ، ولماذا احب هؤلاء الناس ولا احب اخرين غيرهم .. ولست استطيع ان اعطيك سببا لمجيئي الى هنا يوما بعد يوم سوى هذا السبب البسيط وهو اني افعل ذلك لانه يروقني ، ولاني احس هنا اني اسعد مائة مرة مني في اي مكان اخر ، اذ لا أكاد استرسل في الحديث معكم حتى ..»

ووقفت عند هذا الحد ، ولكنها راحت تستحثني على اتمام عبارتي قائلة في اهتمام : « حتى ماذا ؟.. تكلم !»

فقلت : « حتى اقول لنفسي ـ واغفري لي صراحتي ـ انكم ترحبون بوجودي بينكم ، وان مكاني هنا .. فاني لاشعر هنا ـ اكثر من شعوري في اي مكان آخر ـ كأني في بيتي .. وكلما نظرت اليك اشعر باني .. باني ازاء شخص لست في نظره (كمية مهملة) مثلما انا في نظر زملائي في الفرقة !.. واحيانا اتساءل متعجبا الم تضايقك زيارتي بعد .. بل كثيرا ما ينتابني الخوف من ان تكوني قد مللت عشرتي .. لكني لا ألبث ان اذكر نفسي بانك وحيدة في هذا البيت الكبير الفارغ . وانه قد يمتعك ان تجدي شخصا ياتي لزيارتك وهذا ما يمدني دائما بالشجاعة .. فكلما رايتك في هذه الشرفة او في غرفتك اقول لنفسي : انني احسنت صنعا بالمجيء بدلا من اتركك تقضين اليوم كله وحدك .. الست تفهمين هذا الشعور ؟!»

كان رد الفعل الذي احدثه كلامي في نفسها غير ما توقعت ، فقد جمدت عيناها الغبراوان ، وكأن كلماتي قد حولت انسانيهما الى كرتين من الزجاج او الحجر الاصم .. وبدأت اصابعها تروح وتجيء على ذراعي المقعد وتنقر على خشبهما اللامع نقرات عصبية سريعة .. ثم خرجت عن صمتها اخيرا فقالت على حين غرة : « اني افهم شعورك هذا جيدا ، واعتقد انك الان قد ذكرت الحقيقة ، وعبرت عن احساسك في عبارات مهذبة وان كانت معذبة لي في الوقت نفسه !.. لكني فهمتك تماما ، فأنت تحضر لاني وحيدة .. او بعبارة اخرى لاني مقيدة الى هذا الكرسي . هذا هو السبب الوحيد لمجيئك الى هنا كل يوم : ان تمثل دور « فاعل الخير » الذي يرأف بحال فتاة كسيحة مسكينة ـ كما تطلقون علي ـ ولا شك ، وراء ظهري ـ فأنت انما تحضر بدافع الشفقة وحدها .. نعم ، اني اصدقك ، وما الداعي الى الانكار الان ؟ انك أحد اولئك « الناس الطيبين » كما يسميهم ابي الذين يذوبون شفقة على كل مصاب !.. فشكرا لك على اي حال ، لكنني في غنى عن صداقتك التي تظهرها نحوي لا لشيء سوى اني كسيحة .. لقد ارتبت في الامر منذ زمن ، لكني لم استوثق منه غير الان ، حين اعترفت به دون ان تشعر بأسلوبك اللبق الملتوي .. ولعلك تغبط نفسك وتنتظر ان يحمد الناس لك هذا الانكار النبيل للذات ، ولكن يؤسفني ان اصارحك باني ارفض ان اسمح لاحد بتضحية نفسه من اجلي !.. ارفض ان اتحمل ذلك من اي انسان ، فكم بالاحرى منك ؟! بل امنعك من ان تفعل ذلك ، أتسمعني ؟.. اني امنعك !.. اني في غنى عن نظراتك المفعمة بالعطف وحديثك اللبق المنمق ، وفي وسعي ان اعيش من غيرهما كما كنت اعيش .. ويوم اعجز عن تحمل عيشتي هذه فانا اعرف كيف

اتخلص منكم جميعا .. انظر !.. ومدت الي فجأة راحة يدها ـ انظر الى هذه الندبة ! لقد حاولت مرة ، لكني فشلت !. كان المقص الذي استخدمته تنقصه الحدة ، فلحقوا بي واسعفوني قبل ان احقق غايتي ، ولكن ثق باني في المرة القادمة سوف اتقن فعلتي .. فاني افضل الموت على حياة اكون فيها موضع شفقة من احد !.. هناك مثلا ، اترى سور هذه الشرفة ؟ (وانفجرت فجأة ضاحكة ضحكة حادة كالمنشار).. لقد جعله ابي منخفضا كيلا يحرمني من رؤية المناظر الجميلة المحيطة بي ، ولم يخطر بباله او ببال الطبيب ، او المهندس أنني قد استطيع استخدامه يوما ما لغرض اخر .. تأمل جيداً ..!»

وتحاملت بغتة على نفسها فرفعت جسمها واندفعت بثقله كله نحو السور فأمسكت بحافته بيديها ، ثم اردفت : « نحن هنا في الطابق الخامس ، وتحتنا في القاع ساحة من الخرسانة المسلحة فيها اكثر من الكفاية .. وبي والحمدلله بقية من عافية تعينني على تخطي هذا السور .. نعم ، فان التوكؤ على العكازين يقوي العضلات !.. وهكذا لن احتاج الى الكثير من حركة واحدة اتحرر بعدها الى الابد منك ومن شفقتك اللعينة !.. واريحكم جميعا من عبئي ، انت وابي واليونا ، انظر لن يكون علي غير ان اتكيء على السور وانحني قليلا هكذا »

وهنا لمحت في عينيها الغبراوين بريقا خطرا ، فقفزت من مقعدي منزعجا وأمسكتها مسرعا من ذراعها ، لكنها انتفضت مجفلة كأن نارا قد لسعتها .. وصاحت بي : « اليك عني !.. كيف تجرؤ على ان تلمسني ؟ اذهب بعيدا .. ان من حقي ان افعل ما اشاء !.. دعني .. دعني واغرب فورا عن وجهي !»

واذ أبيت ان اطيعها ورحت اجذبها بعيدا عن السور ، بالقوة ، استدارت بالجزء العلوي من جذعها ولكمتني بقوة في صدري ، بقبضتها .. لكن الحركة افقدتها توازنها فخارت ركبتاها وانهارت بثقل جسمها كله على الارض قبل ان تستطيع ذراعاي ان تتلقياها .. وأثناء سقوطها جذبت معها منضدة الشاي التي حاولت التشبث بها ، فسقطت معها بجميع ما عليها من ادوات واطباق ، تحطم اكثرها محدثا دويا ورنينا عاليين .. وتدحرج الجرس البرونزي الكبير على ارض الشرفة حتى أخرها فضاعف من صوت الضجيج .. بينما رقدت ابيث على الارض مثل كومة تعسة لا حول لها ولا طول ، وهي تشهق باكية في حرقة من فرط الحنق والخجل !.. وكلما حاولت رفعها ضربتني صائحة : « اغرب عن وجهي .. اذهب بعيدا .. ايها الوحش !».. ثم راحت تبذل كل جهدها كي تنهض بغير معاونتي وهي تكرر صياحها في كل مرة احاول فيها الاقتراب منها ..!

وكان الضجيج قد بلغ مسمع « جوزيف » فاستقل المصعد الى حيث كنا .. ولم يكد يرى المنظر حتى غض من بصره في تأدب وخف الى سيدته المنتفضة المنتحبة يقيل عثرتها في رفق ـ دون ان ينظر الي ـ ثم يحملها عائدا الى المصعد الذي هبط بهما على الاثر .. وبقيت وحدي في الشرفة وحولي الاواني المحطمة مبعثرة في كل مكان ، كأنها حطام متخلف عن معركة !



قبلـــة ظامئـــة

لست ادري كم بقيت واقفا في تلك الوضع ، حائرا في فهم علة تلك الثورة المفاجئة !..

اي قول احمق نطقت به يستحق هذه الغضبة الشنعاء ؟!

وفيما انا اقلب الامر على وجوهه سمعت « فحيح » المصعد عائدا الى السطح .. ولم يلبث ان برز منه جوزيف ، واقترب مني قائلا في ادبه المعهود : فليسمح لي سيدي الملازم أن اجفف سترته المبتلة ..» وعندئذ فقد تنبهت الى بقعتين كبيرتين في سترتي وبنطلوني مبللتين بآثار الشاي الذي انسكب اثناء سقوط المائدة .. وبعد ان انهمك الرجل فترة من الوقت في محاولة تنظيف ثيابي وتجفيفها بمنشفة قال يائسا : « لا فائدة .. لعله يحسن ان ارسل السائق بالسيارة الى المعسكر كي يحضر لسيدي الملازم سترة اخرى ريثما انظف هذه وأكويها ..»

وكانت لهجته تنطق بالعطف البالغ ، فقلت له في بساطة : « لاداعي لكل تلك لانني ذاهب من فوري الى المعسكر ». وطلبت منه ان يرسل في طلب عربة تقلني الى هناك .. وعندئذ رفع الي عينيه المتعبتين في حركة توسل ، وهو يقول : « هلا بقي سيدي الملازم بعض الوقت ؟.. انني اعلم عن يقين ان سيدتي سوف تستاء جدا لو انك انصرفت الان !.. انها قد آوت الى مخدعها ومعها الانسة اليونا .. وقد طلبت مني الانسة اليونا ان ارجو سيدي الملازم ان يتفضل بانتظارها هنا ، فانها قادمة بعد لحظة !»

وشعرت بتأثر عميق .. فربت بيدي في رفق على كتف الخادم الوفي قائلا له : « دع هذه البقع حتى تجف في الشمس ، واجمع حطام الاواني المبعثرة .. ولسوف انتظر الانسة اليونا حتى تحضر ».. فأطلق جوزيف تنهدة ارتياح وقال : « ما اجمل ان يبقى سيدي الملازم !.. ان سيدي الهر فون كيكسفالفا لن يلبث قليلا ان يعود ، ولسوف يسر حين يرى سيدي الملازم . لقد ارادني ان ...»

وقبل ان يتم عبارته ، اقبلت اليونا نحونا وهي تغض من بصرها ، وقالت لي : « كلفتني ايث ان اسألك الذهاب اليها في مخدعها لبضع دقائق فقط . وهي تؤكد انك تؤدي لها بذلك صنيعا كبيرا ! »

وهبطنا السلم معا ، ثم سرنا صامتين خلال ممر طويل يؤدي الى مخدع ايث .. وحين بلغنا الباب همست في اذني على عجل : « كن لطيفا معها لست اعلم ما حدث في الشرفة ، لكني الفت نوباتها هذه من قبل ! وصدقني انها اول من يندم عليها ويشقى بسببها ، من تأثير الخجل وتوبيخ الضمير .. ولعلنا نعذرها لو قدرنا كم تقاسي في محنتها ! »

ولم اجب بشيء ، بينما طرقت اليونا الباب ، واذ ذاك سمعنا صوتا واهنا من الداخل يقول : « ادخل »

وكانت الغرفة غارقة في ضوء برتقالي خافت ، وفي نهايتها فراش رقدت فيه ايث ، وقد ابتدرتني قائلة في استحياء : « تعال واجلس هنا بجانبي .. لن اعوقك غير لحظات ! »

ولما جلست بجانبها ، اردفت قائلة وهي تغض بصرها خجلا : « اغفر لي اني استقبلك هنا ، فقد شعرت بهزال ودوار شديدين ، ربما لاني مكثت طويلا في الشمس .. والواقع اني لم اكن في كامل وعيي .. ولكنك ستنسى كل ما حدث ، وستغفر لي خشونتي معك ، اليس كذلك ؟ »

وكان في صوتها من التوسل ما جعلني ابادر باجابتها فورا : « ما هذا الذي تقولين ؟ انا الذي استحق اللوم ! ما كان ينبغي ان ادعك تطيلين البقاء في الشمس ! »

فقالت : « اتعني انك لست غاضبا ؟ وسوف تحضر ثانية ؟! »

فقلت : « نعم ، هذا ما اعنيه ، ولكن بشرط واحد ! »

فسألتني في لهفة : « ما هو ؟ » فقلت : « ان تثقي بي ، وتكفي عن توهم الاساءة المزعومة لي .. ان ما بين الاصدقاء لاقوى كثيرا من ان يؤثر فيه امر تافه كهذا !.. وليتك تعلمين مدى تغيرك حين تدعين نفسك على سجيتك فتضحكين وتمرحين ، كما فعلت يوم رحلتنا الاخيرة !.. لقد قضيت الليلة بأكملها افكر في التغير الذي طرأ عليك ، ولن .. »

فقطعت كلامي قائلة : « حقا ؟ .. هل قضيت ليلة كاملة تفكر في امري ؟ »

فقلت : « نعم ، ولن انسى ذلك اليوم قط .. كان رائعا بهيجا ! »

فقالت : « نعم ، هذا صحيح ، وقد كان يوما رائعا حقا ! ولعله ينبغي لي ان اكثر من الخروج في رحلات كهذه .. فان البقاء داخل جدران هذا « السجن » البغيض يرهق اعصابي .. آه لو ينتهي هذا السجن واسترد حريتي ..؟! »

فقلت : « سينتهي قريبا .. فتذرعي بالشجاعة والصبر فترة اخرى من الزمن ! »

وعندئذ رفعت جسمها قليلا في الفراش وقالت : « اتعتقد مخلصا ، اعني اتعتقد حقا ان هذا العلاج الجديد سوف يشفيني ؟ لقد كنت واثقة من الامر حين جاء ابي الى غرفتي في منتصف الليل اول امس ليبشرني ! لكن مخاوفي وشكوكي عاودتني امس من جديد ، فقد خيل الي اثناء فحص الدكتور كوندور اياي انه يذر الرماد في عيني وان الامر كله خدعة .. بل لقد بدا لي كأنه يزوغ من مواجهتي ، وتنقصه الثقة بنفسه ! بل انه لم يكن صريحا صادقا كعادته ، ولست ادري لماذا شعرت في موضع او موضعين من حديثه او شيئا ما يخجله في حضرتي .. اني

اصارحك وحدك بهذا الشعور ، بصفة خاصة ، فلا تذكر له حرفا مما اقول .. فلعل الامر كله محض شكوك مبعثها خيبة املي المتكررة فيما طال منوني به من شفاء قريب .. كلا ! ما عدت استطيع تحمل هذا الانتظار الرهيب ! »

وكانت في انفعالها قد رفعت جسمها في فراشها الى وضع يقرب من الجلوس ، وقد اخذت يداها ترتجفان . فهتفت بها مناشدا : « كفى ، كفى ! لا تعودي الى انفعالك .. واذكري انك وعدتني !»

فقالت :« نعم ، هذا صحيح ! ولا فائدة من تعذيب نفسي على هذه الصورة ! والواقع اني لم اكن اعتزم التحدث في هذا ، وانما اردت ان اشكرك لكونك لم تغضب مني بسبب ثورتي الحمقاء ! ومن اجل لطفك معي الذي لا استحقه .. وكلما فكرت في اني .. ولكن دعنا ننسى هذا كله ! »

فقلت لها : « هذا افضل حقا !.. والان يجب ان تنالي قسطا وافرا من الراحة »

ثم نهضت لاصافحها وانصرف ، فوقع بصرها على سترتي المبللة بآثار الشاي .. وكأنما ادركت ان الفعلة فعلتها فغضت من بصرها في خجل وندم . وتأثرت لمسلكها فقلت لها مازحا : « انه امر تافه ! طفلة شقية سكبت علي الشاي ! »

فقالت : « وهل اعطيت الطفلة الشقية (علقة) طيبة ؟ »

فقلت : « كلا !.. فقد احسنت الطفلة التصرف بعد ذلك ! »

قالت : « اذن .. لم تعد غاضبا عليها ؟ »

قلت : « البتة !.. وليتك رايت ظرفها وهي تسألني الصفح ؟! »

فقالت : « وهل صفحت عنها ؟ »

فقلت : « كل الصفح !.. ولكن عليها ان تبقى دائما طفلة مرحة طيبة مطيعة ! فتصبر حين يقال لها : اصبري ، ولا تطيل الجلوس في الشمس ، وتطيع الطبيب بدقة .. كما ان عليها قبل كل شيء ان تنام فورا ولا تشغل ذهنها بشيء .. طابت ليلتك ! »

ومددت اليها يدي ، فبدت في عينيها الضاحكتين اشراقة السعادة الغامرة وهي تصافحني

لكنني لم اكد اضع يدي على مقبض الباب حتى لاحقتني ضحكتها المرحة الشبيهة بضحكة طفلة عابثة ، وقالت لي : « انسيت ما تحصل عليه الطفلة عادة قبل ان تنام ؟ »

فوقفت والتفت اليها مغمغما في حيرة : « ما هو ؟ »

فقالت : « ان الطفلة حسنة السلوك تحصل عادة على (قبلة) قبل النوم ! »

وكانت مفاجأة .. لكنني برغم عدم ارتياحي لها لم اشأ المخاطرة بتكدير صفو الفتاة وهي على اهبة النعاس ، فقلت في بساطة وعدم مبالاة : « بلا شك !.. كدت انسى ذلك ! » .. وفيما انا اخطو الى فراشها ادركت من صمتها انها تحبس انفاسها ، وكانت عيناها مثبتتين علي وانا اقترب ، ورأسها جامد على الوسادة لا يتحرك .. فانحنيت فوقها على عجل وطبعت على جبينها في رفق وخفة قبلة (طائرة) لم تكد شفتاي فيها تلمسان بشرتها ، بينما ملأ خياشيمي من بعيد عطر شعرها الخفيف !

لكنني فوجئت بيديها تنطبقان على عنقي بكل قوتهما ، قبل ان املك ابعاد رأسي ، ثم فوجئت

مرة اخرى بشفتيها تطبقان على شفتي في حرارة وشراهة حتى تلاعست اسناننا .. بينما رفعت صدرها حتى التصق بصدري ، وكانت قبلة ضارية بائسة ظاعئة لم اذق مثلها في حياتي !

وبقيت ايديث متشبثة بعنقي وصدري حتى خانتها قوتها فخفت حدة عناقها لي ، وتحولت يداها في نشوة محمومة عن عنقي الى شعري ، وهي تحدق في عيني كالمسحورة دون ان تخلي سبيلي !

وبعد ان استراحت هنيهة جذبتني اليها من جديد واخذت تنثر قبلات حارة عمياء على وجنتي .. وجبيني .. وعيني .. وشفتي ، في جشع وحشي ، شأن العاجز الذي يبغي التعويض عن عجزه ، وكانت وهي تجذب رأسي نحوها تغمغم ملهوفة : « يا لك من غبي ! لكم انت غبي كبير ! » بينما تزداد قبلاتها حرارة وعنفا وضراوة .. واخيرا هزت جسدها رعشة مفاجئة فتراخت يداها وسقط رأسها الى الخلف على الوسادة .. لكن عينيها لبثتا ترقباني ببريق الانتصار !

وفي النهاية ارتدت عني واخلت سبيلي وهي تهمس لي ، في اعياء وخجل : « والان اذهب ، اذهب .. ايها الغبي الكبير ... اذهب ! »

* * *

وذهبت .. وانا اترنح كالثمل !.. وقبل ان ابلغ نهاية الممر المعتم خذلتني البقية الباقية من قواي واصابني دوار جعلني استند الى الجدار !

اذن .. كان هذا سرها .. سر قلقها ومسلكها المتناقض غير المفهوم !

وانتابني احساس من انحنى في غير ارتياب فوق زهرة زكية الرائحة ، فلدغته من تحتها افعى !.. فلقد كنت متأهبا لكل شيء الا ان ارى هذه الكسيحة التعسة قديرة على ان تحب ، راغبة في ان يحبها الرجال !.. وكنت على استعداد لان اصدق كل شيء الا ان هذه المخلوقة العاجزة التي لم تنضج بعد ، تملك الجرأة ــ بل النزق ! ــ على ان تحب وتشتهي بمثل تلك العاطفة المشبوبة العارمة ! ولهذا توقعت كل احتمال الا هذا الاحتمال !.. لكنني حين قلبت الامر على وجوهه اصبت بصدمة جديدة ، اذ تبينت ان زياراتي المتكررة للفتاة ، بدافع الشفقة وحدها ، هي المسئولة عن توهم المسكينة ــ القابعة في سجنها المنعزل عن العالم الخارجي ــ انني اكن لها عاطفة خاصة .. في حين كنت ــ انا الغبي الساذج ــ انظر اليها نظرتي الى كسيحة معذبة ، او بعبارة اخرى الى طفلة لا امراة ! وما خطر ببالي قط ان تحت غطائها وثيابها يتنفس ويشعر وينتظر جسد ظامىء مشتعل ، يشتهي ويتوق الى ان يشتهيه الرجال !

وقد يكون جمال جسم اليونا قد استثارني في بعض الاحيان ، لكنني لم افكر قط في ايديث باعتبارها انثى كاملة الانوثة مثلها .. حتى فطنت اخيرا الى الحقيقة التي اغفلها اكثر الكتاب الذين صوروا الحب في قصصهم : وهي ان المنبوذين والمشوهين والاشقياء في حياتهم عامة ، يشتهون ملذات الجسد بشراهة اعنف واخطر مما يشتهيها السعداء وانهم حين يحبون يكون حبهم عنيفا يائسا مهلكا « اسود » .. كأنما يشعرون بأن ليس هناك ما يبرر وجودهم الا ان

يحبوا ويحبهم الناس !

نعم ، وهكذا ترتفع من اعمق اعماق هاوية اليأس ، اشد تأوهات الظامئين الى الحب ؟.. تلك هو السر الرهيب الذي حجبته عن ادراكي فيمًا مضى سذاجتي ونقص تجاربي ، ثم شعرت به اخيرا يخترق وعيي مثل سكين حاد !.. وادركت لم قفز لفظ « غبي » الى شفتي الفتاة في غمرة ثورتها العاطفية ، وهي تضغط صدري بصدرها !

لقد كانت محقة في ان تطلق علي هذا الوصف .. وهل انا غير غبي !؟.. اكبر الظن ان اهل الفتاة جميعا : اباها ، واليونا وجوزيف ، وبقية الخدم ، قد لاحظوا تعلقها بي ورقبوا شغفها المكتوم في كثير من القلق ، وانا وحدي الذي اعمتني شفقتي الحمقاء عن ادراك الحقيقة ، فمضيت في تعذيب هذه الروح الرقيقة دون ان ادري !

وكما تضيء ومضة النور الخاطفة عشرات الاشياء التي تقع عليها في آن واحد ، اضاءت قبلات الفتاة المحمومة عشرات من الامور الصغيرة كانت غامضة علي طيلة الاسابيع السابقة .. ادركت فجأة علة استيائها كلما ناديتها بقولي : « يا طفلتي العزيزة » . فقد كانت تتوق الى ان اعتبرها امرأة ، واهفوا اليها كمعشوقة !.. كذلك فهمت سبب ثورتها كلما لمست مني تصرفا ينم عن الشفقة ، فقد ادركت المسكينة بغريزة المراة ان الشفقة شعور اقرب الى الاخوة منه الى الحب الحقيقي !.. وكم تاقت المسكينة ولا ريب الى ان تسمع مني كلمة او اشارة رقيقة تنبيء عن استجابتي لعاطفتها ، او احساسي بها على الاقل .. ولكن بدلا من ان اروي ظمأها الطويل ، او ابتعد عن طريقها فأدع لها فرصة النسيان ، بقيت اغذي عاطفتها ـ من حيث لا اشعر ـ واضاعف من قلقها وعذابها ، بزياراتي اليومية المتكررة !

اذن لم يكن عجبا ان تنهار اخيرا اعصابها ، وتنفجر عواطفها الكظيمة على تلك الصورة التي فوجئت بها ..!

وتتابعت مئات الصور والخواطر والكلمات متسابقة الى ذهني في غير انتظام وانا اجر ساقي عبر الممر الطويل المعتم المؤدي الى الردهة الكبرى ، حيث تركت سيفي وقبعتي .. وخطر ببالي ان الوذ بالفرار قبل ان ينتبه احد الى خروجي من مخدع الفتاة ، خشية ان يرى على وجهي آثار الاضطراب .. لكن ما خشيته وقع ، فقد خرجت الي (اليونا) من الصالون ، وكانما تنتظرني هناك . ولم يكد بصرها يقع علي حتى بادرتني في جزع : « ماذا حدث ؟.. هل اصيبت ايث بمكروه ؟ »

فأجبتها قائلا : « لا تؤاخذيني !.. يجب ان انصرف دون ابطاء ! »

لكنها لاحظت علي ولا ريب ما ازعجها ، فقد استوقفتني في حزم ودفعتني الى اقرب مقعد مريح وهي تقول : « اجلس قليلا حتى تسترد هدوءك .. وتصلح من هيئتك . الا ترى شعرك المشعث ؟ ساحضر لك كأسا من الكونياك ! »

واتجهت الى البار فملأت لي منه كأسا جرعت ما فيها مرة واحدة ثم وضعتها جانبا بيد مرتعشة .. وبقينا هنيهة صامتين ، واليونا تختلس النظر الي في حذر وقلق ، كما لو كنت مريضا !.. ثم قالت اخيرا : « هل ذكرت لك ايث شيئا .. اعني شيئا يتصل بك ؟ »

وادركت من لهجتها انها فهمت كل شيء ، فغمغمت : « نعم ! »

وعادت تسألني بعد تفكير : « الم تلحظ ذلك حقا قبل الان ؟ »

فاندفعت اجيبها : « وكيف كان يمكن ان تكون لدي ادنى فكرة عن شيء مثل هذا ؟.. شيء جنوني ، لا يقبله العقل ؟.. كيف امكنها ان ..؟ ولم اكون انا .. دون الناس جميعا ؟ »

وعندئذ تنهدت اليونا وقالت : « يا الهي !.. لقد طالما ظنت المسكينة انك تأتي خصيصا من اجلها .. وكنت انا ارجح انها على خطأ ، واستنتج من تصرفاتك معنا ، في بساطة وغير كلفة ، انك لا تحس نحوها غير الشفقة ، ولكني ما كنت لاقوى على ان اقسو على طفلة مثلها فأحرمها من الوهم الجميل الذي يسعدها ، في الوقت الذي خلت فيه حياتها من اسباب السعادة ؟ »

وهنا قلت لها وقد بدأت اقدر خطورة الامر : « ينبغي ان تبددي هذا الوهم قبل ان يستفحل !.. انه جنون منها ، حمى ، نزوة صبيانية !.. ولعله لا يعدو ان يكون شغفا بالسترة العسكرية .. ولو انها صادفت غدا ضابطا آخر فسوف تتكرر القصة .. اوضحي لها ذلك .. وفي مثل سنها يمكن التغلب على هذه الازمات في وقت وجيز ! »

لكن اليونا هزت رأسها في اكتئاب واسى قائلة : « كلا يا صديقي العزيز !.. لا تخدع نفسك !.. ان الامر بالنسبة لاديث جد خطير ، وهو يزداد خطرا كل يوم .. ولو عرفت ما يجري في هذا البيت منذ حين لآمنت برأيي . انها توقظنا بجرسها مرات كل ليلة ، لكي تسألنا في لهفة : « الا تعتقدون انه يحبني ولو قليلا ؟ » .. ثم تطلب ان نأتي لها بالمرآة لترى وجهها !.. لكنها تلقيها بعيدا وكأنها تنبهت فجأة الى مدى حماقتها .. ومع ذلك لا تنقضي ساعتان حتى تتكرر القصة !.. وفي نوبات يأسها تستجوب اباها وجوزيف والخادمات .. وامس ارسلت في طلب تلك « العرافة » الدجالة التي قابلناها في عرس القرية ، كي تستمع لاكاذيبها مرة بعد مرة .. بل لقد كتبت اليك خمسة خطابات ثم مزقتها قبل ان ترسلها .. وكم من مرة كلفتني ان اذهب فأبحث عنك واسألك : « هل تحبها ، والى اي مدى ؟ » .. ولم اكن افرغ من ارتداء ثيابي ويعد السائق السيارة للخروج حتى اسمع جرسها اللحوح يدعوني مرة اخرى لتستحلفني بكل عزيز الا اذهب !.. وفي كل ليلة ، لم تكن انت تنصرف حتى تعيد هي على مسامعي كل كلمة قلتها لها وكل اشارة بدرت منك ، وتسألني رأيي في مدلول هذه ومغزى تلك ، فاذا ابدت ظنونها صرخت في وجهي : « انت كاذبة .. هذا غير صحيح .. انه لم يوجه الي اليوم اية عبارة رقيقة ! » .. ثم تكرر اسئلتها واجاباتي ، وثوراتها ورضاها ، ويأسها واملها .. كل ساعة من ساعات يقظتها في النهار او الليل !.. ومنذ (اصيبت) بهذه الحالة بات مرضها الجديد شغل ابيها الشاغل ، يهدئها ويلاطفها حتى يغلبها النعاس آخر الامر .. وعندئذ يمضي الى غرفته كي يذرعها حائرا مفكرا اكثر الليل !.. آه لو علمت كم يحبك ؟!.. انه يكاد يعبدك !.. فهل تريد ان تقول ان هذا كله جرى دون ان نلحظ منه شيئا ؟!.. »

وهنا صحت قائلا في نوبة يأسي البالغ : « كلا !.. اني لم احس شيئا من ذلك اطلاقا !.. والا فهل تحسبينني كنت اواصل زياراتي في غير كلفة لو كانت في ذهني ادنى فكرة عن شيء كهذا يجري في البيت ؟.. وكيف كان يمكن لمثلي ان يفكر في جنون من هذا القبيل ؟.. كلا !.. واقسم لك ! »

وكدت اقفز من مقعدي حيرة واضطرابا ، لولا ان امسكت اليونا ذراعي قائلة : « ارجو ان

تهدأ ، واخفض صوتك ، فان لانيث اذانا تخترق الجدارن .. ثم عدني بان تكون رحيما بها .. لقد تفاءلت المسكينة بكونك انت الذي جلبت نبأ العلاج الجديد .. وليتك رأيتها واباها وهما يجهشان بالبكاء والشكر لله من اجل شفائها المرتقب ، ونهاية ايامها السوداء !.. لقد كان اول ما فكرت فيه انك ــ حين تشفى هي ــ لن تتردد في .. انك تفهم قصدي ! لذلك ينبغي الا تلقي بالتعسة في هاوية اليأس في هذا الظرف الذي هي محتاجة فيه الى قوتها النفسيه كي تباشر العلاج الجديد ..! »

لكني صحت في جنون البائس وانا اضرب ذراع المقعد بقوة : « كلا .. كلا ! لا استطيع ! لن ادعها تحبني على هذه الصورة ، ولن استطيع تجاهل الامر والمضي في مسلكي القديم .. هذا مستحيل ! انك لا تعرفين ما حدث في غرفتها ، انها واقعة تحت تأثير خطأ شنيع فيما يتصل بي ! اني لم اشعر نحوها بغير الشفقة .. الشفقة وحدها ولا شيء غيرها ! »

فتنهدت اليونا ثم قالت : « هذا ما خشيته منذ البداية ! ولكن رباه ! ماذا عساه يحدث الان ؟.. كيف ننهي اليها الحقيقة ؟ »

وساد الصمت بيننا فترة ، وقد ادرك كلانا حرج الموقف .. وفجأة سمعنا صوت سيارة كيكسفالفا تقف امام الباب ، فهتفت اليونا : « يحسن الا تقابله الان وانت منفعل .. سأحضر لك سيفك وقبعتك كي تخرج من الباب الخلفي » .. وبعد لحظات كنت اغادر البيت متسللا كلص يستخفي في الظلام !



خطابان متناقضان

كنت فيما مضى من شبابي اعتقد ان اشواق الحب وآلامه افظع عذاب يمكن ان يصيب القلب البشري !.. لكني في تلك الليلة بدات ادرك ان هناك عذابا امر من عذاب الشوق والاشتهاء ، هو عذاب من يجد نفسه محبوبا برغم ارادته ، من امرأة تتلظى بنيران الرغبة ، وهو عاجز عن تخليصها من وسط النيران !

ان الشخص الذي يصاب بالحب قد يستطيع السيطرة على عاطفته في بعض الاحيان ، وذلك لانه هو نفسه خالق بؤسه ، وقد يعجز عن هذه السيطرة لكنه على الاقل يعرف انه المسئول عن آلامه .. اما المحبوب غير المحب فضائع لا خلاص له ، لانه لا يستطيع ان يضع حدا لعاطفة عاشقه وحدة رغبته .. ولعل الرجل اقدر من المرأة على ادراك مدى قسوة هذه المأساة ، لان المرأة التي تصد حبا غير مرغوب فيه انما تطيع قانون جنسها ، الذي يعتبر الصد او الرفض امرا غريزيا في الانثى ، لا يمكن ان تتهم من ورائه بمجافاة الشعور الانساني !.. اما حين يقلب القدر الموازين فتجرؤ امرأة على مغالبة جمودها الطبيعي الى حد التصريح لرجل بأنها تحبه قبل ان تستوثق من انه يبادلها الحب ، بحيث نراها تعرض عليه حبها ، فيصدها هو بقلب بارد .. فأن المسألة تتعقد وتصبح مأزقا يصعب الفكاك منه !.. لان الرجل الذي لا يبادل عاشقة عاطفتها انما يمزق كبرياءها ، وهو حين يقابل تقربها منه وتوددها اليه ، بالنفور والاعراض انما يطعنها في اعز مشاعرها وانبلها .. وعبثا تكون عندئذ كل رقته وادبه في التنصل منها ، بل انه ليهينها ان عرض عليها صداقته الخالصة بعد ان تكون قد كشفت له ضعفها .. وتعد ذلك منه جريمة خطيرة وقسوة بالغة !

كيف لا وهو قد علم ان هناك امرأة تنتظره ، وتفكر فيه ، وتشتاق اليه ، وتتنهد من اجله ليل نهار !.. بكل خلية وعصب في كيانها ، بجسدها ، بدمها !.. تريد يديه ، وشعره وشفتيه ، ورجولته وليله ونهاره ، وعواطفه وحواسه ، وجميع افكاره واحلامه !.. وتريد ان تشاطره كل شيء ، وتأخذ منه كل شيء ، تنهله نهلا مع انفاسها .. وسواء اكان يقظانا ام نائما فهي يقظى محمومة تنتظره وتحلم به .!. عندئذ يكون من العبث الظالم ان تحاول عدم التفكير في المرأة التي تفكر دائما فيك او تحاول الفرار ممن استوعبتك في دمها ذاته ، فانها تحملك معها ، بل فيها ، اينما ذهبت هي وحيثما ذهبت انت ! تحملك سجينا في اعماقها ، تحس تفكيرها فيك ، وحنينها اليك ، وعذابها بسببك ، كما لو كان ذلك كله نارا تلتهمك ، وتملؤك بغضا وخوفا !.. انها لافظع محنة ، لا فكاك منها ، يمكن ان تصيب رجلا : ان يجد نفسه محبوبا برغم ارادته !.. انه عذاب يفوق كل عذاب ، وعبء على الضمير لا يبرره ابشع اثم !

وهكذا وجدتني اواجه هذا الحب اليائس ، فأعاني منه شفقة مزدوجة : شفقة على الفتاة التي تقاسي نار حب مرفوض ، وشفقة على نفسي التي تقاسي عناء صد تيار حب مفروض .. لكن نصيبي من هذا البؤس المزدوج المقسوم كان اثقل النصيبين ، فلئن كان اخلاف رجاء امرأة في حبها يعد قسوة ووحشية ، فكم بالاحرى يكون رفضي حب هذه الفتاة التعسة الكسيحة الملتهبة العاطفة ، وطعني شعورها بعد ان طعنتها الحياة قبلي في الصميم طعنة نجلاء ؟!

وهكذا لم يخف علي اني بالتنصل من حب هذه الصبية الغريرة قد اعرض حياتها وعقلها للخطر .. واني ان لم اتظاهر على الاقل بالاستجابة لعاطفتها ، ما دمت عاجزا عن الاستجابة لها حقا ، فأني انما ارتكب بذلك — برغمي — جريمة بشعة نكراء !

على اني — لسوء الحظ — لم يكن لي في الامر خيار !.. وفي اللحظة الرهيبة التي انتزعت فيها جسمي من بين ذراعي عاشقتي لاتخلص من عناقها العنيف ادركت بغريزتي قبل ان ادرك بعقلي انني لن اقوى مطلقا على ان احبها كما تحبني ، بل لن اجد في قلبي حتى من الشفقة ما يكفي لكي احتمل عاطفتها الثقيلة الوطأة .. ومن هنا قدرت منذ البداية ان لا مخرج من هذا المأزق الرهيب ولا حل لهذه المشكلة المعقدة وان احدنا او كلينا لا بد سيشقى بذلك الحب العقيم !

* * *

وصلت الى قلب البلدة في ذلك الاصيل وانا لا ادري كيف وصلت ! كل ما اعرفه اني سرت في طريقي مسرعا وفكرة واحدة تنبض في عقلي مع كل نبضة من قلبي : بعيدا ! بعيدا ! بعيدا عن هذا البيت ، بعيدا عن هذا المأزق ، لذ بالفرار ، اهرب ، اختف ! لا تطأ قدمك عتبة هذا المنزل ، ولا تعد لرؤية هؤلاء الناس .. اختبىء ، لا تدع احدا يراك ، ولا تقيد نفسك بشيء ازاء اي مخلوق ، ولا تعط لانسان فرصة كي يوقعك في فخ ! بعيدا .. بعيدا .. بعيدا !

ومن الغبار الذي كسا حذائي ، والتمزقات التي احدثتها الشجيرات الشائكة في ملابسي ادركت فيما بعد انني اخترقت حقولا واحراشا ودروبا وازقة .. حتى وجدتني عند بداية الطريق الرئيسي والشمس الغاربة توشك ان تختفي خلف قمم المباني .. فمضيت كالنائم الذي يسير في نومه ، ثم اذا بي افاجأ بيد تربت على ظهري .. وما كدت التفت حتى وجدت نفسي امام اربعة من

زملائي الذين اعتادوا قضاء الامسيات معي في المقهي ... وابتدروني قائلين انهم بحثوا عني في كل مكان كي يبلغوني ان ضباط الفرقة جميعا مدعوون لتناول العشاء في الساعة الثامنة والنصف على مائدة « بالنكاي » !..

وتذكرت اخيرا من يكون بالنكاي صاحب هذه الدعوة !.. انه ضابط سابق من ضباط الفرقة كان مقامرا عربيدا فطرد من الخدمة العسكرية بعد حادث يؤسف له ـ لم اعرف تفصيلاته ـ ومضى يضرب في الارض .. حتى التقى في فندق « اكسلسيور » في القاهرة بارملة هولندية ثرية تملك خطا للملاحة تسير عليه سبع عشرة سفينة ، ومزارع شاسعة في جزر جاوة وبورنيو .. فخلب لبها وتزوجها !.. ومنذ ذلك التاريخ لايفتأ يرسل الهدايا لضباط فرقته القديمة في الاعياد والمناسبات ، ويزور المعسكر كلما مر بالنمسا خلال رحلاته الطويلة لتفقد املاكه ، فيقيم لزملائه القدامى مأدبة ينفق عليه ببذخ خيالي يظل حديث اهل البلدة بعد ذلك اسابيع !

وحاولت ان ازوغ من حضور الحفلة ملتمسا لذلك شتى المعاذير ، لكن زملائي الاربعة اخذوا بيدي الى حيث تقام ، فشاركت مضطرا في اعداد العدة لاستقبال الضيوف الغرباء عن الفرقة ، من كبار الشخصيات ، حتى اقترب موعد وصولهم فتركني الزبانية الاربعة كي اسرع الى غرفتي فاغسل وجهي وابدل ثيابي ثم اعود قبل بدء الاحتفال ...

وفيما انا اصفف شعري امام مرآتي الصغيرة ، وقد تجردت الا من ثيابي الداخلية .. دخل تابعي يحمل في يده خطابا لي ، في ظرف سميك ازرق .. ولم اكن في حاجة الى تأمل الخط الذي كتب به اسمي عليه كي اعرف شخصية كاتبه !

وهمس في اعماقي صوت محذر : « فيما بعد ، فيما بعد .. لا تفضه الان .. لا تقرأه الان ! » .. لكني رغم كل تحذير عقلي الواعي فضضت الخطاب وقرأته ! ..

كان مؤلفا من ست عشرة صفحة ، وقد كتب في عجلة ظاهرة ، بيد مضطربة .. وهو من ذلك النوع الذي لا يكتبه المرء ، او يتلقاه ، اكثر من مرة في حياته !

وكانت عباراته متلاحقة في استطراد فياض ، لا تتخللها فواصل او نقط تقسمها الى عبارات وفقرات .. وكأنها الدم يتدفق من جرح مفتوح !

وبرغم مضي سنوات وسنوات على ذلك التاريخ ، استطيع الان ان اذكر كل سطر من ذلك الخطاب ، بل كل حرف .. استطيع ان اتلوه عن ظهر قلب ، صفحة صفحة ، من البداية الى النهاية ... وذلك لكثرة ما قرأته واستعدته !

لقد بقيت احمله معي شهورا اينما كنت : في البيت ، والمعسكر ، والشارع ، والقطار ، وفي

الخنادق اثناء الحرب .. حتى اصيبت فرقتنا في احدى المعارك بهزيمة منكرة . فاضطررت الى تمزيقه ـ وقلبي يتمزق ـ خشية ان يقع في ايد غريبة !.. وكان نصه كما يلي

« لقد كتبت اليك قبل الآن ستة خطابات ، مزقتها كلها قبل ان ارسلها .. فاني لم ارد ان اطلق العنان لنفسي كي اكشف ستري . وآثرت ان اكتم ما بي ، ما بقيت لي قدرة على المقاومة !... جاهدت اسابيع واسابيع كي اخفي مشاعري عنك !.. وفي كل مرة جئت فيها تزورنا في ود وبراءة ، كنت اقهر يدي على ان تجمدا ، ونظرتي على ان تظهر عدم المبالاة ، حتى لا ازعجك !.. بل لقد عاملتك في بعض الاحيان بخشونة واحتقار ، كيلا تخالجك ادنى شبهة في مبلغ ما اعانيه من اجلك !... حاولت كل ما في وسع كائن بشري ان يفعله ، واكثر مما في وسعه .. لكن الواقعة وقعت اليوم ، واقسم لك انها دهمتني برغم ارادتي ، وفاجأتني على حين غرة . انا نفسي لا اعرف كيف امكن ان ادع شيئا كهذا يحدث ، حتى لقد كدت بعد حدوثه ان اضرب نفسي عقابا لها من فرط الخجل اليائس الذي انتابني !.. انني اعلم يقينا مدى الجنون والحماقة في ان افرض نفسي عليك .. فان المخلوقة العرجاء الكسيحة ، مثلي ، لا حق لها في ان تحب .. وهل يمكن ان اكون الا عبئا ثقيلا عليك ، انا المحطمة التعسة التي ترى نفسها موضعا للاشمئزاز والكراهية ؟!.. واذا كانت مخلوقة مثلي لا حق لها في ان تحب ، فهي من باب اولى لا حق لها في ان يحبها احد !.. وما يخلق بها الا ان تزحف بعيدا الى ركن قصي لتموت ، وتكف عن ان تثقل على الاخرين بوجودها !.. نعم ، كل ذلك اعرفه حق المعرفة ، ولهذا اجدني في هذه الحياة روحا ضائعة !.. وما كان ينبغي لي ان اجرؤ على ان القي بنفسي عليك ، ولكن من سواك ادخل الى قلبي الامل في الا ابقى حياتي كلها في الحالة التعسة التي انا فيها الان ؟.. ومن غيرك ادخل في روعي ان في مقدوري ان اتحرك وامشي ، مثل غيري من الناس .. مثل الملايين من البشر الذين لا يدركون او يقدرون ان كل خطوة يخطونها على ارجلهم بلا عائق انما هي نعمة مباركة مجيدة !؟.. وكنت قد صممت تصميما صارما ان الوذ بالصمت حتى تحل حقا تلك اللحظة المرموقة التي اصير فيها مخلوقة بشرية حقة ، يحتمل ان تكون جديرة بك ايها الحبيب .. لكن لهفتي ، وظمئي الى الشفاء ، بلغا من القوة ـ في تلك اللحظة التي انحنيت فيها علي ـ بحيث اعتقدت حقا وصدقا ، بضمير خالص نقي ، وغباء مطلق احمق ، اني قد شفيت وصرت تلك المخلوقة الاخرى ، الجديدة السليمة !... ذلك لاني ـ كما تعلم ـ قد طالما اردت ذلك وحلمت به .. فلما لمستك قريبا مني في تلك اللحظة ، كما لم تقترب مني من قبل ، نسيت ساقي المهيضتين ، لم اعد اشعر بنفسي الا كما اردت ان اكون من اجلك !.. الا تستطيع ان تفهم كيف ينسى الانسان نفسه لحظة في حلم من احلام اليقظة ، اذا كان قد حلم به على التوالي دون غيره ليل نهار ، عاما بعد عام ؟!.. صدقني ايها الحبيب ، ان ذلك الوهم الاخرق باني تحررت من عجزي ، هو الذي صعد الى رأسي فاثملني .. وان شوقي الملهوف الى الا ابقى كسيحة منبوذة ، هما وحدهما اللذان جعلا قلبي ينساق معي في هذا الجنون .. فهلا فهمتني ، لقد اشتقت اليك طويلا ، شوقا بدا كأن ليست له نهاية !

« لكنك الان تعرف ما كان ينبغي الا تعرفه الا يوم استطيع ان اقف على قدمي .. وتعرف من نلك الذي من اجله وحده دون سواه من سكان هذه الارض ، اريد ان اشفى .. انه هو انت وحدك لا سواك !.. فاغفر لي يا حبيب قلبي هذا الحب ! وقبل كل شيء استحلفك واتوسل اليك الا تخشاني او تنفر مني !.. لا تحسب اني – لأني كنت معك يوما ملحاحة ملحفة – سوف ازعجك مرة اخرى ، او احاول التشبث بك .. كلا ! اقسم لك انك لن تجدني مرة يوما افرض نفسي عليك ، بل ساسعى جاهدة كي اخفي عليك مشاعري .. ولست ابغي غير ان انتظر وانتظر صابرة ، حتى يرحمني الله فيشفيني . ومن ثم اتوسل اليك يا اعز الناس علي الا تخشى حبي وارجو ان تذكر – وانت الذي اشفقت علي كما لم يشفق علي احد قبلك – كم انا عاجزة ابشع العجز ، مقيدة الى مقعدي ، محرومة من القدرة على ان اخطو خطوة واحدة ، بل من

القدرة على ان اتبعك واندفع وراءك حيثما تذهب !.. نعم ارجو ان تذكر اني « سجينة » عليها ان تنتظر في سجنها في صبر نافد ، حتى تأتي انت وتتفضل عليها بساعة من وقتك .. وتسمح لها بان تنظر اليك وتسمع صوتك ، وتعلم انك تتنفس الهواء الذي تتنفسه هي ، وتحس وجودك قريبا منها .. الى اخر مظاهر السعادة التي منحتها اياها !.. اذكر كل هذا وصوره لنفسك .. اذكر انني طالما انتظرتك نهارا وليلا !....وكل ساعة تمتد وتطول الى ما لا نهاية ، حتى تثقل وطأة الانتظار على الاعصاب ويصير عسير الاحتمال .. فاذا انت جئت ، لم استطع ان اخف للقائك او امسكك واحتضنك ، بل وجدت نفسي مضطرة الى ان ابقى في مكاني واسيطر على شعوري والوذ بالصمت .. حذرة في كل كلمة اقولها ، وكل نظرة انظرها ، وكل نبرة في صوتي ، حتى لا ترتاب انت في اني اجترىء على ان احبك .. ومع نلك ايها المحبوب ، كنت قانعة بهذه السعادة المريرة المتواضعة ... وكنت اغبط نفسي كلما نجحت في كبت مشاعري .. وهكذا بقيت انت حرا طليقا جاهلا بحبي ، غير مرتاب في شيء .. ومن ثم كان عذابي بسبب تورطي اليائس في الوقوع تحت تأثير سحرك ..!

« لكن المحظور قد وقع .. والآن لم يعد في امكاني ان انكر او اخفي شعوري نحوك ايها المحبوب ، فرجائي اليك الا تقسو علي ... ان احقر المخلوقات – كما تعلم – لها كبرياؤها ، فانا لن اتحمل ان تحتقرني لكوني عجزت عن قمع عاطفة قلبي !.. وانا لا انتظر منك ان تبادلني الحب ، كلا واقسم بالله القادر وحده على ان يضمد جراحي وينقذني ، فاني لست اجرؤ على ان اتوقع منك نلك ، حتى ولا في احلامي . ولست ابغي اي تضحية من جانبك او اية شفقة !.. كل

ما اسألك اياه ان تدعني انتظر ، انتظر في صمت ! والا تردني عنك ردا عنيفا حاسما .. وانا اعلم ان طلبي هذا قد يكون مغالاة من جانبي وطمعا ، ولكن .. هل حقا تستكثر على كائن بشري ان تمنحه هذه الجرعة التعسة من السعادة التي يمنحها الانسان راضيا لاي كلب .. سعادة النظر بين حين واخر ، في صمت ومذلة ، الى سيده ؟.. وهل يلزم ان تدفعه بعيدا عنك في عنف ، وتطرده بسوطك في احتقار ؟ ! ان الشيء الذي لا طاقة لي به على الاطلاق هو ان يكون

افصاحي لك عن حبي مرغمة سببا في نفورك واشمئزازك مني ، او سببا لعقابك لي ـ فان خجلي من نفسي ، ويأسي ، فيهما العقاب الكافي لمثلي ـ وفي هذه الحالة لا يبقى لي غير مخرج واحد انت تعرفه لاني اريتك اياه .. !

« ولكن كلا ، لا تنزعج ، فلست اريد ان اهددك ، او اخيفك ، فانتزع منك الشفقة بدلا من الحب !.. وانما اريد ان تشعر بانك حر تماما ، لا يثقلك اي التزام . والله يعلم اني لا ابغي ان اثقل عليك بالعبء الذي احمله ، او احملك اثما انت منه بريء .. وانما كل ما اطمع فيه ان تغفر لي ما حدث وتنساه ، بل تنسى كل ما بحت لك به !.. ان كلمة واحدة منك تكفيني .. كلمة افهم منها انني لم اصبح كريهة في نظرك ثقيلة عليك ، وانك ستظل تأتي لزيراتنا كأن شيئا لم يحدث !.. انك لا تتصور الى اي مدى اخاف ان افقدك .. فمنذ تلك اللحظة التي اغلقت فيها الباب خلفك وانا في فزع مروع من ان تكون تلك اخر مرة اراك فيها !.. انك كنت شاحب الوجه ، وفي عينيك نظرة رعب اثلجت اطرافي فجأة وانا في قمة نشوتي !.. وقد علمت انك غادرت البيت على اثر ذلك ، اخبرني بذلك جوزيف . ومن ثم شعرت بانك قد فررت مني كما يفر الانسان من وباء مخيف !.. ولكني لا الومك ايها المحبوب !.. لاني انا نفسي اتراجع مذعورة من نفسي كلما رأيت الاثقال التي تنوء بها ساقاي ، ولاني اعلم بشاعة الحالة التي اكون فيها حين تثور اعصابي !.. نعم انا احق الناس بان افهم لماذا يفر الناس مني مذعورين !.. على اني برغم ذلك اتوسل اليك ان تصفح عني ، فلا ليل لي ولا نهار بغيرك ، وانما يأس مطبق !.. ارسل الي كلمة قصيرة تطمئنني ، كلمة تكتبها على عجل ، بل ارسل الي ورقة بيضاء ، او زهرة ، او اي شيء افهم منه انك لن تنبذني ، ولن تعافني نفسك !.. ولا تنس اني في خلال بضعة ايام سوف اسافر لاغيب شهورا ، وبذلك يبلغ عذابك نهايته ، وان كان عذابي انا سوف يتضاعف الف مرة ، لكني استحلفك ان تفكر في نفسك فقط ، كما افكر انا دائما فيك وحدك !.. انك في خلال اسبوع سوف يطلق سراحك ، فتعال مرة اخرى ، زرنا كما كنت تفعل .. وفي انتظار ذلك ارسل لي كلمة عاجلة ، اعطني اشارة مطمئنة .. فلست استطيع ان افكر او اتنفس او اشعر ، حتى اعلم انك غفرت لي !.. ولن استطيع ان اعيش اذا انكرت على حقي في ان احبك ! »

* * *

« ولكن كلا ، لا تنزعج ، فلست اريد ان اهددك ، او اخيفك ، فانتزع منك الشفقة بدلا من الحب !.. وانما اريد ان تشعر بانك حر تماما ، لا يثقلك اي التزام . والله يعلم اني لا ابغي ان اثقل عليك بالعبء الذي احمله ، او احملك اثما انت منه بريء .. وانما كل ما اطمع فيه ان تغفر لي ما حدث وتنساه ، بل تنسى كل ما بحت لك به !.. ان كلمة واحدة منك تكفيني .. كلمة افهم منها انني لم اصبح كريهة في نظرك ثقيلة عليك ، وانك ستظل تأتي لزيراتنا كأن شيئا لم يحدث !.. انك لا تتصور الى اي مدى اخاف ان افقدك .. فمنذ تلك اللحظة التي اغلقت فيها الباب خلفك وانا في فزع مروع من ان تكون تلك اخر مرة اراك فيها !.. انك كنت شاحب الوجه ، وفي عينيك نظرة رعب اثلجت اطرافي فجأة وانا في قمة نشوتي !.. وقد علمت انك غادرت

البيت على اثر ذلك ، اخبرني بذلك جوزيف . ومن ثم شعرت بانك قد فررت مني كما يفر الانسان من وباء مخيف !.. ولكني لا الومك ايها المحبوب !.. لاني انا نفسي اتراجع مذعورة من نفسي كلما رأيت الاثقال التي تنوء بها ساقاي ، ولاني اعلم بشاعة الحالة التي اكون فيها حين تثور اعصابي !.. نعم انا احق الناس بان افهم لماذا يفر الناس مني مذعورين !.. على اني برغم ذلك اتوسل اليك ان تصفح عني ، فلا ليل لي ولا نهار بغيرك ، وانما يأس مطبق !.. ارسل الي كلمة قصيرة تطمئنني ، كلمة تكتبها على عجل ، بل ارسل الي ورقة بيضاء ، او زهرة ، او اي شيء افهم منه انك لن تنبذني ، ولن تعافني نفسك !.. ولا تنس اني في خلال بضعة ايام سوف اسافر لاغيب شهورا ، وبذلك يبلغ عذابك نهايته ، وان كان عذابي انا سوف يتضاعف الف مرة ، لكني استحلفك ان تفكر في نفسك فقط ، كما افكر انا دائما فيك وحدك !.. انك في خلال اسبوع سوف يطلق سراحك ، فتعال مرة اخرى ، زرنا كما كنت تفعل .. وفي انتظار ذلك ارسل لي كلمة عاجلة ، اعطني اشارة مطمئنة .. فلست استطيع ان افكر او اتنفس او اشعر ، حتى اعلم انك غفرت لي !.. ولن استطيع ان اعيش اذا انكرت علي حقي في ان احبك ! »

* * *

قرأت الخطاب واعدت قراءته من البداية مرة ومرات ، ويدي ترتعش .. ونبضات قلبي تدق صدغي بقوة .. وقد نال مني الذعر والفزع من هذا الحب اليائس !.. وفجأة تنبهت على وقع يد تربت على ظهري . وكانت يد احد « الزبانية الاربعة » زملائي في الفرقة ، وقد لحظ تأخري فجاء يتعجل عودتي الى الحفلة ، وابى ان يغادر الحجرة الا وذراعه في ذراعي ، بعد ان وضعت الخطاب في جيب سترتي العسكرية لصق صدري .

ووصلنا في الموعد المناسب ، قبل حضور الرؤساء وكبار المدعوين وسرعان ما التأم الجمع حول مائدة العشاء الكبرى .. وارتفع الضجيج والثرثرة وصخب حركة الكئوس والاطباق والملاعق والسكاكين !

وجلست صامتا وسط زملائي المرحين ، اتحسس خلسة بين حين واخر شيئا ينبض تحت سترتي ، كقلب ثان ، ويحدث مثل فرقعة النار التي اضرمت حديثا .. نعم انه هناك ، ويتحرك وينبض على صدري ككائن حي .. وفيما كان الاخرون منهمكين في طعامهم وشرابهم في مرح ونشوة ، لم استطع انا ان افكر في غير الخطاب الراقد فوق قلبي ، وفي الصرخة البائسة التي اطلقتها كاتبته فيه !

ولم آكل شيئا مما وضع امامي ، كنت كالنائم وعيناه مفتوحتان ، وكانت احاديث الجالسين الى يميني ويساري تصل الى سمعي دون ان افهم كلمة منها وكأنهم يتحدثون بلغة اجنبية !.. ورأيت امامي والى جواري وجوها وشوارب وعيونا وانوفا وشفاها وسترات عسكرية .. لكني رايتها جميعا في غير وضوح ، كما ترى الاشياء من خلال واجهة زجاجية لمتجر .. كنت هناك بجسمي فقط ، جالسا بغير حراك ، بينما ذهني كله منصرف الى ذلك الخطاب ، وشفتاي تتمتمان فقرات من محتوياته ، كما يتمتم العابد دعاء او صلاة !..

ثم وقف قائد الفرقة خطيبا ، وبدأ يلقي خطابه المعد من قبل ،

فأصغيت له بانتباه لكن وعيي ابى ان يشترك في الاصغاء ، فلم اسمع غير عبارات متقطعة تدوي في فضاء القاعة : « .. شرف الجيش .. روح سلاح الفرسان النمسوي .. الاخلاص للفرقة .. ولكني خلال هذا سمعت همس كلمات اخرى ناعمة ، متوسلة كانها آتية من عالم اخر : « يا حبيب قلبي .. لاتخف .. لن اقوى على العيش اذا انكرت علي حقي في ان احبك !».. ثم يعود صوت العائد يدوي : « لم ينس زملاؤه الضباط القدامى .. من بعيد .. بلد آبائه .. النمسا وطنه ». ومرة اخرى يهمس الصوت الاخر في شبه نشيج او صرخة مختنقة : « كل ما ارجوه ان تدعني احبك .. كل ما اطلبه ان تطمئنني لكلمة عاجلة !»

وفجأة تذكرت انها سألتني في خطابها ان اجيبها برسالة قصيرة . وقلت لنفسي : « اما ينبغي لي ان ابادر الى الاتصال بها ؟. وهل يليق ان يترك الانسان شخصا في مثل هذه الحالة من القلق ؟. يجب ان ابعث اليها برسالة ما ، يجب ان ...» وكان الخطيب قد جلس ، وأعقبه زميل اخذ يلقي قصيدة فكهة ، تلقاها الحاضرون بعاصفة من الضحك نهشت قلبي !.. كيف يضحكون هكذا وهناك شخص يئن انين اليأس ويعاني عذابا مروعا ؟! كيف يطلقون نكاتهم الصاخبة في حين تحتضر نفس معذبة ؟.. ثم لاشك انهم بعد هذا سيغنون ويضحكون ويرقصون بغير حساب !».. وفجأة شعرت باني عاجز عن تحمل منظر اولئك الماجنين ذوي الوجوه المتألقة ، فانتهزت فرصة تصفيقهم للزميل ، وتسللت خارجا في هدوء دون ان يلحظ خروجي احد من الزملاء !.. اخيرا سوف انفرد بنفسي ..!

وحين بلغت غرفتي القيت قبعتي وسيفي ، ثم اضأت المصباح واتجهت الى المنضدة كي اقرأ مرة اخرى في جو من الهدوء التام ، ذلك الخطاب المفجع الذي هو اول خطاب تلقيته ـ انا الشاب الساذج ـ من امرأة !

ولم اكد اقترب من المنضدة حتى اجفلت ، اذ لمحت فوقها وسط دائرة الضوء التي يلقيها المصباح ، ذلك الظرف الازرق الذي فيه الخطاب ، فاخذتني الدهشة لوجوده هناك ، مع علمي انه موجود في جيب سترتي !. وسألت نفسي : كيف يمكن هذا ؟ هل انا ثمل او نائم احلم ؟ او هل فقدت وعي ؟. الم اسمع قرقعة الخطاب في مخبئه بالسترة وانا اخلعها منذ لحظة فقط ؟. وذهبت افتش في جيب السترة .. فاذا الخطاب في مكانه .. وعندئذ فقط ادركت جلية الامر .. ان هذا الخطاب الذي فوق المنضدة خطاب اخر منها !

نعم ، خطاب آخر منها ، في خلال ساعتين !. وشعرت بان حلقي جف غضبا وغيظا !. اذن سوف يتكرر ذلك كل يوم وكل ليلة ، خطاب في اثر خطاب .. ولو كتبت اليها فسوف تجيبني !. وهكذا لن تفتأ تطلب مني شيئا كل يوم !. ولسوف تلاحقني بالرسائل والتليفون والجواسيس الذين يتعقبون خطواتي وحركاتي وسكناتي !. انها لن تدعني في راحة بعد الان ، لن استرد حريتي من هؤلاء القوم الجشعين الانانيين حتى يهلك احدنا ـ هي او أنا ـ ضحية هذه العاطفة العقيمة المدمرة ..!

وحدثتني نفسي بالا افض خطابها الجديد الا في الصباح .. فلم تبق لي قوة تتحمل الشد والجذب اللذين يمزقان قلبي !.. وخير لي ان امزق الخطاب او ارده اليها دون ان افتحه !.. الى الجحيم يا آل كيكسفالفا جميعا !

وسرعان ما خطر ببالي احتمال ان تكون الفتاة قد فعلت بنفسها مكروها حين لم تصلها كلمة مني !.. فمزقت المظروف بحركة عصبية عنيفة . وحمدت الله اذ وجدته خطابا قصيرا ، ورقة واحدة فيها عشرة سطور تقول فيها : « مزق خطابي السابق فورا .. لقد كنت مجنونة ، مجنونة تماما . كل ما كتبته لم يكن صحيحا ، ولا تحضر لزيارتنا غدا .. ارجو الا تحضر . يجب ان اعاقب نفسي لكوني اذللت شخصي لك على تلك الصورة الفظيعة .. من اجل ذلك لا تحضر غدا باية حالة ، لا اريدك ان تأتي ، بل امنعك .. ولا ترسل اي رد .. مزق خطابي السابق دون ابطاء ، وانس كل كلمة فيها . ولا تفكر فيه بعد الان !»

وساءلت نفسي : « كيف لا افكر فيه ؟!. يا له من مطلب صبياني !.. هل لارادة المرء دخل في مثل هذه الحال ؟.. وكيف لا افكر فيه وافكاري تتلاحق حوله كجياد ضارية تركض في المسافة الضيقة بين صدغي ؟.. كيف لا افكر فيه وذاكرتي المحمومة تلقي صورة بعد صورة عنه على شاشة ذهني ؟ وكلماته الملتهبة قد وسم بها وعيي كما يوسم اللحم بميسم من نار ؟

بل كيف لا افكر فيه وانا لا استطيع ان افكر الا فيه ، وفي البحث عن وسيلة للفرار ، للمقاومة ، لانقاذ نفسي من هذه اللجاجة النهمة من هذه العاطفة المتطرفة غير المرغوب فيها ؟!

لا أفكر فيه ؟!.. ليتني استطيع ذلك !..

وقمت فأطفأت النور ، بزعم ان النور يسبغ على الافكار مزيدا من الحدة والعنف ، ويجعلها اقرب الى الواقع .. وحاولت ان انأى بنفسي بعيدا ، ان اختبىء في الظلام ، ونزعت الثياب عن جسدي كي اتنفس بسهولة اكثر .. لكن الافكار لا تهدأ هكذا بالرغبة في التخلص منه ، وانما تنطلق في اضطراب كالخفافيش بين جدران الذهن المتعب الكليل ، وتقرض الاعصاب كالجرذان المتوحشة .. وكلما جمدت في الفراش بلا حراك ، ازدادت هي حركة وثورة وهياجا !.. وهكذا اضطررت الى ان انهض فأضيء النور من جديد كي اطرد الاشباح .. ولكن اول ما وقع عليه ضياء المصباح كان ذلك الظرف الازرق لخطابها ، والسترة التي سكبت عليها الشاي بالامس .. كل شيء يذكرني ويوبخني !

كيف لا افكر فيه ؟ نعم انا نفسي لا أريد ان افكر في ذلك الخطاب لكن هذا يخرج عن نطاق قدرتي !. وهكذا رحت اذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، وافتح خزانتي ، ثم ادراجها ، واحدا بعد الاخر ، حتى عثرت على قارورة الدواء المنوم ، فتناولت منها جرعة ثم عدت ادراجي الى الفراش .. ولكن لا مفر ولا مهرب !.. فان الافكار السوداء ، تلك الفيران القلقة التي تقرض النعاس في مخي ، تسللت حتى الى احلامي !

وحين استيقظت في الصباح كأن خفاشا من تلك الخفافيش قد افرغ مخي وجفف مادة رأسي !

وكنت اعلم من احسن وسائل العزاء والسلوان في مثل هذه الحال ان يمضي المرء الى اداء عمل

محتوم . وعلى هذا غادرت غرفتي لكي امتطي صهوة جوادي واخرج الى الخلاء على رأس سريتي ، كي اتلقى الاوامر ، واصدر الاوامر ، فأفر من نفسي ومن افكاري ثلاث ساعات او اربع ساعات !

وفي البداية ، سار كل شيء على ما يرام .. كان اليوم لحسن الحظ حافلا بالعمل ، استعدادا للمناورات . وكان نصيبنا من التحضير لها يومئذ يقتضي كل ضابط مزيدا من الانتباه وتركيز الفكر في مراقبة كل جندي من جنود السرية ، بحيث انساني ذلك كل شيء عداه .. حتى حانت فترة الدقائق العشر التي تمنح للجياد كي تسترد انفاسها وتستريح ، فحامت نظرتي حول الافق الممتد امامي وراء الحقول الشاسعة .. واذا انا المح على حين غرة برجا عاليا هو برج قصر كيكسفالفا ، ولاحت لي شرفته التي تجلس فيها اديث كل اصيل !.. وهنا احسست حافزا لا يقاوم يدفعني الى التفكير فيها الساعة الان الثامنة ، الساعة التي تستيقظ فيها .. لتفكر في !.. لعلها الان تحدث اهلها عني وتستفسر منهم هل ارسلت اليها ردا ؟ او ربما تكون قد صعدت الى الشرفة واتكأت على سورها لتطل علي كما ارنو بنظرتي !

وانتهت فترة الاستراحة وعادت الاوامر تتطاير من افواه الضباط هنا وهناك ، ومختلف وحدات السرية تنفذ « التحركات » المرسومة بدقة ، والجياد تركض براكبيها فتتجمع وتتفرق حسبما توجهها اعنتها .. ولكني وان استأنفت القاء الاوامر لجنودي ، كانت افكاري في واد اخر بعيد .. كنت في اعماق وعيي وخبايا ذهني افكر في ذلك الشيء الذي اردت وأرادتني الفتاة الا أفكر فيه !

واقبل قائد الفرقة يركض بجواده ، وقد احتقن وجهه وراح يسب ويصخب !..

لا بد ان ضابطا قد اصدر امرا خاطئا ، فان طابورين كان مفروضا ان يلتقيا ليؤلفا فيلقا واحدا ، قد اصطدما .. فجمحت بعض الجياد واجفل بعضها الاخر ، وسقط جندي تحت الحوافر وساد الاضطراب والهرج وقعقعة السلاح صفوف الطابورين كما كانت قد نشبت معركة حقيقية !

وحين اقبل بعض الرؤساء لتدارك الامر اقتضاهم ذلك بعض الوقت حتى اعيد النظام الى الميدان .. وعندئذ ساد صمت ، واقبل القائد على جواده فتوسط المكان ، واحتبست الانفاس في انتظار مؤاخذة المسئول .. وفجاة ارتفع صوت القائد ، حادا كالسيف مناديا : « الملازم هوفميلر !»

عندئذ فقط ادركت انني ذلك المسئول ، وانني اصدرت الامر الخاطىء اثناء تشتت افكاري !.. ولم يكن بد من مواجهة الموقف المخزي ، فلكزت بركبتي جوادي وتقدمت الصفوف نحو مكان القائد ، تحوطني نظرات اصدقائي المشفقة الحائرة .. وساد سكون اشبه سكون الموت الذي يسبق تنفيذ حكم الاعدام !.. كان الكل يعرفون مقدما ما تدخره الدقائق التالية لي !

ويحسن الا اذكر نفسي بما حدث على اثر ذلك ، وبعبارات التقريع التي انهالت علي من فم القائد في مثل هدير الموج ، وقد شعرت بمئات النظرات المستهزئة تثقب ظهري ، والرجل ماض في حملته القاسية التي لم يتعرض ضابط منا لمثلها منذ شهور !

وارتعشت يداي المسكتان بعنان الجواد ، من فرط شعوري بالمذلة ، وودت لو انطلق بجوادي فارا من الميدان ، وبرغم ذلك اضطررت الى ان ابقى في مكاني بلا حراك ، دون ان تختلج عضلة واحدة في وجهي .. حتى انهى الرجل « مهمته » واصدر امره للجنود بالتفرق .. وعندئذ كان علي ان ارفع يدي بالتحية العسكرية قبل ان الوي عنان جوادي عائدا الى مكاني ، وقد اطرق زملائي بانظارهم خجلا مني ، او هكذا خيل الي وقتئذ !.. وانتهز صديقي « فيرنز » فرصة مروره بجواري اثناء تفرقنا فهمس لي مشجعا : « لا تلق بالا الى الامر .. ان ذلك قد يحدث لاي واحد منا ». لكني صحت به في جفاء : « هل لك ان تهتم بشئونك الخاصة ؟».. وفي تلك اللحظة ادركت ، لاول مرة كيف تكون الشفقة التي تنقصها اللباقة جارحة موجعة .. ادركت ذلك لاول مرة ، ولكن بعد فوات الاوان !



رغبة في الفرار

« الا بئست هذه الحال ! » .. ذلك ما كنت احدث به نفسي وانا اخب بجوادي عائدا من ميدان التدريب !.. وددت لو استطيع الرحيل بعيدا ، الى مكان لا يعرفني فيه احد ، لكي افر بعيدا من هذا الجو الكريه ، ولا ادع احدا يذلني بعد الان !

ولازمتني هذه الفكرة ، وكأنما صارت نغما يصاحب وقع حوافر جوادي اثناء المسير . فلما بلغت المعسكر سلمت زمام الجواد لاحد الجنود وسارعت الى الخروج معتزما الا اتغدى في مطعم الضباط حتى لا ادع مجالا احد كي يهزأ بي او يرثى لحالي !

لكني لم اكن ادري الى اين اذهب ؟!.. لم تكن امامي خطة معينة او هدف مرسوم ، سوى ان افر بعيدا عن المعسكر ، والبلدة كلها .. لقد غدا موقفي حرجا في محيط عملي في المعسكر . وفي محيط صلتي باسرة كيكسفالفا !.. وهكذا مضيت في طريقي على غير هدى ، مبتعدا عن المعسكر .. وفجأة سمعت صوتا يناديني بلهجة ودية ، من الجانب الاخر للطريق ، ولما التفت لاتبين المنادي ، وجدت رجلا في ثياب مدنية يشير لي ، وهو واقف بجانب سيارة معطلة رقد تحتها عاملان ميكانيكيان يصلحان ما بها . وكان ذلك الرجل هو « بالنكاي » زميلنا القديم .

واقبل علي مرحبا !.. ولم اكد المس في نظرته وتحيته فرحة الصديق المخلص حتى ومضت في ذهني فكرة ان التمس مساعدته .. وسرعان ما توالت على مخيلتي الخواطر المتسلسلة في اقل من ثانية : ها هو ذا ضابط قد ترك الجيش وصار سيد نفسه ، ولقد مر بمرحلة مشابهة وهو يمد يد

المساعدة لكل من ينشدها من زملائه القدامى واقربائه ، فلم لا يعينني في محنتي ؟.. وسرعان ما حزمت شجاعتي وسألته : « اتستطيع ان تمنحني خمس دقائق من وقتك ؟ » . فقبل مرحبا ، وقادني الى غرفته .. وهناك صارحته برغبتي في ترك الجيش لاسباب لا محل للخوض فيها ، وسألته : « هل في وسعك ان تجد لي عملا مناسبا في احدى شركاتك ومؤسساتك ؟ »

وبغت بلنكاي لقراري المفاجيء وراح يحدثني عن عواقب اقدامي على هذه الخطوة الطائشة ، وعن المصاعب التي صادفته ، والمذلة التي عاناها بعد تركه الخدمة العسكرية حتى قيضت له المقادير صفقة زواجه من الارملة الثرية ، وهي صفقة لا تتاح لشخص من بين كل الف شخص .. ثم صارحني بانه حين تعرف الى زوجته في احد فنادق القاهرة لم يكن سائحا موقرا من نزلاء الفندق ، بل كان ساقيا ذليلا في مرتبة الخدم !

وحين افرغ بالنكاي ما في جعبته من النصائح ، وجدني لا ازال على اصراري .. وحينئذ ذكر لي انه بعد ان اراح ضميره من مسؤولية تشجيعي على الخطوة الخطيرة التي اعتزمت اتخاذها بصدد مستقبلي ، يقبل عن طيب خاطر ان يطالب زوجته بايجاد عمل لي في احدى مؤسساتها . لكنه لا يستطيع ان يعدني بغير عمل تافه في البداية ، على ان ارتقي السلم تدريجيا بكفاءتي ، لا ان اقفز فوق اكتاف الاكفاء بفضل صداقته لي !

وقبلت شروطه العادلة . فاخذني في سيارة الى فينا كي يعرض الامر على زوجته . وانا في شبه ذهول من تطور الامور بهذه السرعة ، وانقلاب حياتي ومستقبلي هكذا راسا على عقب في اقل من ساعة !

وحين وصلنا الى الفندق الذي تقيم به زوجته في العاصمة ، تركني في الردهة وصعد الى غرفتها كي يتحدث اليها في الامر .. ثم عاد الي بعد دقائق باسم الوجه يبشرني بان زوجته اختارت لي عملا مبدئيا على احدى سفنها . هو ان اكون مساعدا لامين حسابات السفينة ، كي اتعلم اللغات اللازمة واقف على سير الاعمال في جزر الهند الشرقية الهولندية ، حيث مقر مزارعها واملاكها الشاسعة .. وعندئذ يصبح في الامكان ان تسند الى عملا اهمّ في احد المراكز الثابتة . ثم ختم بالنكاي كلامه مكررا لي نصيحته بان اعدل عن قراري الطائش وابقى في الاتجاه الذي رسمته الاقدار لمستقبلي ... وترك لي الخيار في تسلم عملي الجديد في اي يوم اشاء ..!

وهكذا لم يبق امامي غير اجراء واحد بسيط هو ان اكتب استقالتي من الخدمة العسكرية واسلمها الى الرئيس المختص .. وبعد ذلك اغدو حرا . وفي الوقت نفسه اكون قد نجوت !

والان ، استطيع ان اذكر بوضوح أدق تفاصيل ما حدث في الدقائق التالية لتوديعي لصديقي بالنكاي في تلك الامسية : لقد اتجهت الى اقرب حانوت سجاير فابتعت ورقتين من الاوراق المدموغة المخصصة للمكاتبات الرسمية ، وظرفا مناسبا ثم عرجت على اقرب مقهى — ومقاهي

فينا هي المكان المختار الذي تتم فيه اخطر الاعمال واتفهها – فجلست الى مائدة رخامية مستديرة الى جوار نافذة وشرعت اكتب بخط جميل ، وفي شيء من العناية – الصيغة الرسمية للاستقالة ، وانا اتخيل رد الفعل الذي سوف يحدثه وصول خطاب الاستقالة الى قائد الفرقة ، وبين زملائي الضباط ، الذين سيعجبون جميعا ولا شك بنخوتي وابائي قبول الضيم والاستكانة للمذلة والتحقير ! وشعرت اذ ذاك بكثير من الزهو ، فقد كانت تلك اول مرة في حياتي تتاح لي فيها فرصة الظهور لزملائي في مظهر الرجل المعتز بكرامته !.. والزهو من اقوى الدوافع التي تغري ذوي الطبيعة الضعيفة بالاقدام على اي عمل يظهرهم في مظهر الاقوياء الشجعان الحازمين !

وحين فرغت من كتابة العشرين سطرا التي تتالف منها صيغة الاستقالة التقليدية وقعت عليها ثم نظرت الى ساعة المقهى فاذا هي تشير الى انتصاف الساعة السادسة ، فقلت لنفسي وقد شعرت بأن حملا ثقيلا ازيح عن كاهلي : « فلأدفع الحساب للساقي ، ثم اخرج فاتمشى قليلا ، ولاخر مرة ، بسترتي العسكرية ، في شوارع فينا ، وبعد ذلك استقل قطار المساء الى حيث تعسكر فرقتنا ، وفي الصباح اسلم الاستقالة لرئيسي ، وبذلك تبدأ صفحة جديدة في حياتي ومستقبلي ! »

وتناولت الورقة فطويتها ، مرة ، ثم مرة ، كي اضعها في جيب سترتي ، وهنا حدث شيء عجيب ، اذ اصطدمت الورقة بشيء في جيبي ، فلما مددت اصابعي اتحسس ما يعوق دخولها ، اذا اصابعي تجفل متراجعة كأنما ادركت قبل عقلي ماهية الاوراق المنسية في جيبي !.. انها خطاب ايديث ، بل خطاباها اللذان ارسلتهما الي امس ! .

ولست استطيع وصف المشاعر التي تقاذفتني عند ذاك .. على انها كانت تمت الى الخجل اكثر مما تمت الى الفزع !.. ففي تلك اللحظة انجابت عن ادراكي السحابة التي كانت تحجب عني الحقائق . فتبينت زيف كل الافعال والافكار والمشاعر التي اكتنفت حياتي في الساعات الاخيرة ، بما فيها حنقي على لوم القائد لي وزهوي بمشروع تركي خدمة الجيش !.. وتبينت ان الحافز الاول الى تفكيري هذا لم يكن ثورة رئيسي علي – فهي تحدث لواحد منا او اخر كل يوم – بل كان رغبتي في الفرار من وجه اسرة كيكسفالفا ، او بالاحرى الفرار من مسؤولياتي ... وكما ينسى المريض بمرض قاتل عذاب مرضه الاصلي ، مؤقتا ، اذا اصابه الم

عارض في اسنانه مثلا ، نسيت انا او حاولت ان انسى عذابي المتاصل الذي يغريني بالفرار كالجبان ، وتوهمت ان ذلك الحادث التافه الذي وقع لي اثناء عملي هو الدافع لي على الاستقالة ذاهلا عن ان استقالتي لن تعد عملا من اعمال البطولة او الاعتزاز بالشرف كما توهمت ، بل هي ليست الا فرارا حقيرا من مواجهة عواقب حماقاتي !

لكن الانسان متى اعتزم امرا يصعب عليه ان يعدل عنه ، وهكذا وجدت من العسير علي بعد

ان كتبت استقالتي ان ارجع فيها ، فجعلت التمس لنفسي الاعذار التي تبرر مضيي في طريقي ، والتخلص من كيكسفالفا وابنته .. وما ذنبي اذا احبتني امرأة غريبة على هذا النحو ؟... انها بملايينها الطائلة تستطيع ان تجد شخصا اخر تحبه ، واذا لم تجد فليس هذا شأني ... يكفي اني سأهجر عملي واغامر بمستقبلي من اجلها !.. ثم ما صلتي انا بهذه التخمينات الهستيرية عما اذا كانت ستشفى من دائها ام لا ؟.. الا سحقا لكل ذلك .. وهل انا طبيب ؟

وكأنما ذكرتني كلمة « طبيب » بالدكتور « كوندور » !

انها مهمته هو لا مهمتي انا ، وتلك الفتاة الكسيحة مريضته لا مريضتي ! فليحصد اذن ثمرة ما قد زرع .. ولأذهب اليه فورا لاخطره باني نفضت يدي من المسألة كلها !..

ونظرت الى الساعة فاذا هي لم تبلغ السابعة بعد ، بينما القطار لا يتحرك قبل العاشرة .. فأمامي اذن متسع من الوقت !.. لكن اين يقطن هو ؟.. لابد ان عنوانه مسجل في دليل التليفون . وسرعان ما هرعت الى الدليل واخذت اقلب صفحاته على عجل : « با ..بو .. بي .. كا .. كو .. كوندور .. كوندور انتون « تاجر » .. كوندور اميريتش « طبيب » شارع فلوريانيجاس رقم ٩٧ .

ولم يكن بالدليل طبيب اخر بهذا الاسم . واذن لابد انه صاحب هذا العنوان .

وركبت اول سيارة اجرة صادفتها وذكرت العنوان للسائق .. وبعد دقائق كانت السيارة تتأهب للوقوف .. ترى هل اخطأ السائق ام اخطأت انا في ذكر العنوان ؟.. هل يعقل ان يقطن طبيب مثل كوندور في حي حقير قذر مثل هذا ؟.. انه يتقاضى من كيكسفالفا وحده ولا شك مكافآت ضخمة .. ولكن شكوكي تبخرت حين قرأت لافتة الطبيب على الباب ، فنقدت السائق اجره وصعدت سلما قذرا معتما تآكلت درجاته وتصاعدت روائح الاطعمة الرخيصة من المطابخ المطلة عليه ، حتى بلغت الطابق الثالث الذي يقطنه صاحبنا ، وانا ارثي لحاله حقا !

ولم يكن قد عاد من الخارج بعد ، فاجلستني الخادمة في حجرة انتظار متواضعة تنم عن فقر طبقة المرضى الذي اعدت لهم .. وبعد حين سمعت خطوات تقترب في حذر ، ثم رأيت مقبض الباب يتحرك ببطء ، كأن الذي يفتحه لص .. وهتف صوت من ورائه « هل يوجد احد هنا ؟ » .

ومات الجواب على شفتي ، فقد رأيت امرأة عمياء تتقدم نحوي . وتذكرت فورا ما قاله لي كيكسفالفا عن زواج كوندور من مريضته التي عجز عن شفائها من عماها .. ولكن يا الهي ! ابهذا القبح هي ؟ له الله ذلك المسكين !

واجبتها وانا انحني لها تأدبا دون وعي كأنما هي تراني : « اني انتظر الدكتور كوندور » فقالت في استياء ظاهر : « ان ساعات الاستشارة قد انتهت منذ الساعة الرابعة .. ولابد

لزوجي حين يعود من ان يتعشى ويستريح .. هل لك ان تأتي غَدا ؟ »
وتذكرت ما قاله كيكسفالفا عن حدة المرأة وسوء طباعها ، فرأيت الا استفزها وقلت لها : « الواقع اني لا اريد استشارة الدكتور في هذه الساعة المتأخرة . وانما اردت ان اقول له بضع كلمات في شأن احدى مريضاته ! »

واذ ذاك انفجرت المرأة صائحة : « مريضاته ؟ مرضاه ؟ .. دائما هكذا ؟! في الليلة الماضية ايقظوه في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ثم في السابعة صباحا !..وها هو ذا لا يزال في الخارج حتى هذه الساعة !.. انه سوف يمرض يوما من هذا الاجهاد . اما ترحمونه ؟. اما تدعونه في سلام !.. الا تستطيع ان تأتي غدا ، او تذهب الى طبيب اخر .. اتسمعني ، اخرج .. اخرج حالا .. دعه يأكل وينام مثل بقية الناس ! » .. وتقدمت المرأة نحوي مادة قبضتيها في وجهي كأنما تود ان تخنقني .. وفي تلك اللحظة سمعنا صوت الباب الخارجي يفتح ، فتغير وجه المرأة في الحال وبدأت ترتجف من رأسها الى قدمها ، ثم ضمت يديها في حركة توسل وهمست لي مستعطفة : « بربك لا تثقل عليه لابد انه متعب الان ، ضع نفسك مكانه ، اشفق عليه ! »

وفتح باب الحجرة ، ودخل الدكتور كوندور ، وسرعان ما ادرك الموقف ، فقال في صوته الرقيق الذي يخفي في العادة انفعالاته العنيفة : « اوه !.. ارى انك كنت ترحبين بسيدي الملازم . كم هو لطيف منك ذلك يا كلارا ! »
واتجه الى زوجته العمياء فربت على كتفها في رفق ، ألان ملامح وجهها ، فقالت معتذرة في خجل : « عفوا ، ولكن كان لابد ان اصارح هذا السيد بانك في حاجة الى ان تتناول عشاءك حالا ، فانك ولا شك جوعان .. وقد ذكرت له انه يحسن صنعا لو حضر غدا .. »

فقطع كوندور كلامها ضاحكا وقال : « لقد اخطأت هذه المرة .. فليس الملازم هوفميلر مريضا ، بل هو صديق طالما وعدني بأن يحضر لزيارتي ، وعمله لا يتيح له الحضور الا في الليل .. ولكن دعينا من هذا فالشيء المهم الان هو هل عندك عشاء لنا ؟ » .. فتدخلت انا في الحديث قائلا : « شكرا !. انني لن استطيع البقاء ، لان علي ان اسافر بقطار الساعة العاشرة ! ولن يستغرق حديثنا اكثر من دقائق ! »

لكن الطبيب رأى ، ارضاء لزوجته وتخلصا من الحاحها وازعاجها لنا ، ان يتناول عشاءه معها اولا ، كي يفرغ للحديث معي بعد ذلك . ونصح لي بأن انتهز تلك الفرصة فأضطجع على اريكة في الحجرة كي اريح جسمي من اثر الاجهاد الذي يبدو واضحا على وجهي !
وكان مصيبا ، وان لم انتبه انا الى مدى تعبي الا بعد ان تمددت على الاريكة واطفأ لي هو النور .. ويبدو انني اغفيت ، فأني لم اشعر الا ويده على كتفي ، بعد ان عاد الى الحجرة عقب تناول العشاء .. واذ حاولت ان انهض قال لي محتجا : « ابق حيث انت ، وسآتي انا لاجلس

بجانبك . ان الحديث في الظلام ايسر وافضل .. وكل ما ارجو منك ان تخفض صوتك ، فليس احد من حاسة السمع عند فاقدي البصر !.. والان ، صارحني بما عندك ولا تخجل فقد ادركت لاول وهلة ان عندك جديدا ! » .

ولعل الظلمة اذابت قدرتي على المكر والتكلف ، وعزمي السابق على اخفاء بعض الحقائق ، فوجدتني اصارحه بكل شيء : بثورة ايديث المفاجئة .. وانهيارها .. وعناقها المحموم .. وانزعاجي انا ، وخوفي ، ونفوري .. فانصت الطبيب للقصة صامتا ، وحين فرغت منها قال : « اذن فهذا كان سر ما اعترى الفتاة من تغير ؟ .. يا لغبائي ! كيف لم استنتجه في حينه ؟ لقد ارتبت في ان تكون لهفة ايديث المفاجئة على الشفاء نتيجة تدخل طبيب اخر في العلاج ، لكني لم افكر في اكثر الاحتمالات بساطة وتمشيا مع المنطق : وهو ان الفتاة تمر بالسن الطبيعية الملائمة للوقوع في الحب !.. لكن اسوأ ما في الامر ان يحدث ذلك في هذا الوقت بالذات ، وبمثل هذا العنف !.. يا للفتاة المسكينة ! .. انها لن تقنع الان بأي تحسن طفيف في حالتها لن تقنع بغير الشفاء التام .. يا الهي ، اية مسؤولية رهيبة قد اخذناها على عاتقنا ! »

فقلت وقد تولاني حنق مفاجيء على الاقدار التي ورطتني في هذه المحنة :

ــ انا من رأيك .. ينبغي ان نضع حدا لهذا الجنون في الوقت المناسب .. يجب ان تكون حازما معها ، وان تقول لها : « ان عاطفتها هذه ليست الا حماقة صبيانية » ، نعم يجب ان تقنعها بالاقلاع عنها .

فقال ساخرا : « اقنعها بالاقلاع عنها ؟ . ما هذا الذي تقول ؟! .. فعلا ؟.. هل سمعت يوما ان المنطق يقوى على العاطفة ؟.. او سمعت ان شخصا استطاع ان يقول للحمى : « ايتها الحمى ، تراجعي ! » .. او يقول للنار : « ايتها النار انطفئي » .. او تريدني ان اقول لفتاة كسيحة مقعدة : « لا يدورن في خلدك ان في وسعك ان تحبي مثل بقية الناس ، فانها لوقاحة منك وانت مشلولة ان تظهري شعورا ما نحو احد او تنتظري من احد ان يظهر شعورا نحوك . وما على مثلك الا ان تنزوي في ركن قصي وتهجر كل امل في الحب !» اهذا ما تريدني ان اقوله للفتاة ؟ وهل فكرت في النتيجة الرائعة التي تترتب على مثل هذه الخطوة ؟ .. ولماذا تطالبني انا بأن اقول لها هذا ؟! »

فقلت : « لاني لا استطيع ان اقوله لها ! »

فقال : « نعم انت لا تستطيع ، وينبغي الا تفعل .. ينبغي الا تظهر للمسكينة ــ سواء بالقول او الاشارة ــ ان شغفها بك يضايقك او لا يجد منك ترحيبا ! ان ذلك يكون بمثابة الانقضاض على رأسها بفأس حادة ! »

قلت : « ولكنّ لا مفر لي من ان يصارحها احدنا بأن .. اعني بأن .. »

فقطع كلامي قائلا : « ان ترددك لا ينم عن ضمير خالص !.. فهل تعتزم بسبب هذا الخطاب الذي ارسلته اليك ، ان تقطع صلة الصداقة التي بينكما ؟ »

لم اجب ، ولم ارفع عيني اليه .. فاتخذ صوته لهجة المحقق المتحدي وقال :

ـ هل تدرك عاقبة انسحابك المفاجيء في هذه الظروف .. بعد ان ادرت رأس الفتاة بشفقتك الغالية ؟

ـ ما دمت تلوذ بالصمت ، فدعني اصارحك برأيي الشخصي في هذا المسلك الذي تعتزمه . ان الفرار على هذه الصورة يكون جبنا ونذالة .. لا تؤاخذني اذا لجأت الى هذا التعبير فان الامر يتعلق بسعادة فتاة اعتبر نفسي مسؤولا عنها الى حد ما ، وفي ظرف كهذا لا تنتظر مني ان اكون مؤدبا في كلامي .. بل دعني اقول لك ـ كي تقدر ضخامة العبء الذي تحمل ضميرك اياه لو لذت بالفرار ـ ان تصرفك هذا يكون جريمة بشعة ضد مخلوقة بريئة ، بل اخشى ان يكون بمثابة جناية (قتل) !.. نعم قتل ، مع سبق الاصرار ، وانت تعلم ذلك !.. والا فهل يدور بخلدك ان تلك المخلوقة الابية المرهفة الاحساس تستطيع ان تواجه الحياة اذا كانت ، في اول مرة تفتح فيها قلبها لرجل ، تصدم بفرار هذا الرجل منها مذعورا ، كما لو كان يفر من شيطان ؟!.. الم تقرأ خطابها ، ام انك بلا قلب على الاطلاق ؟!.. ان اية امرأة عادية سليمة الجسم والنفس لا تتحمل مثل هذه الاهانة ، وصدمة كهذه كفيلة بان تودي بعقل الفتاة .. وان لم تقتلها الصدمة قتلت هي نفسها !.. نعم ، انا واثق بانها لن تستطيع مواجهة مثل هذا المسلك الوحشي .. وانت تعلم هذا كما اعلمه انا بالضبط .

ولأنك تعلم ذلك فان فرارك الان لا يعتبر فعلا ينطوي على الجبن والضعف فقط ، وانما هو ايضا جريمة قتل شريرة متعمدة ! » .

واجفلت برغمي .. ففي اللحظة التي نطق فيها بكلمة « قتل » تراءى لي منظر سور الشرفة التي في اعلى البرج ، وقد تشبثت به الفتاة واطلت على الفضاء السحيق ، وانا اجذبها الى الوراء في الوقت المناسب !.. ان ما يقوله الدكتور كوندور لا مغالاة فيه ، فقد تقدم الفتاة على تلك الفعلة في لحظة يأس !..

واغمضت عيني ، فخيل الي ان الحادث قد وقع فعلا ، واحسست كأني انا نفسي اهوي من الطابق الخامس على الارض الحجرية !.. بينما استمر الدكتور في كلامه فقال :

ـ هل تستطيع ان تنكر ذلك ؟. وهل تعد عملا كهذا يتفق مع الشجاعة التي تنسبها لنفسك كجندي ؟!

ووجدت صوتي اخيرا لاقول له : « يا سيدي الطبيب .. ماذا تريدني ان افعل ؟.. انني لا استطيع ان اقول كلاما لا اعنيه ، فكيف اتصرف كما لو كنت اشجع وهمها الجنوني ؟ كلا !.. لست اطيق ذلك ، لست اطيقه .. لا استطيعه ولا اطيقه ! »

ويبدو اني صحت مكررا هذه العبارة الاخيرة باعلى صوتي ، فقد امسك كوندور ذراعي بقبضته القوية وهو يقول :

ـ هدىء من روعك ، والا اضطررت الى ان اعاملك كمريض .. والآن دعنا نتفاهم في صراحة وهدوء : ما هو هذا الذي لا تستطيعه ولا تطيقه ؟ لا تخجل من الاعتراف بحقيقة شعورك .. اني استطيع ان افهم استياء الرجل الذي يفاجأ بامرأة تعلن عليه الحب هكذا في حرارة وعنف ، فان الاخرق وحده هو الذي يفرح ويزهو باعجاب النساء ! اما الرجل ، بمعنى الرجولة في الاخلاق ، فهو خليق ان يستاء اذ يعلم ان المرأة قد تورطت في حبه ، بينما هو عاجز عن ان يبادلها عاطفتها ! كل هذا افهمه جيدا لكني لا افهم هذا الذعر الشديد الذي يصيبك !.. فهل هناك عامل خاص ـ اجهله ـ يؤثر في مسلكك ؟!.. ولأكن اكثر صراحة : اعني هل توحي اليك عاهة ابيث بشيء من النفور او الاشمئزاز الجسماني ؟

فأجبت محتجا : « كلا !.. كيف تفكر في شيء من هذا ؟ »

فقال وقد انبسطت اسارير وجهه : « هذا يطمئني الى حد ما .. والواقع ان الطبيب يشاهد كثيرا من الحالات التي ينفر فيها رجال طبيعيون للغاية من ابسط شذوذ جسماني في المرأة ، بحيث يستحيل عليهم ان يمارسوا معها اية صلة جنسية . ومن سوء الحظ ان هذا النفور ، شانه شأن كل شعور غريزي ، يتعذر معالجته .. لهذا يسرني ان اسمع منك ان سبب نفورك من ابيث ليس شلل ساقيها . وفي هذه الحالة استطيع ان ارجح ان انزعاجك من وقوع الفتاة في هواك انما يرجع الى ظروف خارجية محضة ، لا تتصل بك او بابيث ، مثل خوفك من كلام الناس ، او من سخرية اخوانك الضباط منك بسبب زواجك من امرأة كسيحة ! » ..

وشعرت كأن الرجل قد طعنني في القلب مباشرة بابرة حادة من ابره ، فقد طالما احسست ـ في عقلي الباطن ـ بهذا الذي يقوله ، دون ان اتنبه اليه بعقلي الواعي .. فمنذ البداية كنت فريسة رعب دائم من ان يكتشف زملائي صلتي بالفتاة فيوسعونني زراية واستهزاء ، شأنهم كلما شاهدوا واحدا منهم في صحبة امرأة قبيحة الخلقة ، او وضيعة المظهر !.. نعم ، لقد صدق كوندور ، فمنذ صارحتني الفتاة بحبها خجلت منها اشد الخجل ، وخجلت مما قد يقوله الناس عني حين يعرفون النبأ ! ..

وفي غمرة شرودي سمعت صوت كوندور يستطرد ، وهو يضع يده في رفق على ركبتي : « كلا ، لا تخجل .. فلئن كان احد يستطيع ان يفهم رعب الانسان من سخرية الاخرين ، فأنا هذا الشخص ...

انك قد رأيت زوجتي ، اليس كذلك ؟.. اتدري كم قاسيت بسببها من كلام الناس ؟.. لقد اشاع زملائي اني تزوجتها لانني انا الذي افقدتها البصر بسوء علاجي ! واكد اخرون اني تزوجتها لانها تملك ثروة طائلة ، او لانها تنتظر ارثا ضخما !.. حتى امي بقيت عامين ترفض

استقبالها في بيتها ، لانها كانت قد اعدت لي زيجة مغرية من ابنة احد كبار الاطباء ذوي النفوذ ، ولو فعلت لعينت خلال اسابيع استاذا في كلية الطب وضمنت بذلك لنفسي مستقبلا باهرا .. لكني كنت اعلم ان « كلارا » ـ زوجتي الان ـ ستنهار تماما لو لم آخذ بيدها في محنتها ، فقد كانت تؤمن بي ، وبي وحدي ، ولو اني انتزعت ايمانها منها لعجزت عن مواجهة الحياة !.. واعترف لك باني لم اندم على اختياري قط ، فان الحياة يغدو لها طعم ومتعة خاصة حين يشعر الانسان بانه كان السبب في اسعاد انسان اخر ، او تخفيف الامه ! »

كانت لهجة الدكتور كوندور عميقة الاثر في نفسي ، فشعرت بشفقتي القديمة على الفتاة الكسيحة التعسة تتمطى في صدري من جديد ، وتوشك ان تنتعش وتقهرني .. لكني اعتزمت ان اقتل هذه الشفقة في مهدها واقطع على نفسي خط الرجعة ، فقلت في لهجة حازمة :

ـ اصغ الي يا سيدي الطبيب . كل رجل يعرف حدود طاقته وقوة احتماله ، ومن ثم ابادر الى مصارحتك بانني لست الشاب الطيب المضحي الذي تحسبه ، وقد بلغت الان اخر حدود قدرتي .. واقسم لك بشرفي العسكري اني جاد في قولي انك ينبغي الا تعتمد علي في مساعده ابيث بعد الان ، والا تحسن الظن بي اكثر من اللازم !

ويظهر اني كنت حازما في لهجتي ، فقد التفت كوندور الي واجما ؟ ثم قال :

ـ يبدو لي ان عزمك قد استقر على اجراء حاسم .. والان صارحني بالحقيقة كاملة : هل اتخذت خطوة لا رجوع فيها ؟

فقلت : « نعم .. اليك هذه الورقة فاقرأها بامعان ! »

ومددت يدي الى جيبي فاخرجت منه خطاب استقالتي وسلمته اليه .. فقرأه في روية ، ثم طواه وواجهني قائلا في هدوء صارم . « اعتقد انك بعد كل ما ذكرته لك تدرك عواقب الامر حق الادراك ، وتعلم يقينا ان قرارك على هذا النحو يعني حكما بالموت ـ او بالاحرى بالانتحار ـ على الفتاة التعسة ! »

ولما لم اجب ، اردف هو يقول : « لقد وجهت اليك سؤالا يا سيدي الملازم ، واكرره الان : هل تدرك العاقبة المحتومة لقرارك ؟.. وهل تحمل ضميرك المسؤولية كاملة ؟ »

ومرة اخرى لم اجب .. فاقترب مني ومد يده الي بالخطاب قائلا : « هاك استقالتك . اني انفض يدي من المسألة كلها ! »

لكن ذراعي شلت ولم اقو على رفعها ، ولم اجد الشجاعة لمواجهة نظرات محدثي .. فقال لي : « اذن .. انت لا تنوي المضي في تنفيذ هذا الحكم بالاعدام ؟ ! »

وحين امعنت في صمتي قال : « هل لي ان امزقه ؟ » .. وحينئذ تكلمت قائلا : « نعم .. ارجو ان تفعل ! »

واتجه الدكتور الى سلة المهملات ، ودون ان ارفع بصري سمعت صوت تمزيق الخطاب مرة ، فاثنين ، فثلاثا ، وشعرت بارتياح عميق !

ثم عاد الدكتور فجلس في مواجهتي وقال : « اعتقد اننا قد حلنا دون وقوع كارثة فظيعة .. والان فلنبحث عن حل عملي للموقف .. لقد لمست من قلق عواطفك وتعجلك في الانقياد لافكارك انك شخص لا يعتمد عليه ، ولا ينبغي ان توكل اليه مسؤوليات ثقيلة تتطلب مثابرة طويلة وعزما راسخا .. لذلك لن اطالبك بالكثير ، او اكلفك بغير الواجب الجوهري اليسير .. لقد اعتزمت اديث ــ من اجلك ــ ان تجرب العلاج الجديد المزعوم ، وسوف تسافر الى سويسرا بعد اسبوع كي تدخل مصحة « انجادين » .. وكل ما اطلبه ان تعاونني خلال هذا الاسبوع الباقي على موعد سفرها ، وبعد ذلك تستطيع ان تسترد حريتك كاملة فيما يتصل بالامر كله !.. والان عدني بالا تظهر للفتاة خلال الايام السبعة القادمة ــ سواء بكلامك او تصرفاتك ــ ان شغفها بك يثقل عليك او يضايقك ادنى مضايقة .. قل لنفسك ليل نهار : « لم يبق غير اسبوع ، ستة ايام خمسة ايام ، ويصبح في وسعي ان افخر بأني قد انقذت حياة انسان ! » ..

فسألته : « لكن ماذا سيتغير من الامر بعد هذا الاسبوع » ؟

فقال : « قد يحدث اي شيء ، فلندع ذلك في يد الله وعنايته الالهية .. قد تتحسن حالة الفتاة فعلا خلال الاشهر التي تقضيها في المصحة ، او قد تشفى من حبها لك .. الى اخر هذه الاحتمالات المتنوعة التي ينبغي الا تشغل نفسك بالتفكير فيها . فلنمنح المسكينة هذا الاسبوع من السعادة الخالصة والاطمئنان الكامل ، اللذين لا تشوبهما شائبة !.. فهل تستطيع ان تأخذ على عاتقك هذه المهمة البسيطة ؟ »

فاجبته وقد امدني بقوة جديدة شعوري بان مهمتي باتت موقوتة قصيرة الامد : « بكل تأكيد .. اعدك بذلك ! »

واذ ذاك تنفس الطبيب الصعداء ، واردف قائلا : « بقي شيء واحد .. لو حدث خلال هذه الفترة ما يعرقل خطتنا : لو خذلتك اعصابك مثلا ، او استيقظت شكوك الفتاة لسبب ما ، فعليك ان تتصل بي فورا ، زرني او كلمني بالتليفون في اية ساعة من الليل او النهار ، وسوف يسرني ان اخف لنجدتك بغير ابطاء فان اتفه اهمال قد يكلف الفتاة غاليا .. وحذار ان تتخذ خطوة حاسمة بغير علمي ، مهما يكن الثمن . ولو بدرت منك غلطة او حماقة ما فاياك ان تخجل من ان تصارحني بها في الحال ، فنحن الاطباء نرى من الاجساد العارية ، والنفوس العارية ما يجعلنا نتسامح في مخازي الطبيعة البشرية !.. والان هيا بنا نلحق بزوجتي في الغرفة المجاورة ، فقد ترتاب في حديثنا . ان الذين امتحنتهم الاقدار بضربات قاسية يعيشون طيلة حياتهم مرهفي الاحساس سريعي التأثر ! »

ونهض الطبيب فاضاء النور .. وعندئذ تنبهت ــ لاول مرة ــ الى الاخاديد العميقة التي تغضن جبينه ، من فرط التعب والاجهاد .. فقلت لنفسي : « انه دائما يعطي من نفسه

للاخرين ، ويهب راحته ، بل حياته ، للمعذبين ! » وشعرت فجأة باحتقار شديد لنفسي ، ولرغبتي الدائمة في الفرار من مواجهة الحقائق الموجعة ...وكأنما ادرك هو ما يجول بخاطري ، فابتسم وقال لي : « كم يسرني انك جئت تفاتحني في الامر ... فكر فيما عساه كان يحدث لو عمدت الى الفرار من المشكلة ببساطة وبلا ترو .. كانت مسؤوليتك تجثم على صدرك مدى حياتك فان الانسان يستطيع ان يهرب من كل شيء ، الا نفسه !... والان تعال يا صديقي العزيز نجلس بعض الوقت مع زوجتي ، حتى يحين موعد قطارك ... »

اثرت في نفسي حرارة لهجته ، وتلقيبه اياي بصديقه العزيز ، فقد وقف على مبلغ ضعفي وجبني ، ومع نلك لم يحتقرني !.. لقد كان شيخا مجربا ، وكنت حدثا متهورا .. وقد رد الي بتلك العبارة ثقتي بنفسي ، فشعرت كأن حملا ثقيلا قد ازيح عن صدري !



شفقــة حائــرة

عاودتني ثقتي بنفسي منذ وضع كوندور حدا للمهمة الملقاة على عاتقي ، ولم يعد يمضني غير التفكير في اللحظه التي سوف القى بها اديث لاول مرة بعد مكاشفتها اياي بحبها !.. كنت اعلم عن يقين استحالة الا يعتريني ارتباك ما حين القاها بعد ذلك العناق الحار ، فان نظرتها الاولى لي في لقائنا المنتظر لا يمكن الا ان تكون محملة بتساؤل معناه : « هل صفحت عني ؟.. وهل تتقبل حبي ؟ وهل تستطيع ان تبادلني حبا بحب ؟ » ، نعم ان اللحظة الاولى التي سترفع فيها عينيها الي في لهفة وخجل ، ستكون هي اللحظة الخطرة الحاسمة ، فان كلمة واحدة خرقاء ، او حركة واحدة ينقصها التوفيق قد تكشف لها الحقيقة بكل قسوتها .. الحقيقة التي ينبغي الا اكشفها لها بأي ثمن ، فتصيبها تلك الصدمة المباغتة التي حذرني منها الدكتور كوندور .. ولكن اذا مرت تلك اللحظة بخير فاني اكون قد نجوت ، وانقذتها هي ايضا !

وهكذا مضيت بعد ظهر اليوم التالي الى قصر كيكسفالفا ، فلم اكد اتقدم في الردهة حتى ادركت ان اديث قد اعدت مثلي لتلك اللحظة الحرجة عدتها ، فدعت بعض من تعرف لزيارتها في الساعة التي اعتدت ان اصل فيها ، كي يتم لقاؤنا الاول على غير انفراد !..

وقدمتني اليونا الى الزائرتين ، وكانتا زوجة « مأمور » المنطقة وابنتها فجلسنا نتبادل الاحاديث .. وهكذا استطعت ان اتجنب النظر الى اديث ، وان شعرت بنظرتها تستقر علي بين حين واخر في قلق مكتوم .. وحين نهضت الزائرتان آخر الامر ، ذكرت اليونا انها ستتركنا نحو ساعة كي تعد بعض معدات السفر ، واقترحت ان نقضي هذه الساعة في لعب الشطرنج .. فلما خرجت سألت اديث في لهجة عادية : « هل تحبين ان نلعب ؟ » . فأجابت وهي تخفض عينيها : « نعم ، يسرني ذلك »

وبدأنا نلعب ، وقد لاذ كلانا بصمت صارم كان كلانا يخشى ان تفضح كلمة منه مشاعره ، او تقوده الى موقف حرج ، فاستغرقنا في اللعب استغراق اساطين اللاعبين الذين يركزون اهتمامهم في اللعبة وينسون كل ما عداها !.. لكن اميث لم تلبث ان تورطت في بضعة اخطاء متتالية نمت عن شرودها ، وادركت من حركة اصابها انها لم تعد تحتمل الصمت المرهق للاعصاب .. وفي منتصف المباراة الثالثة دفعت منضدة اللعب عنها قائلة : « هذا يكفي .. اعطني سيجارة ! » . فمددت اليها يدي بالعلبة المذهبة ، واشعلت لها سيجارتها بعود ثقاب .. وفيما انا افعل لم استطع تجنب النظر الي عينيها . كانت نظرتها مركزة على لا شيء ، على الفضاء السحيق ، وقد تجمدت فيها نظرة غضب باردة ، وارتفع حاجباها في شبه قوس مختلج .. الامر الذي دلني على اقتراب عاصفة من عواصف انفعالها ، فهتفت بها مناشدا في انزعاج : « كلا بربك .. كلا ! » .. لكنها مالت في مقعدها الى الخلف وتشبثت يداها بمسندي المقعد في عصبية وقد بدأ جسدها كله ينتفض ، واسنانها تصطك في شبه نوبة بكاء صامت مكتوم !.

وعدت اناشدها في فزع حائر وقد عجزت عن ان اجد ما اقوله لها فرحت اردد : « كلا .. كلا » . ثم انحنيت نحوها مرتاعا ووضعت يدي على ذراعها كي اهدئها .. وكأن تيارا من الكهرباء قد سرى من يدي على ذراعها الى جسمها كله فتوقفت رعدته فجأة وسكن !.. وبدا لي كأن كل ذرة فيه قد انشغلت باستنباط مغزى هذه اللمسة مني وهل تدل على ميل ، او حب او مجرد شفقة ؟ لكني لم اجد في اصابعي القوة على تحويل تلك اللمسة الخفية الى القبضة العارمة التي احسست ان جسد الفتاة الملتهب ينتظرها بصبر نافذ ، فتركت يدي راقدة على ذراعها في استكانة ، وكأنها ليست جزءا مني !..

ولا ادري كم بقينا على هذا الوضع .. حتى تنبهت على يدها اليمنى تدفع يدي تلك في رفق عن ذراعها كي تجذبها الى موضع قلبها ، ثم تطبق عليها بيسراها وتعتصرها بين يديها في حياء رقيق ، وتهيب .. وهي تعبث بأصابعي بين حين واخر عبثا حنونا ، خيل الي معه انها باحتضانها هذا الجزء الصغير مني ـ الذي اسلمتها اياه ـ انما تحتضن جسدي كله !

ثم غاصت في مقعدها واغمضت عينيها ، كمن تحلم ، بينما انفرجت شفتاها قليلا وشاعت في محياها اشراقة هادئة ، شأن من تنعم بسكينة نفس كاملة ، ويداها ماضيتان في عبثها الناعم بأصابعي وراحة يدي !. ولا اذكر اني انتشيت يوما بعناق امرأة ، ايا كان عنفه ، مثلما انتشيت ساعتئذ بتلك المداعبة الرقيقة بالايدي وذاك العبث الحالم .. حتى لقد خيل الى ان حواسي كلها قد تأثرت بمخدر سحري افقدني القدرة على سحب يدي .. وتذكرت وانا انعم بدغدغة اناملها لبشرتي في شبه حلم ، هذه العبارة في خطابها : « كل ما اطلبه منك ان تدعني احبك في صمت ! » . فشعرت بخجل عميق ازاء هذا الحب العارم ، الذي لا اجد له في نفسي صدى غير الاضطراب الحي والنشوة الحائرة ..!

وشيئا فشيئا بدأ جمودي يثقل علي !.. واحسست بالحرج من تركي يدي هكذا بلا حراك وكأنها ليست مني ؟.. وكان لا بد ان افعل شيئا ، اصد به شغفها الشديد او استجيب له . لكني لم اجد في نفسي القوة على هذا او ذاك وحدثتني نفسي بأن اضع حدا لهذه اللعبة الخطرة !..

فبدأت احرك عضلات يدي في حذر حي استردها من قبضة الفتاة اللينة ، في رفق ولباقة .. لكن اديث سرعان ما ادركت ـ بحساسيتها المرهفة الحادة ـ اني اوشك ان اسحب يدي ، فأتت بحركة مفاجئة اخلت بها سبيلها .. واذ ذاك لم اشعر الا وقد زال عن بشرتي دفء الملمس الناعم ، فاستردت يدي المهجورة في شيء من الارتباك .. بينما غام وجه الفتاة وبدأ فمها يختلج برعشة الانفعال المكتوم ، فهمست لها منزعجا : « كلا .. كلا بربك !.. لن تلبث اليونا ان تأتي بعد لحظة . » فلما لم تفلح كلماتي السخيفة في تهدئة ثائرتها تملكتني نوبة من الشفقة المباغتة فانحنيت عليها وطبعت قبلة سريعة على جبينها !

ولكن عينيها ظلتا جامدتين ، تحدجانني بنظرة فاحصة نفاذة !

لقد فشلت في ان اخدعها ، وادركت المسكينة اني بسحب يدي قد تنصلت من عناقها ، وان قبلتي « الطائرة » لم تكن دليل حب حقيقي ، ولا تزيد على كونها دليل شفقة حائرة ..!

وفي الايام التالية ، تكررت مني هذه الحماقة التي لا سبيل الى غفرانها او التكفير عنها !. لقد عجزت ـ برغم كل جهودي اليائسة ـ عن ان احشد ما بقي لي من القوة والصبر للقيام بمحاولة ناجحة لاخفاء مشاعري .. ولم يجد تصميمي على الا افضح ـ سواء بالقول او النظرة او الاشارة ـ نفوري من حبها !.

وقد ذكرت نفسي مرارا وتكرارا بتوصيات الدكتور كوندور في شأن خطر الموقف وفداحة مسئوليتي فيما لو خدشت مشاعر هذه المخلوقة التعسة ، فجعلت احدث نفسي محلفا : دعها تحبك ، واخف شعورك الحقيقي اسبوعا واحدا ، كي تحفظ لها كبرياءها ، ولا تدعها ترتاب في انك تخدعها .. حاول ان تكسب صوتك حرارة ، ولمساتك شغفا وحنانا !.. على ان جو اللقاء بقي برغم ذلك مشبعا دائما بتوتر غامض خطر .. فالفتاة العاشقة الوالهة كانت لا تفتأ تستشف حقيقة شعوري بعد ان باحت لي بحبها على ذلك النحو .. ثم ان الحب بطبعه لا يقبل الاعتدال ، ولا يقر الحدود والقيود ، ومن ثم راحت تفسر كل تحفظ او تردد مني في الاستجابة لحبها بانه دليل مقاومة خفية .. ولا بد ان لهجتي قد وشت بشيء من الحيرة والاضطراب ، او ان مسلكي قد نم عن ارتباك مكتوم ، فخرجت الفتاة من ذلك بنتيجة واحدة هي اني لا ابادلها الحب !

وعلى هذا المنوال من فشلي في مهمتي ، انقضت ايام ثلاثة من الاسبوع ، وكانت هذه الايام عذابا متصلا لي ولها !.. وكنت احس طيلة الوقت بالترقب الاخرس ، في نظراتها وفي صمتها !

وفي اليوم الرابع ، لاحظت على مسلكها معي اعراض عداء شبه صريح !.. وكنت قد توجهت لزيارتها بعد الظهر كعادتي ، واخذت لها معي باقة من الازهار .. فتناولتها مني دون ان تنظر اليها ثم وضعتها جانبا في غير اهتمام ، وتحصنت وراء ستار صارم من الصمت المتحدي .. ولما حاولت ان استدرجها الى الحديث في شتى الموضوعات كانت تجيبني اجابات قصيرة شاردة توحي في وضوح مهين بأن وجودي يضايقها !. او تتشاغل اثناء كلامي بتقليب صفحات كتاب او العبث بأي شيء تجده في متناول يدها ، ثم تثاءبت مرتين ، ونادت الخادم لتسأله عن بعض اجراءات السفر ثم عادت تسألني : « ماذ كنت تقول !؟ »

وبعد ساعات قضيناها في هذا الجو من التوتر اقبل كيكسفالفا يدعونا الى مائدة العشاء ..

وجلست اديث في مواجهتي كالعادة ، لكنها لم ترفع عينيها لحظة عن طبق الطعام الذي امامها ، ولم توجه الى احدنا كلمة واحدة .. فأحسسنا جميعا بمدى ما ينطوي عليه صمتها العنيد ، وحاولت انا ان ازيل شيئا من حرج الموقف فجعلت اثرثر بقصص شتى عن قائد فرقتنا ومبلغ ما يرهقنا به من الاعمال في الايام الاخيرة .. وفي اثناء كلامي ذكرت انني وجدت صعوبة كبرى في انهاء عملي يومئذ في الوقت المناسب كي ازور الاسرة كعادتي ، وان من الرجم بالغيب ان اجزم بما اذا كنت سأتمكن من تأدية زيارة الغد ام لا ؟ ولم اكن ارمي بعبارتي هذه الى معنى معين ، بل كنت اوجه كلامي الى كيكسفالفا في لهجة مزاح خالصة . ولكن حدث فجأة ان قطع حديثنا صوت حاد ، اذ القت اديث سكينها فوق طبقها في عصبية وصاحت غاضبة : « اذا كان يضايقك ان تحضر فيحسن ان تبقى في معسكرك او مقهاك ، فنحن نستطيع ان نعيش بغيرك ! »

وامسكنا جميعا انفاسنا من هول المفاجأة ، وكأن شخصا اطلق رصاصة من الخارج اخترقت زجاج النافذة ، بينما هتف الاب منزعجا : « اديث ! » .. لكنها مضت في كلامها قائلة « لعل من المناسب ان نعطيه (اجازة) ولو يوما واحدا ، نعفيه فيه من زيارتنا ! »

وتبادل كيكسفالفا واليونا نظرة فيها كل دلائل الحرج ، ولعلهما احسا اني كنت ضحية بريئة لاحدى نوبات انفعال (اديث) الحادة ثم نظرا الي في لهفة توحي باشفاقهما من الرد على خشونة الفتاة بمثلها !. لكني حاولت ان اضبط مشاعري ، فقلت في هدوء : « اعتقد انك على حق يا اديث ، فان ارهاقي بالعمل في الايام الاخيرة جعلني شخصا لا تروق الناس صحبته وقد شعرت اليوم من مسلكك طيلة الوقت انني اضجرتك وضايقتك ، ولكن لعلك تستطيعين ان تصبري على زياراتي بضعة ايام اخرى قليلة .. اربعة ايام فقط ،او بالاحرى ثلاثة ايال ونصف يوم بالضبط ! »

وعند هذا اطلقت الفتاة ضحكة عصبية حادة ، وقالت : « اسمعوا ما يقول : ثلاثة ايام ونصف ... هاها !.. انه يحسب باليوم والساعة مدى الزمن الذي سوف يتخلص بعده منا اخر الامر !.. واحسب انه قد اشترى خصيصا احد التقاويم ووضع علامة باللون الاحمر على يوم رحلينا .. هاها !. ثلاثة ايام ونصف .؟! »

وظلت تضحك وتضحك وهي ترمقنا بعينيها ، وجسدها يرتجف كالريشة ! واحسست انها لو لم يعقها شلل قدميها لقفزت من مقعدها مندفعة ، تنفيسا عن سورة انفعالها ، فقد كانت من فرط عجزها عن الحركة وهي غضبى اشبه بالوحش الحبيس في قفص !.. ثم ابدت لاليونا حركة تنم عن رغبتها في الانصراف عن المكان ، فأعانتها وابوها على الذهاب الى مخدعها . وخرجت دون ان تتوجه الي بكلمة وداع او اعتذار ، تاركة اياي في حالة ذعر ودوار ، شأن من سقط من حالق في هوة سحيقة !.

وبعد لحظات عادت اليونا لتهمس لي في اضطراب : « ينبغي ان تحاول ان تفهم !.. انها لا تكاد تنام ساعة واحدة طيلة الليل . ان فكرة السفر تسبب لها بلبلة رهيبة . انك لا تعرف .. »

فقطعت كلامها قائلا : « بل اعرف يا اليونا .. اعرف كل شيء .. ولهذا سأحضر غدا ايضا ! »

وانصرفت ليلتئذ وانا اقول لنفسي : « احتفظ بثباتك ولا تدع صبرك يخور ! قاوم بأي ثمن .. انك وعدت كوندور بذلك وبات شرفك معلقا في الميزان . فلا تجعل نوباتها وثورات اعصابها تفسد مهمتك . واذكر دائما ان هذا العداء والتحدي هما نتيجة اليأس الذي تعانيه مخلوقة تتدله في حبك ولا تجد منك غير فتور مثير وقلب مغلق .! قاوم حتى اللحظة الاخيرة . لم تبق غير ايام ثلاثة ونصف يوم تكون قد اجتزت الامتحان بنجاح ، وتعفى من عبئك الثقيل اسابيع او شهورا طويلة ، وربما الى النهاية !. فصبرا مرة اخرى .. ثلاثة ايام .. ونصف اليوم ! »

وقد كان كوندور على حق ، فان الاعباء غير المحددة بأجل هي التي تفزعنا .. ومن ثم شعرت وانا أوي الى فراشي في تلك الليلة انني سوف انجح في تحمل عبئي خلال الايام القليلة الباقية ، وامدني شعوري هذا بثقة مجددة في نفسي .. فأديت عملي في نهار اليوم التالي بنشاط كامل وجلد مثالي ، حتى اني ظفرت بكلمة اعجاب من قائد الفرقة !

وقبيل الظهر اقترب مني احد الجنود وهمس في اذني « مكالمة تليفونية سيدي الملازم » . فهرعت الى حجرة التليفون منزعجا وانا اقول لنفسي : « ان مكالمات التليفون والبرقيات والخطابات صارت تعني بالنسبة لي متاعب جديدة وانباء سيئة .. ترى ماذا تريد مني في هذه المرة ؟! »

لكني فوجئت بأن اليونا هي التي تتكلم !.. وقالت بصوت فيه مسحة من الاضطراب : « لعله يحسن الا تحضر اليوم ، فان اديث ليست على ما يرام . »

فقلت لها : « ارجو الا يكون توعكها خطيرا ؟ »

فأجابت بعد تردد قصير : « ليس في الامر خطر .. ولكن ارى انه من الافضل ان ندعها تستريح اليوم ، ولا سيما ان يوما واحدا لن يقدم او يؤخر ، فأكبر الظن اننا سنضطر الى تأجيل سفرنا !. »

وهنا هتفت بها منزعجا وسألتها دون وعي : « ماذا؟ » .. فأجابتني على الفور : « لبضعة ايام فقط ، فيما نرجو .. وعلى اية حال ففي وسعنا ان نتحدث في الامر غدا ، او بعد غد .. وقد اتصل بك بالتليفون مرة اخرى .. وفي انتظار ذلك ارجو الا تحضر اليوم ، اذا لم تر بأسا .. و ..و .. الى اللقاء ! » . ثم وضعت السماعة حتى لا تتيح لي فرصة المضي في المحادثة !

عجبا ! لم انهت المكالمة بمثل هذه العجلة ، كأنما تخشى ان اوجه اليها مزيدا من الاسئلة ؟.. وما علة تأجيل السفر ؟.. لا بد ان وراء ذلك سر !.. والاسبوع الذي تنتهي بعده مهمتي ، هل يمد بعد ان كاد ينتهي ؟. مستحيل .. اني لن احتمل ذلك ، فان لي اعصابا انا الاخر ، ومن حقي ان انال قسطا من الراحة !

وحين عدت بعد هذه المحادثة ، كانت ساعة الغداء قد حانت ، فجلست الى المائدة بين نفر من زملائي ، شاردا ، تدق صدغي مطارق متوالية تهتف في وعيي : « تأجل السفر .. تأجل السفر .. تأجل السفر ! لا بد من سبب لهذا التأجيل . لا بد ان شيئا قد حدث .. هل اديث مريضة حقا ؟.. لقد احتملت حرج موقفي نحوها اربعة ايام كاملة ، ووطنت نفسي على ثلاثة اخر .. اما بعد ذلك فلن استطيع صبرا .. لن استطيع ... لن ادع القوم يلهون بي .. لن ادعهم يمزقون اعصابي اكثر من ذلك . كفاني ما قاسيت من عذاب بسبب تلك الشفقة اللعينة التي

تكاد تقودني الى الجنون !

واحسست انني يجب ان افعل شيئا .. اقوم بحركة عنيفة ـ مثلا ـ تخفف الضغط عن اعصابي ، او احطم اكواب الماء بين اصابعي ، او اقذف بها فوق بلاط القاعة !. فنهضت وغادرت المكان دون ان اذوق طعاما خشية ان ارتكب حماقة على مرأي من اخواني جميعا !

وفي الخارج سمعت بعض الزملاء يتراهنون على ترويض جواد جامح ، فتطوعت للقيام بالمهمة كي اشفي بعض غليلي .. وبعد ان افرغت ثورة نفسي في ركل الحيوان المتمرد مدى ساعة كاملة ، وسط صيحات الاعجاب من زملائي ، ركضت بالجواد الذي اسلست قياده ، منطلقا به في نزهة طويلة قصدت بها ان اروح عن نفسي !

وكم كانت دهشتي حين التقيت في الطريق المؤدي الى البلدة بسيارة كيكسفالفا ، تقل صاحبها وصديقه الدكتور كوندور الى وجهة مجهولة !.. ولمحني الاثنان فحيياني من داخل السيارة دون ان يأمرا السائق بالوقوف !

عجبا !.. ايحضر الطبيب من فينا دون ان يخطرني او يتصل بي ؟ ثم يراني في الطريق فلا يتوقف ؟! ثم كيف يحضر في موعد عيادته ؟ لا بد انهم قد استدعوه لامر عاجل .. لا بد ان شيئا قد حدث ، شيئا يحرصون على الا اعلمه !.. ترى هل الحقت الفتاة اذى بنفسها ؟. لقد بدت على وجهها ليلة امس مسحة من التصميم على شيء ، ومن الاحتقار للجميع ، شأن من تدبر امرا رهيبا !

وسألت نفسي : « الا ينبغي ان الحق بكوندور في المحطة لاستفسر منه عن جليه الامر ؟. ولكن لعله ترك لي رسالة في المعسكر ، او لعله ينتظرني بنفسه هناك ، فانه لا يمكن ان يسافر ويتركني فريسة لهذه البلبلة الفظيعة .. فلاسرع بالعودة ..!

* * *

وحين وصلت استقبلني تابعي قائلا ان هناك رجلا بملابس مدنية ينتظرني في غرفتي .. لقد صدق حدسي ولم يخلف كوندور ظني !. لكني لم اكد افتح الباب حتى وجدت نفسي وجها لوجه امام كيكسفالفا !

وابتدرني الرجل قائلا في ادبه المفرط المثير : « اغفر لي اقحام نفسي عليك هكذا على غير انتظار يا سيدي الملازم ، لقد كلفني الدكتور كوندور ان احمل اليك اعتذاره واسفه الشديد لعجزه عن التوقف اثناء اسراعه الى المحطة ، خشية ان يفوته القطار ! »

كان محدثي واقفا امامي وقد احنى رأسه كأنما يثقله حمل غير منظور !.. وادركت من هيئته ان عنده شيئا اخر يود لو يفضي به الي ، ولا سيما اني لم اعقل ان شيخا مثله ضعيف القلب والبنية يجهد نفسه ويصعد السلم الى الطابق الثالث لابلاغي تحية كان في وسعه ان يبلغني اياها بالتليفون !..

لكني مع ذلك لم اشأ ان استفسر منه عن شيء ، او ابدأ الحديث فقد حدثتني نفسي بأن اكون منه على حذر ، فلا اقع في فخه كما وقع الشاب في فخ (الجنى) في قصة الف ليلة وليلة التي قرأتها منذ ليال .. فاكتفيت بأن قلت له :

ـ انه لطف كبير منك يا هر فون كيكسفالفا ، ان تجشم نفسك كل هذه المشقة من اجلي .. هلا تفضلت بالجلوس ؟

وجلس كيكسفالفا صامتا ، وبعد ان تشاغل هنيهة بتنظيف زجاج نظارته ، بدا كأنه يئس من ان استدرجه انا الى الحديث ، فأخذ يتكلم وهو ينظر الى قاعدة المنضدة التي بيننا متحاشيا عيني ، قال ، « ليس من حقي ان اغتصب المزيد من وقتك يا سيدي الملازم .. ولكن ماذا في وسعي ان افعل ؟ لم اعد اتحمل اكثر مما تحملت .. والله وحده يعلم ما اصابها في اليومين الاخيرين !.. انها تأبى ان تصغي الينا ، وتزعم انها مريضة . لكني اعلم ما بها !.. انها مسكينة تاعسة الى حد اليأس .. ويأسها هو الذي دفعها الى ان تعدل عن السفر وتصر على هذا العدول برغم اعدادنا العدة له وحجزنا امكنة لنا في عربات اليوم !. والذي يدهشني انها كانت ـ حتى امس ـ اكثر حماسة للسفر واستعداداً له . ولكن فجأة ، بعد العشاء ، ثارت واعلنت انها لن تسافر بأي ثمن ، ولو تهدم البيت فوق رأسها .. وانها فقدت اهتمامها بالعلاج الجديد ، بل يخيل اليها الان انه خدعة يراد بها ابعادها !.. انها تصرخ فينا قائلة : « لن تستطيعوا خداعي وتعذيبي بعد الان .. لقد سئمت كل هذه التجارب العقيمة .. سئمت هذه الاكاذيب . اني افضل ان اظل كسيحة .. لست اريد ان اشفى .. ما فائدة شفائي الان وهو .. لا يشعر نحوي بغير الشفقة !.. »

وسرى تيار كالثلج في نخاعي حين نطق كيكسفالفا بالعبارة الاخيرة !.. لم يكن حتى تلك اللحظة قد اظهر لي ما ينم عن عمله لعاطفة ابنته البائسة ، ولعل ذلك لخجله مني بعد أن رددتها خائبة !. اما وقد افصح الان ، فقد انعقد لساني ، وحرصت انا ايضا على تجنب النظر الى عينيه !.. وانعقدت في سماء الحجرة كلها سحابة من الصمت الثقيل المرهق !

ومن انفاس الشيخ اللاهثة ادركت ان هذا الصمت يوشك ان يخنقه ، وان شرايينه توشك ان تنفجر !.. وقبل ان انتبه ، لمحته يسقط فجأة امام مقعده وينقلب المقعد وراءه .. فكان اول خاطر ومض في ذهني انه اصيب بنوبة قلبية ، كما توقع له كوندور منذ زمن .. فهرعت من فوري كي ارفعه وارى ما يمكن عمله لاسعافه .. وعندئذ فقط تبينت الحقيقة : انه قد انزلق من مقعده عامدا ليجثو على ركبتيه .. ولم اكد انحني عليه حتى تناول يدي وراح يناشدني في توسل : « يجب ان تنقذها .. انك الوحيد الذي يستطيع انقاذها .. حتى كوندور يقول ذلك !. انت ولا احد غيرك .. اتوسل اليك ، ارحمها !.. لا يمكن ان تستمر الحال على هذا المنوال . انها سوف تقضي على نفسها في نوبة من نوبات اليأس ! انها تقسم على ذلك وهي تشهق بالبكاء ، زاعمة انها بذلك تريحك وتريحنا جميعا .. وهي ليست هازلة .. فقد حاولت الانتحار مرتين من قبل ، ابتلعت مرة اقراصا منومة وقطعت مرة اخرى وريدا في رسغها ، وهي متى اعتزمت امرا لا تتراجع عنه !.. انقذها بربك .. اقسم لك ان المسألة باتت مسألة حياة او موت ! »

وكنت قد رفعت الشيخ المحطم حتى اوقفته على قدميه ، وهو ماض في توسلاته .. ثم قلت له آخر الامر : « هدىء من روعك يا سيدي وثق بأني سافعل كل ما في وسعي من اجلها .. وان اردت فلنذهب اليها الان كي نحدثها في الامر .. ولكن قل لي ماذا تريدني ان اقول لها .. وماذا

ينبغي ان افعل ؟! »

وعندئذ افلت ذراعي من يديه وحدق في كالمأخوذ قائلا : « ماذ ينبغي ان تفعل ؟! انت لا تفهم حقا ؟. ام انك لا تريد ان تفهم ؟! الم تفتح هي قلبها لك ، وتعرض نفسها عليك ؟. ان المسكينة تكاد تقتل نفسها خجلا من اجل الخطاب الذي ارسلته اليك فلم ترد عليه .. انها تعتقد انك تبغي الخلاص منها وتحتقرها !.. الا تدرك ان الموت اهون على مثلها من هذا الشك القاتل الذي تتركها بصمتك فريسة له ؟.. لم لا تقول لها كلمة تبعث في نفسها شيئا من امل ؟. ثم تعامل المسكينة بهذه القسوة وتعذبها هذا العذاب الفظيع ؟.. انك تكاد تقودها الى الجنون بجمودك ، في حين انها لا تعيش الا في انتظار شيء واحد ، بل كلمة واحدة .. هي الكلمة التي تنتظرها كل امرأة من الرجل الذي تحبه !.. وهي ما كانت لتأمل شيئا عندما كان شفاؤها مشكوكا فيه ، اما الان وقد بات مرتقبا في خلال اسابيع ، فلم لا تطمع المسكينة فيما تنعم به غيرها من النساء ؟.. لقد اذلت نفسها لك ، وانت تضن عليها بالكلمة الوحيدة التي يمكن ان تسعدها .. فهل تزعجك الفكرة الى هذا الحد ؟. انك تستطيع ان تنال كل ما يحلم به انسان على هذه الارض ، اذ لا يخفى عليك اني رجل مريض طاعن في السن وسوف اترك كل ما املك : الضيعة والقصر ، والستة او السبعة ملايين التي شقيت في جمعها طيلة اربعين عاما .. كلها ستكون لكما ، غدا اذا اردتما ، او اليوم ، فما عدت اطمع في شيء !.. كل ما اتمناه شخص طيب القلب يعنى بطفلتي ويرعاها بعد ان اموت .. وانا اعلم انك تستطيع ان تكون هذا الشخص ! »

وخذلته قواه ، فمال برأسه فوق المنضدة ، واخفى وجهه بيديه ، حتى لقد احسست نحوه بعطف بالغ .. فقلت وانا انحني فوقه : « هر فون كيكسفالفا .. لا تضن علي بثقتك .. سوف نتدبر الامر كله في هدوء ، واني اضع نفسي تحت تصرفك .. سأفعل كل ما في وسعي .. لكن الشيء الذي اشرت اليه الان .. مستحيل ، مستحيل اطلاقا !.. ضع نفسك مكاني : من انا ؟ ضابط يعيش من مرتبه الضئيل الذي لا يكفي شخصين بحال .. اعلم ما تريد ان تقول .. انك غني .. واستطيع ان احصل منك على كل ما اريد .. ولكني لهذا السبب بالذات لا استطيع تحمل التفكير في الامر .. سوف يفكر الناس جميعا اني تزوجتها طمعا في مالها .. واديث نفسها سوف تعيش حياتها معذبة بهذا الشك ذاته !.. وستشعر اني قبلتها لثروتها وحدها وغضضت الطرف عن الاعتبارات الخاصة الاخرى .. صدقني يا هر فون كيكسفالفا اني لا استطيع ، برغم تقديري واعجابي بابنتك .. انك تقدر موقفي ، اليس كذلك ؟ »

وبقي الرجل صامتا لا يتحرك ، ثم تحامل على نفسه ووقف ، وبعد ان لبث فترة يترنح كمن به دوار .. قال لي اخيرا بصوت كأنه آت من بعيد :

ـ اذن .. فقد انتهى كل شيء !

ودون ان يخفض بصره الشارد اخذت اصابعه تتحسس مكان نظارته على المنضدة : حتى اصطدمت بها فتناولها ، لكنه بدلا من ان يثبتها على عينيه وضعها في جيبه بغير مبالاة .. ما فائدة النظر بعد الان ، وما جدوى العيش كله ؟.. ثم التقط الشيخ الفاني قبعته بالطريقة نفسها واستدار ليذهب ، وهو يغمغم دون ان ينظر الي : « اغفر لي اني ازعجتك .. » . ثم كأنما تذكر شيئا ، فخلع قبعته وانحنى لي ، وكرر العبارة ذاتها ..!

وكانت هذه الحركة من التأدب البالغ ، برغم اليأس القاتل ، هي التي قلبت موازين قلبي .. فوجدت نفسي مرة اخرى فريسة مستضعفة لشفقتي !.. وشعرت بتيار دافق حار من الرحمة الحانية ينبثق في اعماقي ، فيرسل الدمع المحرق الى عيني ... بل شعرت بقلبي يذوب ، وعزمي يضعف وينهار ، ولم استطع ان ادع الرجل المسن يذهب كسير القلب ، وهو الذي جاء ليهبني ابنته ، اعز مخلوق عليه في الارض !.. ولم استطع ان انتزع من جسده ، واسلمه لليأس والموت .. بل وجدت من واجبي ان اقول له شيئا يرد له بعض امله ، فاندفعت خلفه هاتفا :

ـ هر فون كيكسفالفا ، لا تسيء فهمي .. لا تذكر لها اني .. ان هذا يضرها ابلغ الضرر في حالتها الراهنة .. ثم هو غير صحيح ايضا !

لكن الرجل بدا كأنه لا يسمعني !. كان اليأس قد احاله الى شبه عمود من الملح ، الى جثة حيه .. فازادت لهفتي على تخفيف ما به واردفت قائلا :

ـ اقسم لك انني لم اقصد ان اهين اديث او اجعلها تعتقد انني غير شغوف بها ، فلا احد يكن لها مثل العاطفة التي اكنها لها .. وكل ما قصدته ان من غير المجدي ان اصرح لها بشيء من ذلك الان ، في الوقت الذي ينبغي فيه ان ينحصر اهتمامها في العناية بنفسها ، وفي ان تحصل على الشفاء المرجو ! »

وهنا استدار الرجل وقد دبت الحياة في عينيه اللتين كانتا خامدتين ، وسألني :

ـ وماذا بعد ان تشفى ؟!

فأجبته وقد تذكرت ان آمالها في الشفاء ليست غير اضغاث احلام : « حين تشفى .. سوف آتي بلا شك واسألك .. »

وحدق الرجل في هنيهة وقد هزت جسمه رعدة قوية ثم قال :

ـ هل ابلغها ذلك ؟

واحسست الخطر الذي تنطوي عليه اجابتي ، لكني لم اقو على رد نظرته المتوسلة خائبة ، فأجبته بصوت حازم وانا امد اليه يدي :

ـ نعم ، ابلغها ذلك

واذ ذاك لمعت عيناه وامتلأتا بدموع الشكران ، وارتجفت يداه في يدي بقوة ، ثم احنى رأسه وتذكرت فورا انه في مناسبة سابقة قبل يدي .. فسحبتها هذه المرة في الوقت المناسب وانا اسمعه يقول : « لست استطيع ان اشكرك ، فليكافئك الله ! »

ولم اقدر خطر الوعد الذي بذلته في لحظة ضعفي الا بعد ساعة كاملة من انصراف كيكسفالفا ، حين جاء تابعي يحمل الى ظرفا ازرق ، فضضته فوجدت فيه هذه الكلمات : « سنسافر غدا .. اغفر لي ، مسلكي في الايام الاخيرة ، فقد كان ينتابني الخوف من ان اكون حملا ثقيلا على نفسك . اما الان فاني اعرف لماذا ومن اجل من يجب ان اشفى !.. لم اعد اخاف شيئا . تعال غدا مبكرا ما استطعت .. فما انتظرتك يوما بمثل هذه اللهفة !.. المخلصة لك دائما .. اديث »

وارتجفت وانا اقرأ الكلمة التي تربطني الى الفتاة « دائما » .. مدى الحياة !.. وشعرت بأني لم اعد استطيع التراجع .. لقد تغلبت شفقتي مرة اخرى على ارادتي ، فلم اعد املك التصرف في نفسي ..!



اللقــاء الاخــير

تناولت ثلاث كئوس من الخمر قبل ان آخذ طريقي الى القصر بعد ظهر اليوم التالي .. اردت ان استمد منها الشجاعة على مواجهة الموقف العسير الذي ينتظرني ، والتغلب على خوفي — او خجلي — لست ادري !

ولكن الامور جرت بأسهل مما توقعت .. استقبلني « جوزيف » بوجه بشوش ، قائلا : « ان الانسة تنتظر سيدي الملازم في الصالون منذ زمن » .. ثم اسلمني الى اليونا التي شدت على يدي بحرارة لم اعهدها منها ، وقالت ووجهها يشع اشراقا وودا : « شكرا لك سيدي الملازم .. انك لا تعرف مدى ما اديت لنا جميعا من جميل ، انك قد انقذتها !.. ولكن تعال مسرعا فانها تنتظرك ملهوفة »

ثم فتح الباب واقبل كيكسفالفا مشرق الوجه فابتدرني قائلا : « انك ستدهش للتغير الذي طرأ عليها .. انها منذ مرضت لم تبد يوما مرحا سعيدة مثلما تبدو اليوم . حقا انها لمعجزة ! »

واكتسحت هذه الموجة من الشكر والترحيب كل خوفي وخجلي فأسعدني ان اكون السبب في اسعاد الاخرين على هذا النحو .. وهكذا دخلت عليها بقلب هادىء وجنان ثابت ، فوجدتها تكاد تطفر من مقعدها فرحا ومرحا ، وقد ارتدت ثوبا من الحرير الازرق الفاتح ، ووضعت على رأسها بضع ازهار بيض .. وبقدر ما كانت لهجتها صبيانية كان جمالها اكثر انوثة من ذي قبل !.. ولم تكد تراني حتي هتفت بي « اخيرا ، اخيرا !.. تعال واجلس بجانبي ، ولا تقل شيئا ، فعندي الكثير الذي ينبغي ان اقوله لك ! »

وحين فعلت ، استطردت قائلة بلهجة من تزن كل كلمة تفوه بها : « اصغ الي ، ولا تقاطعني .. لقد عرفت كلّ ما قلته لابي ، وما اعتزمته من اجلي .. والان صدقني حين اعدك بأني لن اسألك يوما او اسأل نفسي : افعلت نلك من اجل ابي ام من اجلي ، وبدافع الشفقة ام بدافع .. كلا !.. لا تقاطعني ، فأني لا اريد ان اعرف جواب هذه الاسئلة ، لا اريد ان استمر في تعذيب نفسي وغيري بهذه الشكوك .. ويكفي ان تعلم اني لم اعد الى الحياة ولن اقوى على الحياة الا بفضلك ، بل اني احس ان حياتي لم تبدأ الا امس !.. ولتثق بأني سوف استسلم لما يريده الاطباء مني استسلاما مطلقا . وسأناضل في سبيل الشفاء ـ وقد عرفت ما يتوقف عليه ـ بكل عصب وكل ذرة من جسمي ، وكل قطرة من دمي ، ويخيل الي ان الانسان حين يريد شيئا بمثل هذه الاستماتة الملحة فان الله لن يضن عليه به !.. كل هذا سوف افعله من اجلك ، كي لا احملك تضحية ما في سبيلي . ولكن اذا لم تسر الامور على ما يرام ، اي اذا لم احصل على الشفاء التام واصبح مثل بقية الناس ، فلا تخف شيئا .. فانك لن تراني بعد نلك او تسمع عني ، ولن اصبح عبئا عليك لاني لن اصبح عبئا على احد على الاطلاق !.. هذا ما اقسم لك عليه . والان لا تعلق بكلمة ، اذ لم تبق امامنا غير ساعات معدودات نقضيها معا قبل سفري ، وانا اريدها ان تكون ساعات هنيئة حقا ! »

وعلى غير شعور مني ، وجدتني ادنو بمقعدي من ايث واتناول يدها في يدي .. ثم مضينا نتحدث ونثرثر في غير تكلف ، في كل موضوع خطر ببالنا .. ثم انتقلنا الى غرفة المائدة ، حيث كان الشمعدان الفضي يعكس اضواء الشموع ، والازهار تشرئب باعناقها من انيتها كالشهب الملونة ، والمرايا تعكس انوار الثريا البلورية .. والاشجار في الخارج تتنفس في هدوء ، والهواء الدافىء يعبث بالمروج العطرة ، ثم يعود محملا بأريج عذب خفيف !

كان كل شيء يبدو ابهج من المألوف .. فأكلنا وتحدثنا وشربنا نخب شفاء ايث من اجلي كما قالت وهو ترفع الكأس الى شفتيها .. بينما طافت الدموع بمقلتي ابيها محييا محتفيا ، حتى استخفني التأثر فقمت وعانقته !.. وحين لمحت عيني ايث تتبعاني وشفتيها تختلجان شوقا ، اسرعت فانحنيت عليها وطبعت قبلة .. على فمها !.. لكنها لم تلصق صدرها بي كما فعلت في المرة الاولى بل تلقت قبلتي هذه المرة في وقار ، كما تتلقى هدية ثمينة !

وسمعنا صوتا مكتوما صادرا من احد الاركان .. كان جوزيف يبكي فرحا لفرحة سيدته ، فخلنا دموعه تنحدر ساخنة من اعيننا نحن !

وفجأة شعرت بيد ايث فوق يدي وقالت لي : « اعطني يدك لحظة » .. واذا شيء بارد ناعم ينزلق في خنصري : كان خاتما من الذهب !.. ثم همست لي في لهجة المعتذرة : « كيما يذكرك بي حين اكون بعيدة ! » فتناولت يدها وقبلتها ..

وطيلة السهرة كان جبين الفتاة يلمع بندى الانشراح ، وعيناها تعكسان اشعة من السعادة الخالصة .. وتملكني زهو من يشعر بانه صاحب الفضل في كل نلك الحبور والبهجة والانشراح الذي ساد الجميع .. وعندما حان وقت الانصراف ونهضت ، خيم على جو المكان ظل من الكآبة والاسف لانقضاء الليلة الرائعة .. ولاول مرة شعرت بضيق من فكرة مفارقة ايث ، وكنت قد اجلت انصرافي واطلت البقاء رغبة في توديع هذه الفتاة التي تحبني .. فلما لم يعد مفر من

الرحيل صافحتها ثم القيت ذراعي حولها معانقا وقبلتها في فمها ، واذ ذاك شعرت بها تحبس انفاسها كأنما لتحتفظ بحرارة انفاسي اطول مدة ممكنة !. واخيرا صافحت الباقين وغادرت الحجرة يغمرني شعور الارتياح الذي يخامر المرء بعد ان يفرغ من تأدية مهمة ناجحة !

لكني لم اكد ابلغ الباب الخارجي واتهيأ لتناول قبعتي وسيفي من جوزيف حتى لحق بي كيكسفالفا وكأنه لا يقوى على ان يفارقني ، وراح يكيل لي عبارت الامتنان والمديح ، وحيائي يعوقني عن ان اقطع حديثه لانصرف .. اذ لم تمض لحظات حتى سمعنا صوت اديث والبونا تتجادلان جدلا عنيفا : كانت الاولى تصر على شيء والثانية تحاول ان تمنعها ، دون جدوى .. ثم بلغت آذاننا طرقات العكازين على الارض ، واقبلت اديث تتوكأ عليهما حتى بلغت باب الردهة التي كنا في اقصاها ، فتوكأت عليه في حركة من تستجمع قوتها للقيام بمجهود اكبر .. ثم اقبلت في اتجاهي تترنح على ساقيها دون سند من عكازيها مستعينة على حفظ توازنها بحركات ذراعيها .. حتى لم يبق بينها وبيني غير خطوتين ، ثم خطوة واحدة .. واذ كادت تتم المعجزة فاضت بها نشوتها ولهفتها على احتضاني فمدت ذراعيها نحوي قبل الاوان .. وعندئذ اختل توازنها فسقطت عند قدمي مهيضة الجناحين !

حدث ذلك كله في لحظات ، اقعدتنا الدهشة خلالها عن ان نحول دون وقوع الحادث !. فلما وقع اجفلت الى الخلف مذعورا ، لا بد من ان انحني على الفتاة فأقيل عثرتها ! بينما خف كيكسفالفا واليونا وجوزيف الى المسكينة فحملوها ، وهي تنشج بالبكاء كمدا ويأسا ، وخجلا .. مني !

وفي لحظة انزاح عن عيني ضباب الوهم الذي سيطر على مشاعري طيلة السهرة ، فتجلت الحقيقة امامي سافرة ، بكل بشاعتها !

ان الفتاة لن تشفى ، ستظل كسيحة على هذه الصورة مدى الحياة .. وانا الذي حسبت نفسي الها يزهو على مخلوقاته بالسعادة التي افاءها عليهم طيلة السهرة ، عدت فجأة مخلوقا ضيئلا ضعيفا في أمس الحاجة الى من يرثي لحاله !

وفي ظل هذه الصدمة النفسية المروعة وجدتني عاجزا عن ان ابقى الى جانب الفتاة ، بالكذب ، وبالباطل ، وبالخداع المرير ! .. فاختطفت قبعتي وسيفي وفررت من البيت – لثالث مرة – كالمجرم الاثيم !

ومضيت في الطريق استجدي الهواء لانفاسي ، وبي احساس من يوشك ان يختنق .. هل كان الهواء محملا بالغبار ، ام كان النبيذ يطفر من جلدي من فرط ما كان يتدفق في رأسي ويدق اذني وكأنه سوى اني فتحت ياقة سترتي وقد احسست كأن دمي الحار يريد ان يطفر من جلدي من فرط ما كان يتدفق في رأسي ويدق أذني وكأنه وقع عكازي اديث !

وجف حلقي من الانفعال والظمأ فهرعت الى اقرب حانة صادفتها في طريقي ، غير عابىء بحقارتها وتخصيصها لطبقة الجنود وتحريمها على الضباط .. كنت اعتزم ان اتناول قدحا من الصودا المثلجة ثم انصرف ، لكني تبينت عجز ساقي عن ان تحملاني من فرط الدوار الذي اصابني ، من تأثير الخمر والانفعال والهواجس المحمومة التي تناهبتني ، فأشعلت سيجارة واعمدت رأسي بين كفي محاولا تهدئة ثائرة نفسي

ولكن كيف السبيل الى الهدوء وطرقات العكازين تلاحقني ، وسلسلة الاحداث التي تتابعت تتخبط في رأسي ؟ ! ألم يربطوني الى الفتاة برباط اقوى من الخطبة ، فيضعوني في موضع المسئول الوحيد عن حياتها اكثر مما ورطوني !! .. رباه ! كيف حدث نلك ؟ . كيف انتهت الامور الى هذا الوضع ؟ كيف يمكن ان اتزوج امرأة كهذه ؟ . انها ليست امرأة حقيقية .. انها . ! كم كان بشعا منظرها وهي « تتكوم » عند قدمي كجوال من الحنطة ! .. انني ارفض الزواج من مثلها ولو اعطيت مال الارض كله ، وما قيمة المال في رفقة حطام بشري كهذا ؟ .. ولكن كيف السبيل الى الفرار من هذا المأزق ؟ غدا سوف تقف البلدة كلها على النبأ ، قد يعلنونه في الصحف وعندئذ يستحيل علي التراجع ! .. ثم هناك اسرتي ايضا .. ترى : كيف تتلقى خبر زواجي من كسيحة ، ومن اصل يهودي أيضا .. ؟ .. وهناك زملائي في "الفرقة ؟ ماذا يقولون عني ؟ لسوف يؤكدون ساخرين اني بعت نفسي لبقرة عاجزة تدر ذهبا ! .. سيطلبون جميعا مني ـ امعانا في الاستهزاء ـ ان اقدمها لهم ، نعم اقدمها لهم بعكازيها ومقعدها ذي العجلات .. فلا يقع بصرهم عليها حتى ينفجروا ضاحكين ، متصايحين : « ها ها ها .. هذا يفسر سر السبعة ملايين .. لقد اعطوه العكازين ضمن المهر ! »

يا للهول ! .. اين انا ؟ .. نظرت حولي متعجبا . لا بد اني اغفيت بعض الوقت ، ترى هل لاحظ رواد الحانة في مسلكي شذوذا ؟ . انهم يسخرون مني بعد خروجي .. وغدا سوف تسخر البلدة كلها مني وراء ظهري .. ولن يشفق احد على الغبي الاحمق الذي صار عبدا نليلا لشفقته !

الى اين اذهب الان ؟ الى اي مكان عدا غرفتي الخاوية ، التي تنفرد بي فيها هواجسي المروعة ! .. خير ما افعل ان اتناول مزيدا من الخمر ، شيئا باردا لاذعا يزيل هذه المرارة من فمي ، وهذه الافكار من رأسي ! .. يكتسحها ، يحرقها ، يقتلها ، يبيدها !

قادتني قدماي دون ان اشعر الى المقهى المشرف على الميدان الكبير .. وكانت انواره لا تزال مضاءة .. آه ، الى الشراب ، الى الشراب ! .. ولم اتذكر الا بعد دخولي انني قد سعيت بقدمي الى حيث تكمن العصابة كلها ، عصابة الزملاء والاصدقاء : فيرنز ، وستاينهوبل ، وجرسي ، وطبيب الفرقة .. وبقيتهم !

ولكن ماذا يحدجني جوسي هكذا بنظرة دهشة ، بل فزع ؟ ثم لماذا يومىء اليهم بعينه فيقطعون نقاشهم الحامي فجأة ويستديرون بأبصارهم نحوي ؟ .. وكان محالا ان انسحب بعد ان رأوني ، فحزمت شجاعتي وحييتهم ثم جلست .. لكن الجو ظل ملبدا ساكنا برهة ، كأنما قد عكرت عليهم خلوتهم .. واخيرا قطع جوسي حبل الصمت فسألني : « هل نستطيع ان نهنئك ؟ »

فأجبته من فوري قبل ان ادرك مغزى سؤاله : « تهنئونيني بماذا ؟ »

فانبرى يقول متشبثا بالفرصة التي اتاحها له تساؤلي : « ان صديقك الصيدلي ـ وكان هنا منذ هنيهة ـ ذكر ان كبير خدم كيكسفالفا قد انبأه بالتليفون منذ قليل ـ نيابة عن سيده ـ انك قد خطبت ال ... فلنقل الانسة التي هناك »

وتركزت الابصار كلها على فمي .. وخشيت ان يسخر الجميع مني اذا اعترفت .. فأجبت

متنصلا من التهمة : « هذا هراء ! »

لكن جوابي لم يشف غليلهم ، فقال فيرنز وهو يربت على ظهري : « اذن فأنا على حق والخبر غير صحيح ، أليس كذلك ؟ »

وزادني هذا السؤال تورطا في النفي ، وشعرت بسخف محاولتي ان اوضح ـ في مقهى ـ امرا شائكا عجزت عن ايضاحه وانا في خلوة مع نفسي .. فقلت محتجا ، دون ترو : « غير صحيح على الاطلاق ! »

واذ ذاك ساد الصمت برهة ، وتبادل الجميع نظرات الدهشة .. حتى افاقوا منها على صوت فينز يدق المنضدة بيده ويصيح بلهجة المنتصر : « الم اقل لكم اني اعرف هوفميلر حق المعرفة ، وان هذا النبأ لابد ان يكون اكذوبة ، اكذوبة قذرة من جانب الصيدلي اللعين ؟ .. آه ، سوف القي على التعس درسا لن ينساه ، كي يكف عن تلويث سمعة الناس بالباطل ! . ولكن ارأيتم صدق ما قلت لكم ، من ان هوفميلر ليس بالشخص الذي يبيع نفسه من اجل حفنة من المال ؟ »

ثم استدار صديقي نحوي وضربني على ظهري بيده الثقيلة مازحا ، وهو يقول : « لكم انا مسرور لان الخبر غير صحيح .. والا للوثك ولوثنا جميعا ، بل للوث الفرقة بأسرها ! »

ثم اضاف ستاينهوبل قائلا : « كلنا مسرورون بنجاتك من قبضة تلك المراب ، الذي دمر بحيله القذرة (نيوندورف) المسكين ...وانه لمن سوء الحظ ان يسمح لامثال هؤلاء بجمع الثروات وشراء الضياع والالقاب ! »

وهنا قال ثالثهم : « الواقع ان منذ البداية لم اكن مستريحا الى كثرة ترددك على اولئك القوم ، لا لاني اعرف عنهم شيئا يشينهم ، بل لاننا نحن الضباط يجب ان نكون متحفظين في الاختلاط بالناس ، فنعرف كل شيء عنهم قبل ان نشرف بيوتهم بزيارتنا .. يجب ان نحتفظ بأيدينا دائما نظيفة ! »

وتتابعت تعليقات الزملاء اللاذعة على هذا النمط ، وتباروا في التعريض بكيكسفالفا وابنته (البشعة) ! .. بينما جلست انا كالاخرس بلا حراك ، وان وددت لو اصرخ فيهم معترفا بأني انا الكاذب الجبان ، لا الصيدلي ! .. لكنني ادركت ان فرصة التراجع عن انكاري قد فاتت ، كما ادركت فظاعة الخيانة التي ارتكبها بسكوتي هذا في حق اديث البريئة المسكينة ، فوددت لو تنشق الارض وتبتلعني .. ولم ادر الى اية جهة انظر ، ولا ماذا افعل بيدي اللتين قد ترجفان في اية لحظة فتفضحانني .. وانتهزت اول فرصة فخلعت خاتم (الخطبة) من اصبعي واخفيته في جيبي ، قبل ان امد يدي لاصدقائي مصافحا مودعا .. !

وخرجت الى الميدان الغارق في ضياء القمر ، وقد افقت تماما من سكرتي وبلبلة افكاري . ادركت حقيقة ما فعلت ، وما بات واجبا علي ان افعل .. ففي الساعة العاشرة مساء ارتبطت بخطبة فتاة .. وبعد اقل من ثلاث ساعات تنصلت من تلك الخطبة في جبن ونذالة ! .. وامام سبعة شهود سمحت لنفسي ـ وخاتم الخطبة في اصبعي ـ بأن اتلقى المديح والاطناب من اجل اكذوبتي المرذولة ، وامتهنت ـ امتهانا غادرا ـ شرف فتاة اخلصت لي الحب ، مخلوقة عاجزة مسلوبة الحول والطول ، لا ترتاب في شيء ! .. بل تركت ابيها يهان امامي ويثلم شرفه دون ان احتج او ادافع ، وقبلت ان يرمي شخص بالكذب على مسمع مني وهو لم يقل الا الصدق !

وهكذا لن يطلع الصباح حتى تكون الفرقة بأسرها قد وقفت على عاري ، والذين كالوا لي الليلة المديح سوف يتنكرون لي غدا ! .. ومتى افتضح كذبي فلن البث ان اجرد من رتبتي ، ويتعذر على ان اعود لرؤية الذين غدرت بهم غيلة .. وحتى العمل الذي وعدني به بَانكاي ، في مؤسسات زوجته ، سوف يأباه علي بعد افتضاحي .. وهكذا دمرت تلك الدقائق الثلاث التي جبنت خلالها ، حياتي كلها .. والشيء الوحيد الذي بقي لي هو (المسدس) .. !

واذ ادركت بوضوح ان لا سبيل يحفظ لي شرفي غير ذلك السبيل ، انتقلت الى التفكير في الطريقة التي انفذ بها عزمي ، فجعلت وانا اذرع الشوارع المقمرة ادبر ادق تفصيلا الساعتين او الساعات الثلاث الباقية لي على قيد الحياة !

وقررت ان اكتب اولا خطابا الى والدي اعتذر اليهما فيه من اجل الالم الذي سوف اسببه لهما .. ثم خطابا الى فيرنز ارجو فيه ان يعدل عن الاشتباك مع الصيدلي بسبب ما قاله ، ما دامت المسألة ستسوى بموتي ! .. وخطابا ثالثا الى قائد الفرقة استحلفه فيه ان يسدل على الموضوع كله ستارا من السرية ، ما امكنه ذلك واوصيه بدفني في فينا دون جلبة او مشهد عسكري .. ثم اختم رسائلي بخطاب اخير الى كيكسفالفا اسأله فيه ان يؤكد لايث عواطفي الحارة نحوها ويطلب منها الا تفكر في كثيرا .. اما ثيابي وساعتي فتؤول الى تابعي ، واما خاتمي وعلبة سجائري الذهبية فتعود الى كيكسفالفا .. وماذا ايضا ؟ آه لا بد من حرق خطاب ايث ، بل جميع الخطابات والصور التي في حوزتي ، كي لا اترك ورائي شيئا ما ، ولا اخلف اثرا او ذكرى ، وانما اختفي ــ كما عشت ــ دون ان اثير انتباه احد ! .. فاذا ما اتممت هذه الاجراءات تمددت على فراشي وغطيت جسمي ورأسي بكل الاغطية التي عندي ، وفوقها اللحاف السميك ، كي يحجب صوت الطلق الناري عن الاسماع ، ثم اضع فوهة المسدس على صدغي .. واطلق الرصاص !

وكنت قد وصلت الى باب المعسكر بعد ان تجولت على غير هدى حوالي ساعة اعددت فيها برنامج موتي بدقة وصفاء ذهن لا اذكر اني اعددت بهما اي تدبير في حياتي ! ..

ولم يبق الا ان اعبر الفناء واصعد طوابق البناء الثلاثة ، ثم اخلو الى نفسي كي ابدأ ــ واتم ــ كل شيء !

لكني لم اكد اقترب من الباب حتى برز لي من الظلام شبح ، سرعان ما تبينت في ضوء القمر انه .. قائد الفرقة !

ترى بماذا سيعلق على عودتي في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ .. ولكن الى الجحيم به وبالفرقة ، فاني في الصباح سوف امثل بين يدي من لا يقاس هو به !

وناداني الكولونيل بصوته الصارم : « ملازم هوفميلر ! » فوقفت امامه واديت التحية بينما اردف هو قائلا : « لعل احدث زي الحظه عليكم انتم الضباط الشبان في هذه الايام انكم تتركون ستراتكم نصف مفتوحة ! .. هل تحسبون انني اسمح لكم بالتجوال بعد منتصف الليل على هذه الصورة ؟ كلا ! . لن اقبل هذا .. ان ضباطي يجب ان يحتفظوا بأناقة هندامهم في كل وقت .. اتفهمني ؟ . ثم تركني ومضى دون ان يحييني .. رباه ، اتكون آخر عبارة اسمعها في حياتي عبارة لوم وتوبيخ ؟ كلا ! . لا بد ان الحق به كي ابرر له مسلكي واشرح

عذري ، بمثل الحرص التقليدي المألوف من جانب المنتحرين على ان يلقوا حتفهم بصحيفة بيضاء ناصعة ، حتى ليعمد الرجال منهم الى ارتداء ثياب نظيفه - والنساء الى التزين بالاصباغ والعطور - قبل ان ينهوا حياتهم بدقائق معدودات !

وهكذا هرعت خلف القائد حتى لحقت به على السلم ، فسألته ان يسمح لي بالتحدث اليه ببضع كلمات .. وبرغم دهشته دعاني الرجل الى الصعود معه الى غرفته ، وكانت في بساطة حجرات ضباط « اسبرطة » القدامى المتقشفين .. وهناك ابتدرني متسائلا : « اهي مشكلة مالية ، تلك التي تبغى ان تحدثني فيها ، ام نسائية ؟ »

فشرحت له امري باختصار ، وما انتهى اليه عزمي ، حرصا على شرفي وشرف الفرقة التي انتمي اليها ! .. واذ ذاك راح يذرع الحجرة ذهابا وجيئة في هيئة من يجهد ذهنه في البحث عن مخرج ، ثم وقف تجاهي وسألني : « من هم زملاؤك الذين سمعوا انكارك ؟ » فأمليت عليه اسماء الشهود السبعة . وبعد ان كتبها في مفكرته التفت الي قائلا : « الان اسمع الحل الذي اهتديت اليه .. سوف ادعو هؤلاء السبعة لمقابلتي ، كل على حدة في ساعة مبكرة من الصباح . واجعلهم يقسمون بشرفهم العسكري ان ينسوا كل كلمة فهت بها امامهم مبررا مسلكك بأنك كنت في حالة سكر بين لم تفقه معه حرفا مما قلت .. وكذلك سوف اقنع الصيدلي - بطريقتي الخاصة - بهذا العذر ، والزمه الصمت ! .. اما انت ، فينبغي الا تبقى في هذه البلدة يوما واحدا بعد الان ، والا تعرضت للاسئلة والاستفسارات والمضايقات المحرجة اينما ذهبت ، الامر الكفيل بافتضاح حقيقة امرك .. لذلك سأصدر في الصباح امرا بنقلك الى معسكر (شازلاو) فعليك ان تحزم الليلة امتعتك وامتعة تابعك كي تمثلا امامي في الساعة الخامسة والنصف من فجر غدد - او بالاحرى : اليوم - لتتسلما امر النقل .. هل فهمت ؟ .. وهكذا لا يبقى من نيول حماقتك غير ما يتصل بتأثيرها في صلتك بكيكسفالفا وابنته ، وهذا امر اترك لك تصريفه كما تشاء ! »

وحاولت ان اعترض على هذا الحل بحجة انه لا يزيل غير اثر حماقتي بالنسبة للاخرين ، اما اثرها في نفسي وفي قرارة نفوس الشهود السبعة فسوف يظل كما هو ، وسوف تظل لوثة تصرفي المخزي عالقة بشرفي ما دمت على قيد الحياة ! .. لكن القائد لم يقرني على مغالاتي « الساذجة » في توهم الامور .. وحين تظاهرت بطاعته ، وانا ابيت النية على تنفيذ ما اعتزمت ، ادرك بحصافته اني اضمر لنفسي شرا .. فاستوقفني بعد ان هممت بالانصراف ، ليقول لي : « لا تعجبني نظرتك ايها الفتى ، بحيث يخيل الي انك تنوي ان تهزأ بكلامي ، وانك تدبر شرا .. لكني لن اسمح لك بمعالجة الامر في تهور وجنون .. بمسدس او شيء من هذا القبيل .. اتفهمني ؟ »

فقلت : « نعم يا سيدي القائد ! »

فقال : « لا تحسب انك تستطيع خداعي ، فلست من مواليد الامس القريب .. اعطني يدك .. والان ، اقسم لي بشرفك العسكري يا « هوفميلر » انك لن ترتكب حماقة في حق نفسك الليلة ، وان تمثل امامي عند الفجر ثم ترحل الى شازلاو » !

فقلت : « اقسم بشرفي على ذلك »

قال : « حسنا ! . لقد خشيت ان تقدم ـ في حمى انفعالك الوقتي ـ على فعلة نزقة طائشة ، فانكم معشر الشباب تميلون في هذه السن الى تعجل انهاء الامور ، ولو باستعمال المسدس ! .. لكنكم حين تتقدمون في السن سوف تتعلمون كيف تعالجون الامور في روية وتعقل .. والان تستطيع ان تذهب ! »

منذ اللحظة التي تلقيت فيها امر القائد « بالتعقل » ، كففت ـ بحكم نشأتي العسكرية التي تقدس طاعة الرؤساء طاعة عمياء ، عن ان افكر في امري باستقلال في الرأي وصار همي ان اطيع ، وكفى ! ..

وهكذا لم تشرق شمس الصباح حتى كنت وتابعي في القطار الذاهب الى فينا ، ومنها الى شازلاو .. لكن الشلل المغناطيسي الذي اصاب ارادتي وانا بين جدران المعسكر تبخر بمجرد تحرك القطار ، فالقيت عن ذهني سباته وافقت على الصورة التي يفيق بها بشخص القاه انفجار عنيف على الارض فلما وقف على قدميه ادهشه ان يرى نفسه سليما من كل أذى !

وهكذا كانت اول صدمة تلقيتها مدهوشا ، اني وجدت نفسي لا ازال حيا ! أحسست كأن شخصا قد انتزع المسدس من يدي في آخر لحظة ، كي اعيش واواجه ... ماذا ؟ . لقد وعدني القائد ان يسوي اثار حماقتي فيما يتصل بزملائي واهل البلدة .. ولكن ماذا يكون من شأن كيكسفالفا وايث ؟ . من الذي سيشرح لهم جلية الامر ويفسر لهم غيابي ؟ .. لن تحين ساعة زيارتي المألوفة ، بعد الظهر ، حتى تجلس المسكينة في انتظاري ، تضنيها اللهفة المحمومة .. لكني لن احضر ، ولن تتلقى مني اي نبأ في رسالة او بالتليفون ... واذا استفسرت عني في المعسكر فسوف يذكرون الها اني نقلت الى جهة اخرى بعيدة ، لكنها لن تفهم شيئا .. بل انها ستفهم الحقيقة الرهيبة ، وعندئذ ... ؟

وفجأة خيل الي اني ارى عيني كوندور تهددانني من وراء نظارته ، وصوته يصيح بي : « انها تكون جريمة قتل .. قتل متعمد ! »

وتلت هذه الصورة في خاطري صورة اخرى محتها .. صورة ايث وقد رفعت جسمها من مقعدها وانحنت على سور الشرفة ، المطل على الهاوية السحيقة ! .. فحدثت نفسي في انزعاج : ينبغي ان افعل شيئا على عجل ! ارسل اليها برقية من اقرب محطة ، احول بها بينها وبين الاقدام على فعلة طائشة .. ولكن كلا انا الذي ينبغي الا اقدم على اي تصرف طائش ، هكذا اوصاني كوندور ، ملحا علي في ان ابادر بالاتصال به قبل ان اخطو اية خطوة ! . اذن فلافعل !.. من حسن حظي ان امامي فرصة ساعتين اقضيهما في فينا ، بين موعد وصول قطاري ورحيل القطار الذاهب الى شازلاو !

وهكذا لم يكد القطار يقف في محطة فينا حتى تركت امتعتي في حراسة تابعي وركبت سيارة اجرة نهبت بي الطريق الى منزل كوندور

وقطعت الطريق كله وانا اصلي وابتهل راجيا ان اجده في البيت ، ولكن رجائي خاب ! فاضطررت ان اكتب اليه خطابا تسلمه اليه زوجته عند حضوره .. وفيه رجوت منه ان يهرع من فوره الى كيكسفالفا ، بقطار الساعة الثانية ، كي يصل قبل موعد زيارتي المنتظرة ويشرح

لابيث كل شيء .. ورويت له تفاصيل حماقتي الاخيرة راجيا منه ان يصارح الفتاة بها عن حقيقتها كي لا تراني في صورة تفضل الواقع ، لا تراني بريئا وانا المذنب ! فاذا استطاعت برغم ضعفي ان تصفح عني فسوف اعتبر خطبتنا اكثر جدية وقداسة منها في اي وقت مضى .. فانها لم تصبح في نظري مقدسة حقا الا الان ! ... واذا سمحت لي ان اصحبها الى سويسرا فأنا على استعداد لان اعتزل الخدمة فورا واذهب معها ، والازمها في المستقبل سواء اشفيت قريبا ام بعيدا او لم تشف على الاطلاق !.. ذلك لاني ابغي ان افعل كل ما في وسعي للتكفير عن جبني وقد صار هدف حياتي الوحيدة الان ان اثبت لها اني لم اخنها هي بحماقتي بل خنت الاخرين وحدهم .. كل ذلك ينبغي ان يقوله كوندور لها بصراحة تامة ، فاني لم اتبين الا اليوم كم هي اثيرة عندي ، اكثر من اصدقائي ومن عملي وخدمتي العسكرية ! .. هي وحدها التي تملك ان تقدر موقفي وتصفح ــ او لا تصفح ــ عني . وفي يدها وحدها مصيري ! .. لذلك الح عليه في ان يدع كل شيء ويستقل قطار الساعة الثانية بغير ابطاء ، كي يصل قبل الرابعة والنصف ، موعدي المألوف .. والا تعرضت حياة الفتاة للخطر ! »

ولم اشعر الا حين وضعت القلم ، بما انا مدين به للقائد الذي انقذ حياتي ، كما شعرت بأني منذ تلك اللحظة مرتبط مدى الحياة بشخص واحد ليس غير ، بالمرأة التي احبتني ! ..

وسلمت الرسالة لزوجة الطبيب ، ثم انحنيت على يدها فقبلتها .. وحين رفعت بصري اليها لم استطع ان افهم كيف بدت لي هذه المرأة العمياء في البداية قبيحة الخلقة ! .. فقد اشرق وجهها الان بنور المحبة والعطف الانساني ، حتى لقد احسست ان تينك العينين اللتين لم تعكسا غير الظلمة الابدية تعرفان من حقائق الحياة اكثر من كل العيون المبصرة المفتوحة على الدنيا بأسرها !

وغادرت البيت وبي احساس من شفي من مرض طويل !

لم اعد ارى ان ثمة اي تضحية مني في ارتباطي مدى الحياة بمنبوذة اخرى عديمة الحيلة ! .. كلا ! . فليس الانسان السليم ، الابي ، الفرح ، السعيد هو الذي ينبغي ان نحبه ، فمثله ليس في حاجة الى حبنا ! . انه في غطرسته وعدم مبالاته يتقبل هذا الحب منا على انه واجب علينا نؤديه له صاغرين .. والحب المتفاني من جانب شخص اخر نحوه يكون بمثابة زخرف لمجرد الزينة ، حلية للشعر او سوار للمعصم .. وليس نعمة حياته كلها ومسر وجوده ! .. وليس يستحق الحب وينتفع به غير الذين قست عليهم الحياة فأذلتهم وحرمتهم نعمة الحواس ، او الجمال ، او الاطمئنان ، او اليقين ! .. والذي يكرس حياته لمثل هؤلاء انما يعوضهم بعض ما سلبتهم الحياة .. وهم وحدهم الذين يعرفون كيف يحبون ويتلقون الحب كما ينبغي للانسان ان يفعل في تواضع وامتنان !

ووجدت تابعي ينتظرني حيث تركته ، فمضيت به الى قطار (شازلاو) وقد غمرني شعور بالارتياح لا يوصف . لقد انقذت نفسي وانقذت حياة انسان آخر . ولم اعد نادما على حماقتي الاخيرة ، بل انها ــ على العكس ــ هيأت لمن كانوا يثقون بي ان يعلموا اني لست بطلا او قديسا ، او الها تنازل فرفع الى سمائه مخلوقة مريضة بائسة ! .. فلئن تقبلت اليوم حبها فما عاد الامر ينطوي على تضحية او شبهها .. كلا ! . بل انا الذي يستجدي الغفران الان ، وهي

التي تمنحه !

ولكن ، ماذا لو لم يعد كوندور الى بيته في الوقت المناسب لان يلحق بقطار الساعة الثانية ؟ .. ومرة اخرى مثل في خاطري مشهد الشرفة المطلة على الهاوية ، فانتظرت بصبر نافد وقوف القطار في المحطة التالية وهبطت منه الى مكتب (التلغراف) المقام على الرصيف .. حيث ارسلت منه البرقية التالية : « ابيث فون كيكسفالفا ــ ضيعة كيكسفالفا ــ الف تحية واطيب التمنيات .. انتدبت لعمل بعَيدا . ساعود قريبا . كوندور سيوضح لك كل شيء . سأكتب حال وصولي ــ محبك المتفاني .. هوفميلر »

وعندئذ فقط استراح بالي وسكنت مخاوفي فشعرت بمدى الاجهاد الذي عانيته بعد يومين شاقين وليلتين مسهدتين .. وحين وصلت في تلك الليلة الى « شازلاو » اقتضاني الامر ان اتحامل على نفسي كي ابلغ غرفتي في الطابق الاول من الفندق ، حيث غرقت في النعاس من فوري كما يغرق الانسان في بئر عميقة ! ..

واعتقد انني اغفيت في اللحظة التي لمس فيها رأسي الوسادة .. وبعد فترة ليست بالقصيرة رأيت فيما يرى النائم اني واقف وسط حجرة الانتظار بمنزل كوندور ، وفجأة تناهى الى سمعي نلك الصوت الخشن المروع الذي ما فتيء منذ ايام يطرق صدغي صوت طرقات العكازين على الارض : تاك ، تاك ، تاك ، .. اخذ الصوت يقترب ويزداد وضوحا حتى خلته قد بلغ حجرتي ، فهببت من نومي مذعورا لاسمع طرقا على بابي !

حملقت هنيهة في ظلام الغرفة حتى استوثقت من اني لم اعد احلم ، وعندئذ قفزت من فراشي وفتحت الباب .. فاذا خادم من خدم الفندق ينبئني بأن هناك من يطلبني بالتليفون من فينا ... !

وطار النوم من عيني ! . لابد انه كوندور ! .. وفي مثل لمح البصر ، تبعت الخادم وأنا اكاد اعدو .. لكني حين تناولت السماعة لم اسمع غير ازيز متقطع كأزيز اسراب البعوض ، فصحت وصحت « الو .. الو » ولكن بلا جواب ! .. لا شيء غير الازيز المتقطع ! ..

ولم ادر هل سرت الرعدة في اوصالي بسبب ثيابي الخفيفة ، ام لخوف مفاجيء اعتراني فجعل اسناني تصطك ؟ .. ترى ماذا حدث حتى جعلهم يطلبونني بعد منتصف الليل ؟

وعدت اصيح ، واهتف وانتظر .. واخيرا سمعت صوتا يقول « القيادة العليا في براج تتكلم .. هل انت وزارة الحرب ؟ » فصرخت حانقا : « كلا .. ! » .. وبعد حين خاطبني العامل قائلا : « آسف ، لقد اخلي الخط لمحادثة حكومية مستعجلة ، سأدق لك الجرس حالما ينتظم الخط مرة اخرى ! »

ولبثت انتظر على مقعد خشبي صغير ، وانا انتفض من البرد والخوف ، وجبيني يتفصد بعرق الانزعاج

ومضى نصف ساعة .. وتبعه نصف ساعة آخر ! .. ما معنى هذا ؟ لماذا يتركونني انتظر كل هذا الوقت الطويل ؟ . هذا اجرام ! .. هذا جنون ! .. في مدى ثانية واحدة من الزمن يمكن ان يموت انسان ، ويتقرر مصيره ، او ينهار عالم بأسره !

واخيرا دق الجرس ، ليقول لي العامل في غير خجل : « لقد الغيت المحادثة ! »

الغيت المحادثة ؟ .. ما معنى ذلك ؟ . ايطلبونني بعد منتصف الليل ثم يلغون الطلب ؟ . لابد ان شيئا قد حدث ، شيئا يجب ان اعرفه فورا ! ما افظع ان يعجز الانسان عن ان يخترق الزمن والمسافة ! .. ولكن ماذا في وسعي ان افعل ؟

لست استطيع ان اصف كيف قضيت تلك الليلة ، ولا ان اصف بشاعة الافكار والهواجس التي تنازعتني خلالها ، وانا انتظر وانتظر ، بكل عصب في جسمي .. وانصت واتسمع لكل صوت على السلم وفي الممر ، والشارع ، عسى ان تتجدد المحادثة .. حتى انتزعني النعاس والارهاق من وعيي نعاس شبيه بالموت والعدم !

وحين صحوت كان نور النهار يملأ الفضاء ، فنظرت في ساعتي ، يالله ! العاشرة والنصف ؟ .. كيف هذا ؟ . لقد كلفني القائد ان امثل امام رئيسي الجديد في الصباح الباكر ! .. ومرة اخرى ، وقبل ان يتسع لي الوقت للتفكير في امر شخصي ، بدأ الجانب العسكري من عقلي يعمل بطريقة آلية .. فارتديت ثيابي في لحظات وطرت الى مقر عملي الجديد .. ووجدت الفرقة بأسرها قد اصطفت في الفناء الفسيح ، فسارعت الى احتلال مكاني على عجل .. وبعد دقائق اقبل القائد يسير بخطوات بطيئة صارمة ، ثم نشر ورقة كانت مطوية في يده ، وشرع يقرأ بصوت مفجوع : « لقد وقعت جريمة قتل مروعة أشاعت الذعر والاسى في النمسا وهنغاريا وكل بلاد العالم المتمدن .. هي الاغتيال الاثم لولي العهد المحبوب صاحب السمو الامبراطوري الارشيدوق فرانز فرديناند ، وصاحبة السمو الامبراطوري الارشيدوقة ! وان الجيش الامبراطوري ليشعر ... »

لكني لم اكد اسمع حرفا من بقية المنشور .. فان كلمتي « جريمة » و « قتل » كانتا بمثابة طعنة وجهت الى قلبي ! .. حتى لكأنني كنت انا القاتل ! .. انهما الكلمتان اللتان استعملهما كوندور في حديثه ؟ وتذكرت فجأة تليفون الامس .. لم لم يتصل بي كوندور هذا الصباح ؟ ترى ماذا حدث ؟ .. وانتهزت فرصة الهرج الذي ساد المعسكر بعد فراغ القائد من اعلان النبأ فتسللت عائدا الى الفندق .. وهناك استقبلني الحارس وفي يده برقية لي .. او بالاحرى اخطار من مكتب البريد يفيد ان برقيتي المرسلة من محطة « ... » في الساعة ٣.٥٨ من يوم امس لم يتيسر تسليمها

عجبا ! . كيف ذلك ؟ .. يوجد في كيكسفالفا من لا يعرف ايث فون كيكسفالفا ؟ .. ولم اطق صبرا ، فطلبت الاتصال بكوندور في بيته بصفة عاجلة ! ..

وجاءت المحادثة بعد عشرين دقيقة ، وكان كوندور في البيت ــ ويا للعجب ! ــ بل كان هو الذي رفع السماعة .. وفي ثلاث دقائق سمعت القصة بحذافيرها : لقد تدخل القدر بنشاط عجيب فأفسد كل تدبيري ، وتدبير قائد الفرقة .. فان فيرنز وبقية الزملاء قد التقوا بالصيدلي في تلك الليلة المشئومة ذاتها بطريق المصادفة ، فاتهمه صديقي علنا امام الملأ بأنه يذيع اكاذيب مختلقة عني ، وحدثت مشادة كبيرة بينهما على الاثر .. وفي الصباح كان الحادث موضع ثرثرة اهل البلدة جميعا ، وتوجه الصيدلي محنقا الى المعسكر كي يستشهد بي على صدق انبائه .. فلما فوجىء باختفائي قصد الى قصر كيكسفالفا حيث اقتحم على الاب التعس مكتبه واتهمه بأنه جعله موضع سخرية البلدة كلها بسبب رسالته التليفونية السخيفة .. ثم اضاف انه لن يقبل ان

يوسعه نفر من الضباط الشبان اهانة واستهزاء .. وانه يستطيع ان يستنتج سر فراري الموصوم بالجبن .. ولن يسكت حتى يقتص مني بنفسه ، ولما اقتضاه نلك ان يسعى لدى السلطات المسئولة في وزارة الحرب .. الخ !

وبعد عناء استطاع كيكسفالفا ان يهدىء من ثائرة زائره ويصرفه ، وكان كل امله خلال المناقشة المحتدمة الا يصل طرف منها الى سمع اديث .. ولكن شاءت الاقدار ان تخترق كلمات الصيدلي الصاخبة الفضاء الفاصل بين حجرة المكتب الواقعة في الحديقة وبين الصالون ، حيث كانت تجلس اديث ، فسمعت الحديث كله بوضوح تام ! .. لكنها تظاهرت خلال الساعات القليلة التالية بأنها لم تسمع شيئا ، فضحكت وتندرت مع ابيها واليونا في مرح ظاهر ، وطلبت ان تعرض عليها اثوابها الجديدة ، واستفسرت عن مائة تفصيل وتفصيل فيما يتصل بالرحلة .. وفي اثناء نلك كلفت جوزيف سرا بأن يستفسر من المعسكر بالتليفون عن موعد عودتي وهل تركت رسالة ما ، فكان الجواب باني نقلت من البلدة ولم اترك اية رسالة ! ..

وكانت هذه هي الطامة الكبرى التي رجحت في ذهن اديث كفة الاسراع بتنفيذ مشروعها ، فأبت في سورة انفعالها ان تنتظر يوما آخر او ساعة واحدة ! ..

لقد خيبت املها خيبة مريرة وانزلت بها ضربة قاتلة لا طاقة لها بعدها على ان توليني مزيدا من ثقتها ! .. وامدها ضعفي بقوة جباره وعزم وطيد ، فطلبت بعد الغداء ان تحمل الى الشرفة .. وكأنما اوحى انشراحها الزائد الى (اليونا) بشيء من التوجس ، فلم تفارقها طيلة الوقت .. حتى كانت الساعة الرابعة والنصف ـ موعد زيارتي المألوف ـ فطلبت من (اليونا) ان تحضر لها كتابا معينا .. وكما يحدث عادة حين تشاء الاقدار ، استجابت هذه لنلك الطلب البادي البراءة .. فانتهزت التعسة تلك الفرصة القصيرة لتنفيذ فكرتها الجهنمية ، بعد ان عجزت عن ترويض قلبها الملتهب ... نفذتها على الصورة التي استعرضتها يوما امامي ، والتي طالما رأيتها في احلامي المزعجة ، في يقظتي ومنامي !

ووصل كوندور بعد دقائق ، ليجدها لا تزال على قيد الحياة .. وكانت ظاهرة خارقة لكل تقدير الا يحمل جسمها اثرا خارجيا للصدمة القاتلة ! .. وحملوها في سيارة اسعاف الى فينا وهي فاقدة الوعي .. وحتى ساعة متأخرة من الليل ظل الاطباء يأملون ان يستطيعوا انقاذها ، ومن ثم طلب كوندور ـ في الساعة الثامنة ـ محادثة عاجلة معي بالتليفون ، من المصحة .. ولكن في تلك الليلة ـ ليلة التاسع والعشرين من شهر يونيو سنة ١٩١٤ ـ كانت جميع خطوط التليفون مشغولة بلا انقطاع بمحادثات السلطات العسكرية والمدنية ، بسبب مقتل ولي عهد الامبراطورية .. فلبث كوندور اربع ساعات ينتظر الاتصال بي ، دون جدوى .. حتى قرر الاطباء ، بعد منتصف الليل ، الا امل في انقاذ المصابة ، فألغى المحادثة .. وبعد نصف ساعة اسلمت اديث روحها !

بين مئات الالوف من الرجال الذين جندوا للقتال في شهر اغسطس من نلك العام ، لم يكن سوى ثمة عدد ضئيل مضى الى ساحة الحرب في غير مبالاة ، ان لم اقل في لهفة ، مثلي ! ..

كانت الحرب بالنسبة لي مخرجا وبابا للفرار ، ففررت اليها كما يفر المجرم الاثيم الى قلب الظلمات ... وكنت قد قضيت الاسابيع الاربعة السابقة لبدء القتال في حال من اليأس والحيرة

والبغض لنفسي مازلت اذكرها حتى اليوم بفزع لا يقل اليه فزعي من ذكرى اشأم مآزق الحرب .... ذلك اني كنت مقتنعا تمام الاقتناع بأني بضعفي وشفقتي المرذولة اللعينة . قد قتلت مخلوقا بشريا ، بل المخلوق الوحيد الذي احبني أصدق الحب و خصه

وفي حمى حيرتي اليائسة كتبت الى كيكسفالفا اواسيه ـ مواساة كانت بمثابة الاعتراف باثمي ـ فلم اتلق عنه اي رد ! .. وامطرت كوندوز بالايضاحات التي حاولت بها تبرير نفسي . فلم اتلق عنه اي رد . .. وكذلك لم اتلق اي رسالة من زملائي في المعسكر السابق ولا حتى من ابي ، ولعله كان مرهقا بعمله الحربي في تلك الايام الحرجة .. ومن ثم رايت في هذا الصمت المريب اتهاما اجماعيا لي . خيل الي انهم جميعا يدينونني ، كما ادين نفسي .. ويعتبرونني قاتلا ، لاني هكذا اعتبرت نفسي !

وفيما كانت اوربا كلها تعاني حمى الانفعال ، تجند جيوشها للقتال ، لم يكن لي هم غير التفكير في خيانتي ، ونذالتي وجبني .. وهكذا كان استدعائي للحرب بمثابة الانقاذ لي من نفسي ، ومن يأسي !

وانا من الذين يمقتون المغالاة ، والعبارات العنيفة .. لهذا لن ازعم اني وانا اقاتل في الميدان سعيت الى الموت عامدا .. وانما حسبي ان اقول اني لم اخش الموت ، او على الاقل خشيته اقل مما فعل غيري .. فقد مرت بي ساعات كان تفكيري في العودة من الحرب حيا ، حيث القى اولئك الذين يشاركونني العلم بجرمي ، يسبب لي ذعرا يفوق ذعري من كل اهوال جبهة القتال !

ثم الى اين اذهب لو عدت ؟ .. من بقي هناك في حاجة لي ؟ .. من بقي يحبني ؟ . ولماذا ومن اجل من ينبغي ان اعيش ؟ .. واذا كانت الشجاعة لا تزيد على ان تكون محض « عدم الخوف » ، فاني استطيع ان ازعم اني كنت شجاعا في الميدان ! .. بل اني لم اخش حتى الكوارث التي كان زملائي يعتبرونها افظع من الموت ، لم اخش ان اصير كسيحا ، او تقطع ساقاي ، او غير ذلك من العاهات .. بل لعلني رأيت فيها عقابا عادلا وانتقاما الهيا ، القصد منه ان اغدو فريسة لرثاء الناس وشفقتهم العاجزة الموصومة بالجبن والضعف ، مثل شفقتي !

ولئن كان الموت لم يعبر طريقي فليس الذنب ذنبي .. فلقد ذهبت عشرات المرات للقائه ، بعين الاستخفاف وعدم المبالاة ، متطوعا لكل مهمة خطرة ومغامرة مميتة ، فكان في كل مرة ينحرف عن طريقي واعود محملا بأكاليل الغار واوسمة المجد والشرف ، تقديرا لبسالتي الزائفة ! ..

فلما انتهت تلك الاعوام الاربعة الرهيبة ، اكتشفت مدهوشا اني مازلت حيا ، واني عدت من « حمام الدم » يثقل ضميري وزر عدد لا حصر له من الارواح التي قتلتها بيدي في الميدان .. فكان لذلك بعض الاثر في تخفيف وطأة اثمي الاول الخاص . الذي استغرقته موجة الاثم العام !

وزادني ارتياحا ـ الى حد ما ـ ان هذا العالم المغاير الذي عدت اليه لم يبق فيه احد من شهود جريمتي القديمة ، يستطيع ان يتهم البطل المحمل بأوسمة البسالة بأنه كان في الماضي جبانا رعديدا ، او يصيح في وجهي بأني كاذب نذل ! ..

كان كيكسفالفا قد لحق بابنته بعد ايام معدودة من موتها وصارت اليه زوجة الحد بسببه في احدى قرى يوغوسلافيا .. واطلق قائد الفرقة رصاصة على صدغه انهى بها حياته حزنا عن

هزيمه وطنه .. وتبعثر زملائي القدامى من ضباط المعسكر فمات منهم من مات ، والذي بقي على قيد الحياة نسي كل شيء عن نلك الحادث التافه .. فان كل شيء يمت الى ما قبل الحرب صار بعدها تافها لا وزن له !

لم يبق هناك من يتهمني او يدينني ! .وهكذا صرت اشبه بالقاتل الذي دفن جثة ضحيته في الغابة اعتمادا على ان الجليد لن يلبث ان يتساقط بكميات هائلة تطمر معالم جريمته ، وحين يذوب الجليد بعد شهور يكون كل اثر للجريمة قد اختفى الى الابد !

وحزمت شجاعتي اخيرا ، وبدأت اواجه الحياة من جديد .. ولما لم يعد احد يذكرني باثمي فاني كنت اوشكت ان انساه ! ..

.. حتى اقبل شبح من « العالم الاخر » اعاد الى وعيي الذكرى المروعة .. كنت جالسا في دار اوبرا « فينا » ذات ليلة اصغي الى موسيقى « جلوك » وحين انتهت « افتتاحية » الرواية فتحت الابواب ــ وان ظلت الانوار مطفأة ــ ليدخل الى القاعة اولئك الذين جاءوا متأخرين .. واقبل شبحان يتلمسان طريقهما الى مقعديهما ، بجانبي : رجل وامرأة .. ولحظت من مشيتهما ان الرجل يقود مرافقته من يدها في رفق ــ بحيث لم يبق لدي شك في انها عمياء ! .. ثم اجلسها ، وجلس هو في المقعد الملاصق لمقعدي .. وعندئذ تبينت لفرط دهشتي ــ وذعري ــ انه ليس سوى الدكتور كوندور ! الرجل الوحيد الذي يعرف كل شيء ، حتى اعمق اعماق روحي ، واخفى خفايا جريمتي ! . الرجل الذي لم تكن شفقته ضعفا قاتلا مثل شفقتي ! .. بل كانت قوة مضحية منكرة للذات ! .. الانسان الوحيد الذي يستطيع ان يدينني ! والذي ينبغي ان احس امامه بالخجل ! ..

انه يجلس بجواري ، حتى لاكاد اسمع انفاسه ، وحين تضاء الانوار لن يلبث ان يعرفني . !

وبدأت ارتجف ، وقلبي يدق صدري كالمطرقة .. ووضعت يدي على وجهي خشية ان تحين منه نظرة في الظلام فيعرفني !

وكما لو كنت عاري الجسم من الثياب وسط كل هؤلاء النظارة الوقورين ارتعدت اوصالي فرقا من اللحظة التي سوف تضاء فيها الانوار فتمزق استار الظلام ، الذي يحميني !

وهكذا انتهزت فرصة اللحظات القليلة السابقة لانتهاء الفصل الاول ، والتي تفصل بين فتح الابواب واضاءة الانوار ، فدفنت رأسي بين كتفي مطرقا ، ومرقت من مكاني متسللا الى الخارج ، قبل ان يدركني النور ! ..

لكني ، منذ تلك الساعة ، تبينت انه ما من اثم يمكن ان يطويه النسيان .. ما دام ضمير صاحبه يذكره ! ..

انتـهـــت